صندوق الأبنوس

عبد الإله السباهي

الكتاب : صندوق الأبنوس (مجموعة قصصية)

المؤلف : عبد الإله السباهي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٧٣١٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 199 - 4

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



صندوق الأبنوس

مجموعة قصصية

عبد الإله السباهي



صندوق الأبنوس

جرجرتُ قدمي دون حماسٍ ذات يومٍ صيفيٍّ شديد الحرارة في شهر آب، ويعرف الجميع عندنا كيف هو الحرُّ في صيف بغداد في شهر آب، والذي (يذيب المسمار في الباب)، ورغم ذلك كنتُ مجبرًا على زيارة مركز شرطة بني سعيد الواقع في وسط شارع غازي، والمسمَّى اليوم بشارع الكفاح.

الدار التي استخدمتْ كمركز للشرطة تقع بين مدخل سوق الشورجة من جهة شارع غازي، وساحة الوصي.

بعد أن انتهيتُ من استنساخ كل الأوراق المطلوبة التي معي في سوق السراي (سوق المكاتب الرئيسي في بغداد) والقريب من سوق الشورجة، قصدتُ مركز الشرطة. تجنبتُ السير في الشوارع العامة هربًا من الحرِّ الشديد، فسلكتُ طريق الأسواق المسقفة والتي لا تصلها الشمس إلا عندما ينخلع لوح من سقف الجملون الذي يغطي سقوف تلك الأسواق من بدايتها حتى نهايتها. اجتزتُ مسافة لا بأس بها في سوق القماش والذي ازدحمتْ فيه جموع من النسوة وقد توشحنَ بعباءاتٍ سوداء رغم حرِّ الصيف القاتل،

فتذكرت حينها نساء بلغاريا، فعندما كانت ترتفع الحرارة هناك في الصيف درجة واحدة تأخذ ملابسهن بالتساقط لتكشف عن أزناد وسيقان بيضاء فتثير الرغبة فينا نحن الشباب القادم من الشرق.

تكثر في سوق القماش مصابيح النيون الكهربائية التي تبهر النظر فلا ترى لون القماش الحقيقي فتصاب بدوارٍ من نوعٍ غريب لا تعرف مصدره.

واصلت السير بهمّة عَبْر سوق (الصفافير) والذي لا تودّعه إلا وصوت طرق النحاس بالمطارق يظل في الأذن وكأنه الصدى. تصوروا عشرات من الحرفيين الذين يطرقون النحاس في آنٍ واحدٍ ليحوّلوا صفائح من النحاس الأحمر إلى أباريق وقدور ودِلال للقهوة وبعض الصناعات الشعبية التي تجسّد تراث العراق فيقتنيها السائح لتظل ذكرى.

قطعت أمتارًا قليلة على عَجَل فوجدتني في شارع الرشيد، عبرته ودخلت سوق الشورجة الشهير. تهت هناك في سوق الشورجة، في عالم الخردة والتوابل والعطور والبخور، وكان السوق في هرج ومرج كالعادة، الكل تتدافع لتشق لها طريقًا فيه، زاد في زحام السوق عربات اليد التي انتشرت وسطه والتي يعرض عليها الباعة المتجولون بضائع مختلفة لا تعرف مصادرها فسدّت الطريق على السابلة، ويزيد في ذلك الزحام الحمالون الذين يتراكضون سعيًا وراء رزقهم وقد أنهكت أكتافهم سلال مرصوصة بشتى

البضائع ويركض خلفهم أصحاب تلك البضائع خوفا من فقدانها.

راحت روائح أعواد البخور الهندي، وعبق التوابل النفاذ والمعروضة بكثرة، تجرني جرًا إلى أعماق التاريخ، فأعادتني إلى الماضي بكل عبقه وذكرياته الحلوة؛ والمريرة أيضًا.

وبسبب زحمة السوق تعذَّر عليَّ قطع الألف متر بسرعة، ولم تسلم أكتافي من لكز المارة، فدفعة من هنا وجرة من هناك كادت تطيح بالملف الذي في يدي والذي كنت أحافظ عليه بكل قوتي.

ندمت على سلوكي طريق السوق المزدحم للوصول مبكرًا لقضاء مهمتي الغريبة في مركز الشرطة، ولكن الحنين إلى الماضي كان يجرُّني جرًا إلى تلك الأماكن الغاصة بعبقه.. وقبل أن تنتهي (رحلتي) في سوق الشورجة، طالعتني أسواق الجملة التي تُباع الفاكهة فيها معبأة في أقفاص من جريد النخل، وبعد أن يُقام لها مزاد، وكانت أقفاص الفاكهة تتدلى على أكتاف الحمَّالين بذراع من الحديد ليحدِّد وزنها. تجد هناك كل أنواع الفاكهة الشهية الطازجة، والتي كانت تجود بها بساتين بغداد والمدن الأخرى بوفرة، فتفاح بغداد الأبيض يملأ أقفاصًا صغيرة صُنعت من سعف النخل، ورمان مدينة (شهربان) المقدادية، والذي لم يحتمل كثرة الماء فراح يتشقق على أشجاره ليكشف عن حباته القانية الحمرة فيحمّل بأقفاص من جريد

النخل أيضًا، تحميه أوراق الريحان البري من لفحات الشمس ومن تراب الطرق، ناهيك عن سلال التين والمشمش والعنب.

لم أسلم هنا أيضًا من زحمة البغال، ولا من أقفاص الفاكهة التي تربعت على ظهور الحمَّالين، والذي أحدث واحدٌ منها شقًا صغيرًا في قميصي وفي كتفي من تحته.

وأخيرًا، وصلت إلى شارع غازي، فتنفست الصعداء فقد انتهت الزحمة وأصبحت الطريق رحبة واسعة تفوح منها رائحة القار الذي أخذ يسيل تحت شمس بغداد الحارقة.

تمتد الطريق المعبَدَّة إلى ساحة الوصي، ثم تواصل المسيرة حتى الباب الشرقي حيث تنتهي بسينما غازي حيث يقف نصب الحرية للفنان العراقي الخالد جواد سليم فوق أنقاضها اليوم.

ساحة الوصي هذه كانت حديقة عامرة الخضرة، تزينها الزهور فيقضي الناس فيها أوقاتًا من الراحة، جالسين في ظلال أشجارها على مساطب خشبية، تقابلهم سينما الفردوس مزينة بصور الأفلام التي تغطي الواجهة، فتشاهد الممثلين في أوضاع مختلفة، مثل فريد الأطرش وطربوشه، وصباح وشعرها المنفوش، أو سامية جمال في ثياب الرقص الفاضحة، وغيرهم، وكلها رُسِمت يدويًا بغير إتقان. كان الفيلم المعروض حينها، فيلم (بلبل أفندي) لفريد الأطرش وساميه جمال، وكانت عربات الخيل وسيلة نقل للناس مهمة في ذلك الزمان فالسيارات قليلة جدًا ولم يعتد الناس

ركوبها ـ سُمِّيت تلك الساحة اليوم، بساحة النهضة بعد أن (نهض الشعب! ـ وقبل أن أصل إلى الساحة بمائة متر وجدتُ مركز شرطة بني سعيد، وقد ارتفع عن الرصيف بدرجتين من الآجر في مدخل زقاق ضيق مغلق، وضع أحدهم في مدخل ذلك الزقاق (حب) جرة من الفخار لحفظ ماء الشرب فيه، غاص نصفه بمقعد صنع من خشب التوت، ولفَّ بخيش من القنب ليجعل الماء باردًا فيه على مدار اليوم، انتصب فوق غطائه الخشبي قدحٌ من النحاس الأصفر، رُبِط بسلسلة خوفًا من فقدانه ليشرب به المارَّة ترحمًا على أروح أجداد ذلك المحسن.

شربتُ كوبًا من ذلك الماء بعد أن جفَّ لساني، وكان الماء فاترًا فتجرعته على مضض، وترحمتُ قليلاً على أجداد صاحبه، ثم صعدتُ الدرجتين ودخلتُ مركز الشرطة متوكلاً على الله عسى أن تُنجز معاملتي فيه بسرعة.

بدأ اهتمامي في نبش التاريخ، والبحث في أسراره الغامضة هناك... أمَّا لماذا هناك وفي مركز شرطة بني سعيد بالذات بدأ ذلك الاهتمام؟.

صبرًا عزيزي القارئ سوف تعلم ذلك عن قريب.

إحدى مصائبنا في العراق، هي أن الأوراق (الثبوتية) لأي مواطن تأتي بالمرتبة الأولى في أولويات حياته، ثم تأتي بعدها ذاته الإنسانية كونه بشر، جُبِل من لحم ودم ومشاعر، ولا أنصح أحدًا بأن يهمل أو يفقد واحدة من تلك الأوراق التي تثبت أنه فلان ابن

فلان، إلخ. فحتمًا سيضيع هو مع تلك الوثيقة المفقودة، أو على الأقل جزأ منه لن يظلَّ سالِمًا في متاهات الدوائر الرسمية للحصول على صورة من ورقة الثبوتية المفقودة.

بعد غياب طويل عن العراق دام بضعة سنين قضيتها في مدينة (بلوديف) البلغارية، عدتُ إلى وطني خالي الوفاض من أي ورقة تثبت أن اسمي "فوزي" وكوني وُلِدتُ في مدينة سوق الشيوخ في محافظة الناصرية عام ١٩٤٥، واسم أبي هو "ريسان" وأمي "سليمة" وديانتي مندائية، كل ما كان معي من أوراق هو جواز سفر تقادمتْ عليه السنين، وعبثتْ به أنامل مزوِّر غشيم جديد العهد بالصنعة، والتي أصبحتْ الآن مهنة رائجة وفيرة الربح بعد أن راح الجميع يفكِّر في الهرب من الحُكم الدكتاتوري القاسي.

هنا في العراق ليثبت العراقي أنه مواطن عراقي بحق وحقيقة، لا يكفيه سماره المميز، ولا لهجته الحادة المقاطع والغريبة المفردات والتي ينفرد بها العراقيون من بين شعوب العالم العربي من كثرة تعاقب المحتلين على بغداد. ولكي يثبت المواطن العراقي عراقيته أمام دوائر الدولة عليه أن يمتلك دفتر الجنسية العراقية أولاً، وكان هذا الدفتر يصرف للعراقي حين ولادته على شكل دفتر صغير الحجم يزينه التاج الملكي، وبين طياته يكتب سجله العائلي وحالته الاجتماعية. لقد أصبح هذا الدفتر اليوم مجرد ورقة، وقلب اسمه من الجنسية العراقية إلى هوية الأحوال

المدنية. راح الناس يغلّفون ورقة الأحوال المدنية تلك بطبقة من النايلون، للحفاظ عليها من عاديات الزمن.

ثم على العراقي أن يمتلك أيضًا شهادة الجنسية العراقية لتثبت أنه من التبعية العثمانية، أو من التبعية الإيرانية، ولا توجد عندنا في العراق تبعية عراقية !. ثم على الرجل أن يمتلك كذلك دفترًا للخدمة العسكرية، واليوم عليه أن يمتلك البطاقة التموينية وبطاقة السكن وغيرها العديد من البطاقات التي لا تجدها في بلد آخر.

كل تلك الوثائق على المواطن العراقي أن يحملها معه وبنسخها الأصلية، ليبرزها جميعًا كرزمة واحدة كي يستطيع أن يجد عملاً في دواوين الدولة، أو يقضي معامله ما، أو يبيع ويشتري.

عندما قدّمتُ طلبًا في دائرة النفوس للحصول على هويات جديدة، بدل تلك المفقودة؛ بدأتُ رحلتي مع العذاب، وكان أولها أن أقدّم شكوى في مركز شرطة بني سعيد حيث سكنتُ بعد عودتي إلى العراق للعيش في بيت أبي قبل أن ينتقلوا إلى السكن في شارع فلسطين. أذكر في الشكوى أنني فلان ابن فلان قد فقدتُ كل الأوراق الثبوتية التي تخصني، كي أستطيع بعدها نشر ذلك الخبر (المهم) في الصحف المحلية، وبعد أن تمضي ثلاثة أشهر على نشر الخبر قد تصرف لي وثائق جديدة بعد أن أثبتُ إنني فوزي ابن ريسان وابن سليمة حقًا، ثم يشهد على ذلك شهود عدول.

الموضوع لم يعد مهمًا الآن، والحديث عن كل تلك التفاصيل الغريبة لا تثير حماسي، ولكن يجب أن يعرف القارئ الدوافع التي دفعتني لكتابة قصتي هذه.

البداية كانت هناك، في مركز شرطة بني سعيد بالذات في رصافة بغداد القديمة، وقد بدأت أحداثها هكذا:

شغل مركز شرطة بني سعيد ـ كما قلت ـ دارًا قديمة تطل على شارع غازي غير بعيد عن سوق الشورجة، وعلى الرغم من أن الدار ترتفع قليلاً عن منسوب الشارع، ويُعاد طلاء جدرانها من فترة إلى أخرى، تظل الرطوبة تداهم بعض غُرف الدار راسمة خرائط ولوحات سريالية على جدرانها متحدية حرارة الصيف. عندما دخلت مركز الشرطة في ذلك اليوم، وجدته في حالة من الهرج والفوضى لا تتناسب مع مركز مخصص لحفظ الأمن، وما يرافق ذلك في العادة من انضباط وهيبة، فجميع أفراد الحرس، وآمرهم معهم، كانوا قد تركوا مواقعهم وهم في ملابسهم الرسمية المميزة. ووقفوا بعيدين عن غرفة آمر الحرس، وبنادقهم في أيديهم جاهزة للاستعمال، وكأنهم سيدخلون معركة مع العدو.

كان رجال الشرطة ـ وكما قلت ـ في حالة من الخوف والذعر تلفت النظر، وعندما دخلت المركز وانضممت إليهم، لم يلتفت لي أحد، فوقفت مع من كان واقف أراقب ما يجري، منتظرًا متى تنتهي تلك الفوضى، أبحث مثل غيري من المراجعين عن تفسير معقول لتلك الحالة الغريبة النادرة.

رحتُ أتطلع إلى الغرفة التي ينظر إليها الجميع برعب والتي لم يكن في داخلها سوى رجل أعزل غريب الملبس وغريب الأطوار، الرجل في العقد الخامس من عمره وكان ذا ملامح تشدُّ الناظر إليه من النظرة الأولى، وهي ملامح جميلة في ذات الوقت، وكأنه بحّار إنكليزي قد تسلل توًا من باخرة زنوبيا التي كانت تمخر مياه دجلة بين بغداد والبصرة. أطال الرجل شعر رأسه، ثم ظفَّره جديلتين، فراحت تلك الجدائل تتراقص بتناغم مع حركاته الراقصة. أما عيونه الزرق فستشعرك فورًا بأنها طارئة على ذاك السمار العراقي الحنطي المميز، والذي لا تنسجم معه إلا العيون السُود التي توارثها العراقيون أبًا عن جد.

كان الرجل يكلّم "لا أحد" صارخًا بلهجة آمرة:

ـ اخرج من مكمنك أيها الجِنُّ الخبيث.

ثم راح صوته يرتفع مهدِّدًا مشيرًا بيديه إلى "لا شيء" آمرًا الفراغ بأن يخرج وإلا سلّط عليه (البردسول الأزرق).

لا تسألني عزيزي القارئ ما هو هذا (البردسول الأزرق) فأنا مثلك لم أتعرف عليه من قبل، ولا أعرف ماذا تعني تلك العبارات السريالية الغريبة، ربما كانت اسم لشيطانٍ ما، أو لملكٍ من ملوك الجان، أو ربما كانت عبارة لا معنى لها مثل عبارة (خضرة أم الليف) والتي كان أهلنا يخيفونا بها ونحن أولاد صغار، فكنا نرتعد خوفا من خضرة أم الليف دون أن نعلم إنها تعني النخلة عشيقة طفولتنا.

بعد صراخ امتدّ لدقائق ظهر ثعبانٌ أسود على سقف الغرفة، وراح ذلك الثعبان المرعب يزحف ببطء هابطًا إلى الأسفل، منزلقًا برشاقة على الجدار حيث يقف الشيخ "عباس"؛ وهذا هو اسم الساحر ذي الجدائل الواقف وسط غرفة رئيس الحرس الخالية.

كان الشيخ عباس يزاول مهنة السحر وكشف الطالع، في دكان صغير انزوى في إحدى الطّرق الضيقة، غير بعيد عن مخفر الشرطة، وقد استدعاه آمر المخفر لينقذهم من ثعبان أسود ظهر في الدار التي يشغلها مركز شرطة بني سعيد.

بكل هدوء، وبشيء من المباهاة أمسك الشيخ عباس الثعبان من رأسه، ثم وضعه في كيس من القماش كان معه، وراح يخاطب الثعبان بخشونة مهدّدًا إياه ويأمره قائلاً:

ـ لا تقصد هذا المكان مرة أخرى.

وأخذ يقدّم الأعذار إلى مأمور المركز كون هذا الجنيّ من الصنف النزق، غليظ الطباع، وغير منضبط، وإنه جاء إلى مركز الشرطة دون إذن منه، وحجته في ذلك أن: (واحدًا من أفراد الشرطة قد ضايقني في زيارته الأخيرة لدكاني، محاولاً قطع رزقي، وابتزاز بعض الدراهم مني والتي لا أحصل عليها إلا بشق الأنفس).

بعدها أخذ الشيخ ثعبانه وانسلّ إلى محل عمله تودعه نظرات الخوف، والامتنان من كل العاملين في ذلك المركز الأمني، ومعها وعودٌ من الأفراد جميعًا بأن لا أحد يضايق الشيخ بعد اليوم. أما ذلك الشرطي المقصود بكلام الشيخ عباس فراح يستجدي

العفو من الشيخ، ويقسم بأغلظ الأيمان بأنه صاحب عائلة كبيرة، وسوف لن يزور محل الشيخ، حتى ولا من أجل التحية.

الطلب الذي جئت بالأساس من أجله، تركته في حقيبتي الصغيرة التي أحملها معي، وتبعت ذلك الرجل بدافع الفضول حتى وصل إلى محل عمله، وكان عبارة عن دكان صغير تحجبه الدروب الضيقة عن نظر المتطفلين.

لا أعرف متى بُنيت تلك الدور الفقيرة الصغيرة المتراصة لتشكِّل أحياء بائسة سكنها الفقراء من اليهود والنازحين إلى بغداد من جنوب العراق. بيوت تكدست بعضها فوق بعض، وأسواق شعبية أغلب دكاكينها أفرزت من البيوت، امتدت لعدة كيلومترات، وكل تلك البيوت بُنيت بشكل عشوائي، فلابد للغريب أن يتيه فيها ولا يجد طريقه إلا بصعوبة، وكانت خزانات الصرف الصحي تُحفر وتُبنى داخل الدور فتفيض بين مدة وأخرى لتضيف بؤسًا آخرَ لسُكَّان تلك المجمعات.

عند ولوجك لمحل السيد عباس عليك أن ترتقي درجة واحدة بعلو حوالي ربع متر، وليس في المحل كراسي من أجل الجلوس، كل ما هناك لهذا الغرض وسائد معتمة اللون. وقد فرشت أرضية الدكان ببسط عتيقة نُسجت من خيوط الصوف الغليظة مطعمة بنقوش هندسية، أسدلت في وسط المحل ستارة من القماش السميك لونها كلون المقاعد، وقد لامست الأرض تمامًا

وقطعت المحل من الجدار إلى الجدار دون أن تترك فتحة، فلم أميِّز ماذا كانت تخبِّئ خلفها.
عُلقت على جدران المحل من الداخل مجموعة من الصور لآياتٍ قرآنية، وتكرَّرت بينها آية الكرسي، فكانت معلقة في كل ركن وبشكلٍ واضح، وهناك ورقة عتيقة اصفرَّ لونها كُتبت باللغة العبرية ربما اقتطعت من توراة قديمة، عُلقت في مكان لا يلحظها أحد إلا عندما يشير إليها الشيخ عباس بسبابته، وعندها تدار الرؤوس وتشرئب الأعناق إلى أعلى الجدار المقابل لمكان جلوس الشيخ لتنظر إلى تلك الورقة وكأنها تحفة أثرية أو طلاسم فيها مفاتيح السعادة.

تربَّع الشيخ عباس جالس أمام صندوق زجاجي احتلَّ صدارة الدكان، وكان الصندوق صغير الحجم من الخشب الرخيص صُنِع على شكلٍ مكعب يعلوه لوحٌ من الزجاج وكذلك جوانبه، وصُبغ بدهانٍ أزرق معتم. ازدحمت في قاع الصندوق أحجار ملونة وحصى وبعض الجذور وثمار صحراوية جافة كروية الشكل، وقطع من أفاعي مجففة وبعض الصدف والمحار، وغيرها من المقتنيات الغريبة المثيرة للفضول.

بعد أن تركت الشيخ يجلس، ويضع ثعبانه في ذلك الصندوق الذي انتصب أمامه، ويقفل عليه، اطمأنَّ قلبي فاقتربت منه مسلِّمًا، فرجاني بالجلوس مشيرًا إلى إحدى الوسائد مرَّحِبًا بي، مستعرِضًا قدراته بشيء من الفخر.

تربعت مثل الشيخ على المقعد الذي يقابله.
أطريت كثيرًا على ما فعله في مركز الشرطة، وأبديت إعجابي بقدرته في إخراج الأفعى من مكمنها في سقف الغرفة، لكنه اعترض هنا على كلمة أفعى قائلاً إنها ليست ثعبانا، وإنما هو جني مشاغب يسبّب المتاعب للجميع دائمًا.

سألته من باب الفضول إن كان بإمكانه قراءة الطالع فأجاب: نعم، وهنا دسست في يده بضعة دراهم طالبًا منه أن يكشف لي جانبًا من المستقبل.

لم أدرك دافعي الحقيقي وراء خوض تلك التجربة، في حين كنت بعيدًا كل البُعد عن مثل تلك الممارسات ولا أعتقد بها أصلاً. هل كان دافعي هو من باب مساعدة الرجل بعد أن رأيت الفقر الذي يعشش في دكانه، أو من أجل توثيق العلاقة معه، ولكن لأي سبب؟ ولكنها بأية حال تجربة لا تمت بصلة بقناعاتي الفكرية كما ذكرت، وقد حدثت رغمًا عني.

كان ذلك قبل أربعين عامًا من يومنا هذا، والذي قطعت فيه البشرية مراحل متقدمة في ثورة المعلومات وغزو الفضاء، والغور في نشأة الحياة ذاتها، فلم يعد فيها ربما مكان للسحر والسحرة وقراءة الطالع.

أخرج الرجل ورقة دفتر مدرسي ذي خطوط زرقاء يعلوها خط أحمر، ذكرتني تلك الورقة بأيام الدراسة الابتدائية، وراح يكتب

عليها بضعة أرقام، وعندما رأى اهتمامي بما كان يكتبه ترك الورقة وراح يكتب على أظافره؛ وكأنه يسبق عصره؛ ويقوم بعمليات حسابية بطريقته لم يتوصل إليها العلم بعد، فلم أفهم أنا منها شيئا.

راح الشيخ عباس يحدثني عن ماضيي ومستقبلي بشيء من العموميات غير المترابطة، ولكن أغلب ما قاله لي في ذلك اليوم كان حقيقة قد وقعت لي؛ أو هكذا ما أظنه اليوم.
قال إنني مررت بأيامٍ سوداء، فقدت فيها إنسانًا عزيزًا على قلبي. وقال أيضًا إنني سوف لن أتزوج بالبنت التي أحببتها، ولكنني سأقترن بامرأة غريبة سأتعرف عليها صدفة، وسوف أحظى بثراء واسع، ولكن بعد جهد مضني، وسوف أكوّن أسرة كبيرة، ولكنها ستتفرق في أرجاء شتى، وسأقضي شيخوختي وحيدًا بدون أهل أو أصدقاء.. وغيرها من العموميات المحزنة.

عادت بي الذاكرة إلى زمان كُنَّا نسكن فيه محلة الصبة في سوق الشيوخ على ضفاف نهر الفرات الخالد، حينها كنت في الصف المنتهي للمرحلة الثانوية، وكنت بجانب تفوقي في الدراسة ماهرًا في صياغة الحلي الذهبية؛ تلك المهنة التي توارثناها نحن المندائيون[١] أبًا عن جد، وبذلك كنت أساعد أبي في إعالة عائلتنا بعملي معه في دكانه في ساعات الفراغ، كان المحل الذي يمتلكه أبي صغيرًا وسط السوق يقابله محل نداف اللحف وكان يفترش أجزاءً من الرصيف والقطن يتطاير فيسبب لنا

الكثير من الإزعاج، ولكن أبي كان صديقًا لذلك النداف فكان يغض النظر عن ذلك دون تكلف بينما كنت أنا أتضايق كثيرًا وأفقد السيطرة على أعصابي بين حين وآخر ولكن أبي كان لي بالمرصاد فيزجرني ويهدئ من توتري وينهاني عن عصبية الشباب وتهورهم.

بعد أن تزوجت أختي الكبرى أصرَّ أبي على عقد مهري على ابنة عمي الجميلة كأغلب الفتيات المندائيات؛ والتي كانت خطيبتي منذ الصغر، فكنا نعشق بعضنا بقوة. كان ذلك في بداية عام ١٩٦٣ وكنا ننتظر أن يأتي نيسان حيث الدفء [٢] وقد أعدَّت كل الترتيبات لعقد قراننا في نهر الفرات الخالد.

لم أكن قد تعرفت علي أية امرأة عن قرب قبل ذلك. راودني القلق بهذا الخصوص، وخاصة أن العُرف عندنا كان يقيس رجولة الفرد في إثباتها ليلة دخلته، وكأنه يخوض معركة الفشل والنصر في تلك الليلة، والفشل هنا يعني الخزي للفتى ولعائلته. ترى كيف سوف أتصرف مع فتاتي في ليلة دخلتنا، وأنا عديم التجربة بهذا الشأن؟ أما عن ابنة عمي فلا تتحدث، فهي أشدُ جهلاً مني في تلك التفاصيل، ولا أظن ستنفع معها كل التوصيات التي لا تبخل بها النساء المجرّبات المحيطات بها، وهنَّ يشرحنَ لها دورها في ليلة الدخلة بتلذذ مستذكرات تجربتهن في تلك الليلة.

نصحني أصدقائي الشباب أن نذهب إلى خيام الغجر القريبة من مدينة الناصرية، وهناك سنتعرف إلى النساء لقاء بضعة دراهم قادرين على توفيرها. وجدت في تلك النصيحة فكرة حسنة سوف تجنبني الإحراج في مهمتي القادمة، وتعطيني الدرس الأول في علاقة الرجل بالمرأة.

ذهبنا نحن مجموعة من الأصدقاء ذات مساء إلى تلك الخيام، وكنا جميعًا على وجل، فأخذنا نُشجّع بعضنا البعض، وكأننا سنواجه تنينًا خُرافيًا!.

وجدنا في خيام الغجر مجموعة من النساء بأعمار تجاوزت سن الشباب حسب مقياسنا له، وقد غطت وجوههن زينة صارخة وُضِعت بدون ذوقٍ وبشكل مبالغ فيه. كم تمنيت حينها لو إنني لم أقبل تلك النصيحة وأجنّب نفسي تلك التجربة المقززة. تمنيت حينها أن أختفي من الوجود.

المهم، اقتادتني إحداهن كما تُقاد الشاة إلى النحر فجرجرتني إلى خيمتها حيث مخدعها الذي كثرت من حوله المباخر التي كانت تطلق رائحة بخور رخيص، عند باب الخيمة وُضع فانوسٌ نفطيٌ على الأرض لينيرها، ولكنه فشل في إز احة ظلمة الليل الكالحة.

سرت معها مطأطئ رأسي كأنني طفل صغير تقوده أمه إلى فراشه.

عندها جردتني تلك المرأة المجرّبة من بعض ملابسي، بعد أن أدركت ما أنا فيه من حرجٍ وخجل، وتجرَّدت هي بدورها من بعضها ثم أخذت بيدي لأمارس معها لعبة المرأة والرجل الأبدية. حرَّرت معصمي من قبضة المرأة بعد أن تمددت هي على ظهرها فوق ذلك الفراش الفاقع اللون، ولم أقم بمجاراتها في تلك اللعبة فوقفت ساكنًا وقد تجاذبني حينها أفكار وعواطف شتى. فحولة عارمة تدفعني لألقي بنفسي فوق تلك المرأة الممددة أمامي وشعور بالذنب والخوف يجرني بعيدًا عنها، وبدلاً من أن أتمِّم اللعبة معها؛ هرعت إلى الفانوس وجئت به لأتعرف على ما تخبئه كل امرأة تحت ثيابها، فصاحت بي : ماذا تفعل يا هذا؟

ثم ضحكت وتركتني أقرب النور من ساقيها. لقد عرفت هي بخبرتها الطويلة إنها تجربتي الأولى، وربما أثارها هذا فلم تبخل عليَّ في المشوار وراحت به إلى الآخر. عندها شعرت بأنني أتقنت اللعبة وانتصرت فيها بتفوق، فودَّعتها راضيًا.

وأنا في الطريق رحت أضحك مع نفسي مستذكرًا قصة قديمة سمعتها منذ أيام الطفولة تقول:

دخل عبد الرسول على زوجته في ليلتها الأولى وكانت صغيرة السن جدًا، وظلَّ المجلس الاحتفالي منعقدًا بانتظار أن ينجز عبد الرسول مهمته، ولكنه فشل في اليوم الأول.. وفي اليوم الثاني؛ تمكن من ذلك وعاد إليهم فرحًا ليطمئنهم بالنتيجة، ولكنه ظلَّ يترك مجلس الفرح مراتٍ عدة ليذهب إلى زوجته من جديد،

وحين يسألونه: لماذا تعاود الذهاب إليها وتتركنا، هل راقت لك اللعبة أم ماذا؟.. فكان يجيبهم: أعاود الكَرَّة لغرض التأكد من أنني أنجزت المهمة على ما يرام فقط (للتأكد).

رحتُ أفكِّر مثله، ترى هل أعاود الكَرَّة إلى تلك الخيام لأتأكد من أني أنجزتُ المهمة فعلاً؟

لم تكتمل استعدادات عُرْسي رغم شوقي ولهفتي لتلك الليلة.

للعُرْس عندنا نحن المندائيون في سوق الشيوخ طقوس جميلة مشوقة ينتظرها العريس والعروس بكل لهفة. في العادة وقبل عقد القران بشهر تبدأ مراسيم الفرح. يجتمع الشباب في الديوانية (غرفة كبيرة لاستقبال الضيوف) ويقضون الشهر كله قبل المهر في المرح والغناء، وكذلك الفتيات يجتمعن في ديوانية أهل العروس ويقضين اليالي في طرب ورقص. وفي أسبوع الدُخلة تنظم الولائم بشكل دقيق يساهم بها كل المندائيون في المدينة، فتقوم ثلاث عائلات مختلفة كل يوم بجلب طعام للضيوف بصواني مغطاة بقماش أبيض، ويجب أن تحتوي كل واحدة منها على ست (بشوش- نوع من أنواع البط صغير الحجم) محشية ومقلية، ولا أعرف لماذا هذا الرقم الذي يجب أن لا ينقص ولا يزيد، وهكذا تساهم كل العائلات بتلك الفرحة فتشد أسرنا إلى بعضها بمحبة، وبعد انقضاء الأيام السبعة يكفُ الفرح وينتهي الهرج ويهرب العروسان إلى البساتين القريبة ليستمتعا بالخضرة كنزهة واجبة بعد الزواج.

لقد تبدّل الحُكم في العراق في الثامن من شباط ذلك العام بانقلاب عسكري حدث على حين غرة. لم ينتظرني شباط الأسود لأكمل عرسي، وكان انقلابًا دمويًا، عمّت فيه المجازر كل أنحاء العراق، وطالت حتى الناس العاديين اللذين لا شأن لهم بالسياسة.

كنتُ شابًا متحمسًا لشعارات ثورة تموز، ولقائدها عبد الكريم قاسم، وهكذا كنتُ هدفا لبطش الحرس القومي ـ الذراع الضاربة للحُكّام الجُدد ـ فهربتُ إلى البصرة عن طريق غابات النخيل؛ وليتني لم أهرب.

ـ (الإنسان يسير أسرع عندما لا يعلم إلى أين يسير).

تنكرتُ حينها بزيّ صيّاد سمك وأخذتُ طرادتي [٣] وانحدرتُ بها فجرًا مع نهر الفرات مارًا بمناطق آل حجام وآل صيدح حتى كرمة بني سعيد، ومنها إلى الهور، حيث قرية الجبايش، وهناك بعتُ قاربي بثمنٍ بخس، وسافرتُ إلى البصرة، حيث لا يعرفني أحدٌ فيها عدا بعض أقاربي.

في البصرة قام أقاربي بأخذي متسترًا إلى مدينة أبي الخصيب القريبة، ومن هناك إلى منطقة اللباني، ومن اللباني إلى منطقة البوارين، ولا نزال في الأراضي العراقية، وفي البوارين قام الفلاح أبو عويد ولقاء مبلغ من المال بتهريبنا إلى إيران عبر نهر صغير على الحدود العراقية الإيرانية بواسطة قدر من الصفيح السميك

مربوط بحبل طويل، يعبر الفلاح إلى الضفة الأخرى من النهر ومعه الحبل الذي ربطه بالقدر، ثم يقوم بسحب القدر الذي كنت مستلقيًا فيه، أو قلْ متكورًا في قعره، وهناك أتت سيارة إيرانية، وقد اتفق المهرب أبو عويد مع سائقها على أن يأخذني إلى مدينة المحمرة الإيرانية.

ما لاقيته في إيران قصة يطول الحديث عنها، حيث كان (السافاك) ـ أي المخابرات الإيرانية ـ يلعب معنا لعبة قذرة بحجة إيصالنا إلى حزب تودة (الحزب الشيوعي الإيراني). وأذكر هنا ما كتبه شاعر العراق المعروف مظفر النواب الذي مرَّ بمثل تلك التجربة :

مسكين يا طالب بدر [٤]

بالليل عبروك بجدر

الله وياك يا المنحدر

لابد يقفصك أحمدي [٥]

المندائيون لهم أقارب كُثر في إيران، عاش معظمهم في جنوب غرب إيران في منطقة الأهواز والحويزة والمحمرة، وكل تلك المدن كانت عراقية قبل أن تنسلخ من العراق وتضمها إيران إليها، فظلّتْ تربطنا بأهلنا في تلك المناطق أواصر محبة ونسب، فنحن لا نتزاوج إلا من داخل طائفتنا.

استطاع أقاربي في الحويزة عن طريق معارفهم من الإيرانيين أن يجدوا لي سبيلاً للخروج من إيران بجواز سفر مزور، وبذلك الجواز استطعت الوصول إلى جمهورية بلغاريا الاشتراكية. وفي تلك الدولة حصلت على زمالة دراسية أنهيت فيها تعليمي العالي في علم المساحة (جيديزيا).

كان معنا في مدرسة سوق الشيوخ الثانوية طالب اسمه طه، وكان هذا الطالب فاشلاً في أغلب المقاييس، مكروهًا بين الطلبة لجُبنه وخسته. كان طه هذا يكنُّ لي كُرهًا خاصًا، كوني لم أساعده في قاعة الامتحان النهائي، ولكوني من الطائفة المندائية، ومحبوبًا من قبل زملائي الآخرين، وأن العديد من الأساتذة الذين فشل في اجتياز الامتحان عندهم هم مندائيون أيضًا. بعد الانقلاب الأسود تنمر هذا الطالب بعد أن التحق بالحرس القومي فراح يطارد معظم طلبة صفه وأساتذته.

بعد أن فشل طه في القبض عليَّ؛ راح يضطهد عائلتي، ولكون أبي من الناس المعروفين في المدينة توسط له العديد من وجهائها لدى المسؤولين الجُدد، فكفَّت زُمر الحرس القومي من التعرض لعائلتنا، ولكن لم تسلم حبيبتي ابنة عمي وزوجتي المرتقبة من جرائم الحرس القومي، ومن المجرم طه بالذات فهو يعرف كونها مرتبطة بي، ويعرف أن زواجنا كان وشيكًا.

في ليلة قارصة البرد، ولم يبقَ من نور القمر ما يضيء الطرقات اقتادت مجموعة من مجرمي الحرس القومي (سهام) خطيبتي بحجة

أنها مطلوبة للتحقيق عن نشاطها في حركة الدفاع عن حقوق المرأة في المدرسة. داهمت زمرة من الحرس القومي بيت عمي فجرًا؛ ولم يكن عمي في الدار، ولم يكن فيه سوى النساء والأطفال، فألقوا القبض على ابنة عمي واقتادوها خارجًا. لم تتركها أمها طبعًا وظلّت متشبثة بها، وعندما حاولت تحرير ابنتها من قبضة أحدهم تلقت ضربة على رأسها بعقب البندقية وسط الطريق أفقدتها الوعي.. وهكذا ذهبوا بسهام إلى المجهول.

يقال إن لـ(طه) يدًا في خطف سهام، ولم يعرف أهلها عن مصيرها شيئًا إلى اليوم، رغم كل الجهود و(الوساطة) عند أعلى المراتب الحكومية. الكل كان يدعي أنه لا علم له بمثل تلك الحادثة، أو النفر الذي قام بها، حتى أن طه عندما استدعاه أحد المسؤولين أنكر معرفة بالأمر.

هكذا قاد سهام جمالها وحبها لي إلى مصيرها العاثر، ولم يُسمع عنها خبرٌ بعدها.
ترى هل لا زالت سهام على قيد الحياة، أم قتلها المجرمون؟ وظلَّ هذا السؤال ينغّص علينا عيشنا إلى هذا اليوم.

عدت بعدها من بلغاريا بعد أن تبدل الحكم في العراق ثانية أثر انقلاب عسكري ثاني. هناك في بلغاريا تعلمت اللغة الروسية بجانب اللغة البلغارية التي هي إحدى اللغات الصربية الشقيقة للروسية حتى أن أبجديتها واحدة.

كان العراق يمرُ بركود اقتصادي خانق في تلك الفترة فلم أجد عملاً بمجال اختصاصي حتى رحتُ أفكّر في امتهان صياغة الذهب، ولكنني وجدتُ أن هناك معملاً صغيرًا لتجميع الساعات الروسية بحاجة إلى مترجم يتقن الروسية ليساعد الخبير الروسي بنقل مهاراته للعمال العراقيين في المعمل، وبعد أن عملتُ شهرًا بكامله حصلتُ على عدة ساعات بدلاً من مرتبي وكانت تلك مزحة ثقيلة فماذا أعمل بهذه الساعات؟ فرحتُ أوزّعها هدايا، وتركتُ هذا العمل.

راح الوضع الاقتصادي ينفرج بفضل النفط فوجدت عملاً مناسبًا ضمن اختصاصي.

سمعتُ كل التفاصيل التي جرت مع سهام ابنة عمي وكما روتها لي أمي بالتفصيل. حاولتُ بكل الطرق العثور على طه عسى أن أجد خيطًا يوصلني إلى سهام، ولكن طه قد اختفى هو أيضًا ولا أحد يعرف عنه شيئًا حتى أهله قد تركوا سوق الشيوخ منذ سنين.

هجرتْ عائلتي سوق الشيوخ بعد تلك الحادثة، وقرَّرتْ أن تبدأ حياتها من جديد في بغداد.

ربما تلك الأحداث هي التي زرعت في داخلي بذرة البحث عن طرق غيبية قد تساعدني في كشف المستور؟

قبل أيام قرأت في كتاب للصحفي المصري المشهور (محمد حسنين هيكل) عنوانه "خريف الغضب" يتحدث فيه عن الرئيس المصري أنور السادات الذي اغتيل في يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١. جاء في "خريف الغضب" أن الرئيس السادات، والذي طُرِد من الجيش في أيام حكم الملك فاروق، راح يزاول أعمال المقاولات. كان السادات (المقاول) جالسًا ذات مساء مع زوجته جيهان في إحدى المقاهي المنتشرة على النيل، وهناك جاءتهما عرَّافة عجوز كانت تلتقط رزقها بين رواد تلك المقاهي بقراءة الطالع، وقرأتْ حينها لجيهان طالعها، وقالتْ لها بالحرف:

- "إنكِ ستصبحين ملكة مصر".

أعاد الملك فاروق أنور السادات إلى الجيش بعد أن قبَّل الأخير يدَ الملك في باب الجامع مترحِّمًا.

وبعد سقوط الملكية عيَّن جمال عبد الناصر أنور السادات نائبًا له ذات مرة، فأصبح الأخير رئيسًا لمصر بعد وفاة جمال عبد الناصر رحمه اللّه، عندها أصبحت جيهان سيدة مصر الأولى، فصدقتْ نبوءة العرَّافة!.

ترى هل العرافة وقراءة الطالع علم له أصوله أم صدفة، وكلام يقال كيفما اتفق، أم هي نوع من الفراسة أو نوع من السحر؟

- "من ثنائيات الزمان عندما نريد أن نعبِّر عن ماضينا ونفيض في الحديث عنه إلى شخص آخر، يستحوذ علينا الحنين إلى الأيام التي لم نستطع أن نعيشها فيهتز عقلنا من العمق".

تركتُ الشيخ عباس مودِّعًا بعد أن شدتني علاقة وِد غريبة مع الرجل، فوعدته بزيارة أخرى إن سمح لي الوقت، ولكنه أضاف عند توديعي: إن احتجت مساعدتي فلابد إنك تجد الوقت، وقد عرفت مكاني.

عدتُ إلى مركز الشرطة، وأنجزتُ معاملتي هناك، وتهتُ بعدها في مراجعات طويلة بين دوائر تسجيل النفوس دامت لعدة أشهر لسبب بسيط هو أن أحد الكتبة الذين يحررون الهويات، كتب في حقل "حالة الأم الاجتماعية " بمعنى هل الأم لا تزال على ذمة زوجها أو ذمة رجل آخر أو مطلقة الخ، كتب صاحبنا في هذا الحق أن (أمه باكر) وقد عجزت من إفهام المسؤولين أن هذا مجرد خطأ، ولكن دون جدوى، وأخيرًا حصلت على ورقة تثبت إني إنسان عادي مثل بقية البشر، ولستُ عيسى ابن مريم، وإني مواطن يعيش في بلد اسمه العراق، والذي لا يشدني إليه اليوم سوى عبق تاريخ امتد لخمسة الآف سنة، وفي ثراه ترقد عظام أجدادي الـ ٢٥٠ إن لم يكن أحدهم قد دفن خارجه.

عدتُ إلى البيت متعبًا فنمتُ نومًا عميقًا، حلمتُ ليلتها (بالبردسول الأزرق)، وخضتُ نقاشات غريبة مع الشيخ عباس عن السحر، والتفَّ ثعبانه الأسود على معصمي، وراح يضغط على يدي آمرًا أن أكتب عنه شيئًا يبهجه، وأن لا أذكر بعد اليوم اسم (البردسول الأزرق).

مرّتْ الأيام وظلّتْ أخبار السحر غير العادية تشغلني، فكنتُ أتقصّى عنها أحيانًا في الكُتب، وأحيانًا أخرى أنبش عن بعضها في الذاكرة، فالحياة التي عشتها غنية بشتى المواضيع، ومنها أخبار السَّحرَة وسِحْرهم.

نُشِر في إحدى الصحف السوفيتية قبل سنين أن امرأة تعيش في إحدى القرى في أقصى سيبيريا، تستطيع أن تحرِّك الأشياء خفيفة الوزن عن بُعد فتفقد قدرًا من وزنها، وقد قام العلماء والأطباء السوفيت بفحص ودراسة حالة المرأة تلك دون أن يفهموا الأسباب أو القُوى التي تقف وراء تلك الظاهرة.

لقد كتب عن تلك الظاهرة الكثير وإليكم بعض ما كتب عنها:

- من هي نينا كولاجينا؟

وُلِدتْ في روسيا عام ١٩٢٧، وكانت في الرابعة عشر من العمر حين اجتاح الألمان النازيون روسيا وحاصروا مدينة سانت

بطرسبرغ (لينينغراد)، ومثل الكثير من الأطفال الروس التحقتْ كولاجينا؛ مع أبيها وأخيها وأختها؛ بالجيش الأحمر، وأرسِلتْ إلى داخل أتون المعركة التي استمرتْ لتسعمائة يوم. كانت الظروف خلالها مزرية، ففي الشتاء كانت درجات الحرارة تصل أحيانًا إلى أقل من أربعين درجة تحت الصفر، وكان الغذاء عبارة عن كِسْرة خبز صغيرة ولمرة واحدة في اليوم، وكانت القنابل والصواريخ تنهمر باستمرار على المدينة التي تعيش ظروفا مأساوية بدون ماء ولا كهرباء... في هذه الأوضاع الصعبة؛ حاربت نينا ذات الأربعة عشر ربيعًا في الخطوط الأمامية للجبهة وعملت كمخابرة داخل إحدى دبابات (T-34) الروسية حيث برزت شجاعتها وبسالتها في القتال حتى أنها رُقّيت إلى درجة رئيس عرفاء. لكن حياتها في الجيش انتهت عندما جُرحت في إحدى المعارك فأدخلتْ المستشفى حتى تماثلت للشفاء وتمَّ تسريحها من الجيش، ثم تزوجت وأنجبت ابنًا.

ادَّعتْ نينا أنها كانتْ تعلم دائمًا بأن لديها قدرات تميِّزها عن الآخرين، وأنها ورثتها عن والدتها، وهناك قصص كثيرة حول قدرتها على معرفة ما تحتويه جيوب الآخرين دون النظر داخلها إضافة إلى قدرتها في تشخيص الأمراض مع أنها لا تعلم شيئًا عن علم الطب ولم تدرسه.. ومما عزَّز من إيمانها وثقتها بقدراتها هي الأمور الغريبة التي تحدث حولها عندما تكون غاضبة، ففي إحدى تلك الحوادث، كانت تشعر بغضب عارم وكانت متوجهة

إلى رفّ أكواب الشاي في المطبخ عندما تحرَّك أحد الأكواب من تلقاء نفسه وسقط إلى الأرض وتحطم، في نفس الوقت؛ بدأت المصابيح الكهربائية في المنزل تخفت ثم تومض بشدة، وبمرور الوقت تعلمت نينا كيف تطور قدراتها هذه وتتحكم بها.

في عام ١٩٦٤، أصيبت نينا بانهيار عصبي أدخِلت على أثره إلى المستشفى، هناك أذهلت نينا الأطباء، فقد كانت تقضي جُلَّ وقتها في أعمال الحياكة اليدوية، وكانت تمد يدها إلى سلة كرات خيوط الحياكة وتختار اللون الذي تريده من دون أن تنظر إلى داخل السلة، وفي السنة التالية، حين تعافت من مرضها، وافقت بأن تخضع إلى تجارب واختبارات يجريها العلماء عليها، حيث اكتشف هؤلاء بأن نينا تملك القدرة على تمييز الألوان بمجرد أن تلمسها بأصابع يديها ومن دون أن تنظر إليها، كما أنها تملك القدرة على تسريع علاج الجروح بمجرد أن تضع يدها فوقها.

ربما تكون قدرة نينا على تحريك الأشياء بدون لمسها هي أكثر ما جلب انتباه العلماء وكذلك جلب الشهرة لها، حيث كانت نينا تجلس إلى منضدة وتقوم بتحريك بعض الأشياء مثل عقارب الساعة أو علبة وأعواد الكبريت ومملحة الطعام، والظاهر أن قدرات نينا لم تكن متوفرة دومًا، حيث أن التجارب التي كانت تجريها، كانت تسبقها ساعات من التهيؤ والتأمل، فقد أخبرت

العلماء بأنها يجب أن تصفّي فِكْرها وتمسح جميع الأفكار التي تفقدها تركيزها.

مع نهاية الستينات بدأت شهرة كولاجينا تصل إلى الغرب، وفي عام ١٩٦٨، تمَّ التطرق إلى قدراتها في المؤتمر الأول لعلم الباراسايكولجي المنعقد في موسكو، وهو الأمر الذي زاد من فضول علماء الغرب ورغبتهم لمعاينة واختبار قدرات كولاجينا بأنفسهم، وقد واتتهم الفرصة عام ١٩٧٠ عندما تمكن مجموعة من العلماء الأمريكان من لقائها في موسكو، ووصفوا كيف قامت أثناء أحد اللقاءات بتحريك بعض الأشياء الصغيرة مثل خاتم زواج وغطاء إحدى القناني، وفي تجربة أخرى، وصف أحد الباحثين الأمريكان الأشياء التي بإمكان نينا تحريكها على أنها متباينة بشكل كبير من حيث الحجم والشكل، وأنها تتحرك ببطء وبمسار غير منتظم، كما أقرَّ بأنهم اتخذوا عدة إجراءات قبل التجربة، للتأكد بأن كولاجينا لا تغش في أدائها، فكانوا يجعلونها تغيِّر مكانها من الطاولة باستمرار، كما تمَّ تفتيشها جيدًا للتأكد بأنها لا تحمل حجر مغناطيس أو خيوط خفية. وفي تجارب أخرى، ولمزيد من الاطمئنان لصحة الاختبار، قام العلماء بوضع أشياء لا تتأثر بالمغناطيس مثل علبة أعواد الثقاب، داخل حاجز زجاجي، لمنع جميع التأثيرات مثل حركة الهواء أو الخيوط غير المرئية، وقد نجحت كولاجينا في هذه

التجربة أيضًا، وفي اختبار آخر؛ قامت بتعليق كرة منضدة في الهواء لعدة ثواني.

أحد العلماء الذين درسوا حالة كولاجينا، قال بأنها تمتلك قدرة عجيبة في إظهار حرف (O) أو (A) على ورق التصوير بدون أن تلمسه، وكذلك بإمكانها نقل أجزاء من صور تركز النظر إليها إلى ورق التصوير. وفي أحد الاختبارات، قامت كولاجينا بفصل صفار البيض عن بياضه في إناء يبعد عنها ستة أمتار.

ولعل أشهر وأقوى قدرات كولاجينا التي أثارت دهشة وفضول العلماء، هي قدرتها على التحكم في وظائف بعض الأعضاء داخل أجسام البشر والحيوانات، ففي إحدى التجارب المصورة، جعلت كولاجينا دقات قلب ضفدع تتسارع بشدة ثم قامت بإبطائها حتى أوقفته تمامًا، وفي تجربة أخرى، قامت بالتحكم بدقات قلب أحد العلماء المتطوعين مما حدا بالقائمين على الاختبار بوقف التجربة خوفا على حياته. وفي السنوات الأخيرة من حياتها، أذهلت كولاجينا مشاهدي إحدى القنوات التلفزيونية حينما جعلت بقعة حمراء صغيرة تظهر على يد أحد الصحفيين الأوربيين.

في الحقيقة، إحدى الجوانب السيئة للتجارب والاختبارات التي أجريت على كولاجينا هي تأثيرها على صحتها، بل أن الكثيرين في روسيا يعتقدون بأنه السبب الرئيسي لموتها المبكر عام ١٩٩٠، فقد لاحظ العلماء أن التجارب كانت تجهد

كولاجينا بشدة، في بعض الأحيان كانت تظهر بقع حمراء على يديها وأحيانًا كانت النار تنشب في ملابسها وسط صدمة وذهول العلماء، كان وجهها يشحب ويتشنج بعد كل اختبار وبالكاد تستطيع تحريك جسدها، كما كان نبض قلبها وضغطها يعمل بصورة غير طبيعية أثناء التجارب. أحد العلماء قال إن كولاجينا كانت تفقد أكثر من اثنين كيلوغرام من وزنها خلال اختبار قد يستمر لنصف ساعة، كما فقدت في سنواتها الأخيرة حاسة الذوق وأصبحت الآلام في يديها ورجليها قوية جدًا، إضافة إلى شعورها المستمر بالإعياء والدوخة. وقد أصيبت قبل وفاتها بسكتة قلبية كادت أن تودي بحياتها مما جعل الأطباء يطلبون منها الكف عن القيام بعرض قدراتها الخارقة.

حقيقة إن الذكريات والحديث عنها يجرنا جرًّا إلى الماضي

- "من ثنائيات الزمان عندما نريد أن نعبِّر عن ماضينا ونفيض في الحديث عنه إلى شخص آخر، يستحوذ علينا الحنين إلى الأيام التي لم نستطع أن نعيشها فيهتز عقلنا من العمق".

أخذتني ذاكرتي في سَفْرة ممتعة إلى قرية كانت غافية بين غابات النخيل قرب سوق الشيوخ، والتي احتضنت نهر الفرات الخالد كما تحتضن الأم رضيعها فراح ينساب بين ظلالها بدِعةٍ

وهدوء. هناك وفي تلك القرية النائية، عاشت امرأة شابة، وكان زوجها رجلاً شبه معوق، وكثيرًا ما كانت توصف تلك المرأة بالجنون، فلا أحد يذكر اسمها دون إضافة كلمة المخبولة.

قرأتُ ذات يومٍ مسودات قصة لم ترَ النور بعد لأحدهم ذكر فيها تلك المرأة بالاسم، وكان هذا ما كتبه:

" زار قريتنا ذات مرة ساحر درويش، وكانت (جورية) المخبولة في نوبة من نوبات جنونها، فعرضتها النسوة المقرَّبات لها على ذلك الدرويش فاختلى بها، وراح يحرق البخور ويعزّم عليها، ويتلو العديد من الآيات القرآنية على رأسها، وأخيرًا قام بكيِّها، كنتُ ألعب مع طفل صديق لي فرحنا نتلصص على تلك الفعالية، وعندها عرفنا لأول مرة من أين تُكوى المرأة وكيف [٦] وبعد ذلك الكي هدأت جورية المخبولة وراحت تمارس حياتها بشكل طبيعي.

عملتُ كمهندس مساحة في أحد مشاريع نقل النفط البعيدة عن مدينة بغداد، وكنت أقضي جُلَّ وقتي هناك في وسط الصحراء نثبّت مسارات أنابيب النفط لصالح شركة بكتل الأمريكية، وكانت تلك الأيام أسعد أيام حياتي. الطبيعة في تلك الصحراء كانت مرآة روحي، فرحتُ أغور في أعماقها وأناجيها كلما ذهبتُ في سَفْرة عمل إلى تلك الصحراء، أقلّب هناك الأفكار التي شغلتني، وشغلتْ البشرية من قبلي، ترى ما

سرُ الحياة؟ ولماذا هذا العدد الهائل من البشر؟ ما هو الهدف الذي تسعى إليه تلك المليارات البشرية وتصر على التكاثر، وفوق هذا تبحث عن عقاقير تطيل العمر وترشده إلى الخلود؟

في تلك الأيام كان البشر يعدون مليارين ونصف، وكنتُ أرى أن الرقم هائل، واليوم تعدادنا سبعة مليارات!.. ترى هل ستكفي هذه الأرض لكل هذه المليارات؟ ماذا سيفعلون إن ضاقت بهم تلك الكرة التي راحوا يشوهون وجهها الجميل بكتل الكونكريت ونفايات البلاستك؟.. هل ستكفيهم مياهها؟ حتى هواءها سوف لن يكفي حتمًا لتلك الأعداد الهائلة على ما أعتقد، ناهيك عن الطعام، فما هو الحل؟

وصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الإنسان أخطر وَحْش على هذه الأرض الطيبة، فقد أخذ يقضي على الحيوانات التي تشاركه العيش على هذا الكوكب الجميل، فأخذتْ تلك الحيوانات تنقرض الواحد بعد الآخر، قد يراها أحفادنا ذات يوم في المتاحف فقط، محنطة تطالعنا بعيون زجاجية، وبالمناسبة فأنا كلما أرى حيوانًا مُحنَّطًا أشعر بأنه يتطلع بي بنظرات إدانة قاسية تؤرقني لليالٍ عدة.

الغابات أيضًا ستقطع وتنتهي وتصبح ذكرى، وتثقب الأرض في كل أرجائها بحثا عن ثرواتها، وبعد أن ينفذ كل شيء يقوم البشر بقتل بعضهم بعضًا، عندها فقط سوف يتدخل رب العالمين فيقضي عليهم جميعًا!.

من ابتدع فكرة الحياة تلك؟، هل هي الصدفة، هل هو الله؟ وهنا السؤال سيجرنا إلى أسئلة أخرى: ما هي الحقيقة؟ وكيف لنا أن نعرفها؟ ومن هو الله سبحانه؟

لا أعرف كيف كانت علاقة البشر بالطبيعة قبل آلاف السنين. حتمًا كانت الطبيعة قاسية معنا نحن معشر البشر أكثر من اليوم، لكننا رحنا نطوّعها يومًا بعد يوم إلى حد التمادي.

يقول العلماء المختصون:

إن الإنسان في ذلك الزمان كان يرى أن كل ما يحيط به يتمتع بالحياة مثله تمامًا، حتى الصخور والجبال والأنهار كان يعتقد أن لها روح تنبض.

كان الإنسان في الزمن السالف يجلُ الطبيعة ويخشاها ويقدّسها. وكانت بدايته الأولى في التعرف عليها خجولة، محاولا تطويعها بالقوة أحيانًا، وأحيانًا بالرجاء، لإيجاد مكان له بين باقي مخلوقاتها فأخذ يبتكر أسلحة شتى، مستخدمًا عقله الجبار الذي هداه إلى طريق السحر أول الأمر، ثم إلى الدين، واليوم إلى طريق العلم، والصراع لا يزال قائمًا بين تلك الطرق.

هنا تذكرت الشيخ عباس، ترى أيعقل بعد تلك الرحلة الطويلة التي امتدت إلى آلاف السنين وما آلت إليه معارف البشر يظل هناك من يحاول تطويع الطبيعة بطرق بدائية عن طريق السحر؟ وهل سأوصف بالعاقل إذا آمنت بصدق جهود الشيخ عباس أنا وغيري من البشر (الجهلة)؟

اعتدت على زيارة الشيخ كلما توفر لي الوقت، وكلما سنحت لي الظروف، وكنت أجلب له معي في كل مرة أزوره فيها هدايا من الثمار البرية وغرائب اللقى التي أعثر عليها أثناء عملي وسط الصحراء، فكان الرجل يفرح بها كثيرًا، أكثر من فرحه بالمبالغ المتواضعة التي أضعها في يده في كل مرة، وهكذا توطدت العلاقة بيننا، ورغم ذلك لم يكن يرحب بي كما يجب إذا زرته في أوقات النهار المبكر، حيث لا يخلو محله من أحد الزبائن، وهم في الغالب من النساء، وبعد أن فطنت لهذا النقطة رحت أزوره بعد الظهر حيث ربات البيوت يلازمن بيوتهن فكان يرحب بي كثيرًا ويرتاح لمقدمي فأستمتع أحيانًا بما يقصه الشيخ، وما يرويه لي من أحداث لا يقبلها المنطق ولا يستسيغها الذوق أحيانًا.

صادف ذات مرة أن شاهدت امرأة شابة جميلة تبدو عليها سمات العز والتحضر وهي تغادر دكان الشيخ عباس، وقد أعجبت بها حينها فتجرأت وسألته عنها، في البداية تحفظ الشيخ في الإجابة، ولكن وبحكم الصداقة التي ربطت بيننا، وثقته بأنني سوف لن أكشف أسراره، راح يكشف لي عن شخصية تلك الزائرة بمتعة المنتصر. لقد خاب ظني في تلك الفتاة، وذوى إعجابي بها بعد إن عرفت الحقيقة عنها، وإليكم نتف مما قاله الشيخ عباس عنها:

- سيد فوزي، الآنسة التي شاهدتها قبل قليل هي طبيبة متخرجة حديثا، ومن عائلة معروفة في بغداد، تعشق شابًا لا يبادلها

الحب، تأكد لي ذلك بعد أن كشفت طالعها! وأن لا أمل لها في حبها له فهو مرتبط بغيرها، ولكنها ورغم علمها بذلك ظلت متمسكة بأملٍ واهٍ.

ظلت الفتاة تغدق عليَّ المبالغ الكبيرة...

وراح الشيخ عباس في نوبة من السعال ولكنه لم يتوقف عن الحديث عن الدكتورة:

- كانت لا تتحرج من تلبية أي طلب أطلبه منها حتى وإن لم يكن ذلك الطلب معقولاً أو مؤدبًا، وكل ذلك فقط من أجل أن أعيد لها حبيبها.

ابتسم الشيخ عباس حينها بطريقة يمكن أن تفسَّر على احتمالات عدة ففطن لذلك، فأردف قائلاً:

- ليس كما تتصور يا أستاذ فوزي، ولكنها أمور أخرى لا تدركونها أنتم الشباب.

قتلني الفضول لأعرف ما هي تلك الأمور التي لا نعرفها نحن الشباب ولكن الشيخ راح يتخابث ليتملص من لجاجتي في السؤال، وبعد أن تيقن من أنني سوف لن أقبل بغير معرفة الحقيقة باح لي بالسر بعد أن استوثق مني بأغلظ الأيمان بأن لا أثرثر إلى أحد بما أراه وأسمعه في دكانه البسيط وعن تلك الطبيبة بالذات، وأنا ملتزم بذلك الوعد فلا أكشف لكم ما رواه لي الشيخ عباس حينها عن تلك الطبيبة رغم غرابة الأمر، ولكن قد أكشف سرَّ الشيخ عباس وطبيبته في مكانٍ آخر، فحتى وثائق الدول السِّرِّية جدًا تُكشف بعد أن تمضي عليها حِقبة من السنين.

دامتْ علاقتي طويلاً مع الشيخ عباس، وكنتُ أجدُ في أحاديثه بعض السلوى، فأقتطع من وقتي الضيِّق أصلاً بضع ساعات لزيارته والثرثرة معه قبل أن أهجره بعد أن تبين لي أن الكثير من ممارساته ما هي إلا شعوذة ودجل، أو هكذا تصورتها في حينها، فقد سمعتُ العجيب من قصصه والتي لا تُصدَّق، وسحره الذي يكون الجنس أهم أركانه، ولكنه يُقسِم في كل مرة أنها الحقيقة، ثم إنني انشغلتُ عنه بأمور الحياة الجديدة، فلم يعد لي وقتا لأضيعه في التسكع في أزقة بغداد القديمة كي أستمع لأحاديث هذا الرجل التي غدتْ مُملة.

كانت بغداد في سالف الزمان ـ وكما تعلمون ـ مدينة عريقة، وعاصمة الخلافة العباسية، وقد بُنيتْ عام ٧٦٢ للميلاد، ولها حينها أربعة أبواب، وهي: باب الشام، وباب خراسان، وباب البصرة، وباب الكوفة، ويحيطها سور خارجي، ثم توسعت فشملت باب المعظم، وباب الشماسية، وباب المخرم، وبُنيتْ فيها القصور الفخمة والأسواق ودور العلم والمساجد والخانات.

أصاب الدمار هذه المدينة الجميلة على يد هولاكو ثم على يد تيمورلنك، وعبثتْ بما تبقى منها أيدي الجلائريين، والصفويين، والعثمانيين، ولم يبقَ من مجد تلك المدينة غير اسمها وأزقتها الضيقة المهدَّمة.

في ذلك المكان المهمَل من أزقة بغداد العتيقة كان ساحرنا قد تربَّع في دُكانه متحدِّيًا كل إرث التاريخ وكأن شيئًا لم يتبدل

في تلك المدينة منذ أيام أبي جعفر المنصور، فراح يمارس عمله الغريب بعيدًا عن التقدم الحضاري؛ بعيدًا عن النور؛ وكأنه يعيش في عصور بغداد الأولى أو ما قبلها.

يدَّعي الشيخ عباس أن أغلب زبائنه من حملة الشهادات، وبعضهم حصل على شهادات عالية جدًا!. إذا صدق الشيخ عباس في قوله، وأظنه صادقا في ذلك، فمن يجبر هؤلاء على الاستعانة بالسحر لتيسير أمور حياتهم؟ وكيف يؤمنون بهذه الغيبيات؟

ـ قاتل الله الفضول...

دفعني الفضول دفعًا للبحث عن حقيقة السحر، وعن دوافع وقناعات زبائن الساحر الشيخ عباس.

هل السحر موجود فعلاً؟. فما هو السحر أصلاً؟ وكيف بدأ؟ والأهم كيف استمر الإيمان بالسحر إلى يومنا هذا؟

لم يكن البحث عن أي موضوع شيئًا هينًا في أواسط القرن الماضي، فلكي تعرف حقيقة واحدة عليك أن تقرأ العديد من الكتب، هذا إن توافرت كتبٌ تتحدث حول الموضوع الذي تريد البحث فيه، وتكون أنت محظوظًا لو عثرت على الكتاب المطلوب.

والنتيجة التي توصلت إليها خلال بحثي غير المبرمج أصلاً، أنه ليس هناك موضوع أكثر غموضًا من السحر.

في البداية رحتُ أتقصى وأبحث في كل ما كُتب عن السحر باللغة العربية، وما تُرجم إليها، وما أكثر ما كُتب عن موضوع السحر في تراثنا الأدبي، فضِعتُ بينها إلى حدٍ اليأس.

اتسمتْ أغلب الكتب التي اطلعتُ عليها بالغيبيات الساذجة فاختلطتْ بالدين؛ وخاصة بالدين الإسلامي؛ و(علم الجفر)[٧] والدين اليهودي وتمسكه (بالقبالا)[٨] وبالجن وكراماتهم، وبقراءة الطالع وتفسير الأحلام والتنقل بين الأبراج السماوية، حتى بالتطبب والعلاج بالسحر، وغيرها من العناوين التي لا تنتهي.

في الحقيقة، إنني تهتُ بين كل تلك الكتب، ولم أجد فيها تفسيرًا مقنعًا أو عقلانيًا لشرح أو تفسير موضوع السحر.

اليوم حيث أضع تلك المسودات في هيئة كتاب اختلف الوضع، فيكفي أن تكتب ما تريد معرفته على صفحة محرك الساحر "غوغل" لتجد ما تبحث عنه. إنها حقًا سعادة، ولكنني أحدثكم عن أحداث جرتْ لي في القرن الماضي، حيث لم يجهر (نبي اللّه غوغل) برسالته بعد.

أخذتني دوامة الحياة وهمومها في سبعينيات القرن الماضي بعيدًا عن هوايتي وهي البحث في موضوع السحر، وانهمكتُ بالعمل. وغيرها من هموم الحياة اليومية.

في تلك الحقبة ازدهر الوضع الاقتصادي في العراق، وأطلقت بعض الحريات للناس، فأصبحت الحياة أسهل، وقد شملت أنا كذلك بهذا الوضع الجديد فتيسرت أموري، ووجدت الوقت الكافي في العودة إلى هوايتي القديمة في البحث في موضوع السحر.

لا أعرف عزيزي القارئ إن كنت أنت قد حظيت بفرصة لزيارة (الأهوار) - المسطحات المائية في جنوب العراق-؟.

إن الأهوار عالم غير مألوف، وحياة الناس فيه تختلف عن حياتنا وإن كنا وهم نعيش في وطن واحد وعصر واحد ونتحدث بلغة واحدة، والحقيقة انها ليست تمامًا لغة واحدة؛ فلغة أهل جنوب العراق لغة ثانية موازية للغة العربية لكثرة المفردات الدخيلة فيها ولكنني أعرفها، فأنا ابن تلك المنطقة.

هناك في الأهوار حيث مساحات شاسعة من المياه تغطي كل شيء، فعندما تستيقظ في الصباح الباكر ويلفك الضباب وأنت بين متاهات القصب، تشعر وكأنك في زيارة لعالم آخر، لا يقطنه غير الأسماك والطيور المحلية منها والمهاجرة إليها من أقاصي الدنيا، وهناك حتمًا سوف يتراءى لك الإله السومري "آنكي" بكل حكمته وعظمته، أو قد تشتبك بصراع ما مع أحد أتباع آلهة عالم الظلام "أرشكيجال".

إن عالم الأهوار هذا عالم خيالي غير مألوف تغلفه الأسرار فيجرُك جرًا لعام الغيبيات ومتاهات السحر.

عملت في مكان قريب من تلك الأهوار، ومن هناك زرت تلك العوالم مرات عدة، بعضها لغرض الاستكشاف، وأخرى للعمل، ولكن إحدى السفرات كانت للبحث عن كتاب نادر علمت بوجوده هناك بالصدفة، وهذا شيء غريب بحد ذاته، فكيف لكتاب نادر يسكن تلك الاصقاع؟

كنت أعمل في منطقة تقع بين مدينة الناصرية، والتي لا تبعد كثيرًا عن مدينة سوق الشيوخ "التي تركها أهلي منذ زمان، وانتقلوا للعيش في بغداد" وبين مدينة البصرة من جهة الصحراء، فاتخذت مدينة الناصرية مقرًا لي كونها الأقرب إلى عملي. استأجرت بيتا حديثا في الجانب الآخر من المدينة في حي سُمِّي بـ"حي المعلمين".

وفي ساعات الفراغ؛ رغم قِلتها؛ كنت أرتاد المقاهي الشعبية التي تنتشر وسط سوق المدينة الكبير حاشرًا نفسي بين رواد تلك المقاهي، وعادة هم من الشيوخ كبار السن صبغ التبغ المحروق شفاههم وشواربهم البيضاء الكثة بصفار أقرب إلى لون البرتقال، فكنت أستمتع بأحاديثهم وبنِكاتهم الجنسية المفضوحة في الغالب، وغيرها من الأحاديث التي لا تحضرني الآن.. تمتد أحاديث الشيوخ عادة من شكوى ألم المفاصل، وإلى السؤال الأزلي عن قدرة الرجال الجنسية مثل:

- ها أبو فلان شلونك؟
- والله زين.
- أحجيلنه الصدق، أبو "صحبه" شلونه؟ [٩]
- والله أبو صحبه اهو زين بس الي بيه حيل ينود ياهو؟.

ولا تسلم البيوت المسكونة بالجن، والكنوز المفقودة من الذكر في تلك المقاهي.

بينما كنت جالسًا ذات يوم في مقهى سلوم الشهيرة، وكانت إذاعة بغداد تنقل حفلة للمطرب الريفي المشهور صاحب الصوت الشجي "داخل حسن" سمعت حديثا دار بين مجموعة من رواد المقهى الدائمين من الشيوخ عن جهاز "غرامفون" قديم يُدار باليد لسماع الإسطوانات، ومعه مجموعة من الإسطوانات القديمة معروضة للبيع عند أحد سكنة الهور قرب قرية الجبايش. فوجدتها حجة في زيارة تلك القرية المشهورة من جديد، فقد اشتقت (لطرادتي) التي بعتها هناك قبل سنين عدة! وربما أجد هناك ما هو غريب.

جهّزت نفسي وأخذت سيارة "البيك أب" التي استخدمها في تنقلي أثناء العمل وانطلقت من الصباح الباكر في رحلتي هذه مع سائقها المهووس بالأهوار، والذي يعرف كل ممراتها وخباياها فهو من سُكّان تلك المناطق أصلاً.

عندما تجتاز مدينة سوق الشيوخ وتتجه جنوبًا سينتهي هناك العمران بسرعة، وتبدأ غابات النخل التي تغطي المنطقة فتشكّل عالمًا رائعًا يتميز به العراق عن باقي أمم الدنيا، سترى هناك نهر الفرات الخالد وهو يشق طريقه ببطء وبصعوبة بين البساتين وكأنه يعرف أن نهايته ستكون قريبة محاولاً تجنب تلك النهاية.

كم ذكرَّتني تلك السفرة بأيام هروبي من الحرس القومي عام ١٩٦٣.

بعد أن تجاوزنا قرى عدة كانت تختبئ بحياء بين غابات النخيل، وصلنا إلى مدينة كرمة بني سعيد، وهناك تركنا السيارة وأخذنا زورقا بخاريًا صغيرًا يعود لأحد معارفي من قوات الأمن العاملة في تلك المدينة.

بعد أن اجتزنا حقول الأرز التي تغطي المساحات اليابسة وصلنا إلى وسط المسطحات المائية فراح الزورق يشق طريقه بين أحراش القصب بصعوبة، ولم أهتدي إلى الطريقة التي يميز فيها سائق الزورق طريقه بين تلك الممرات المائية المتشابهة، وأخيرًا وصلنا إلى مدينة الجبايش، وهناك، وجدنا وبسهولة من يرشدنا إلى المكان المطلوب.

الكوخ الذي قصدناه غير بعيد عن المدينة يقع على جزيرة صغيرة تزيد على مساحة الكوخ قليلاً داخل الهور تكفي لموقد الحطب ولبعض المساحة التي لا تكفي لحركة الأطفال ولعبهم

ولبعض الحيوانات المدجنة، وقد أنشأت من القصب والطين وسط الماء، وكان الكوخ محاطًا بقطيع من الجاموس [١٠] الذي لم يفسح لنا الطريق إلا بصعوبة.

بعد مناداتنا بصوتٍ عالٍ على صاحب الكوخ، برز لنا رجل في الخمسين من العمر قصير القامة ذو شوارب كثة لم تسمح لكلمات الترحيب التي أطلقها أن تمر بيسر فتعثرت واختفى نصفها هناك، فلم نميز حينها هل كان الرجل يرحب بنا أم يزجرنا، ولكن ظهر لنا أن الرجل يرحب بنا بحفاوة على عادة سكان الأهوار، وأصرَّ على استضافتنا، فاعتذرنا منه حيث لم يكن في استطاعتنا البقاء طويلاً، فمرافقي رجل الأمن كان مرتبطًا بالتزامات أخرى. عند مساومتنا له على ثمن الغرامفون والإسطوانات التي معه؛ اختفى الكرم، ووجدنا الرجل شديد المراس بعيدًا عن آلية السوق المتعارف عليها في المساومة على الثمن بين البائع والشاري، وأصرَّ على أن سعره محدَّد غير قابل للمساومة؛ وكأنه في أسواق لندن؛ فلم يتنازل عن السعر الذي طلبه ثمنًا لبضاعته الخردة دينارًا واحدًا، فاشتريت منه بضاعته رغم انزعاجي من طريقته في البيع غير المتعارف عليها.

أخذت (الغرامفون) والمجموعة النادرة من الإسطوانات بسعر رخيص نسبيًا إذا ما قورن السعر بأسعار بغداد، وحتى بأسعار مدينة الناصرية، وعدت بما اقتنيت فرحًا.

في طريق عودتنا اقترح عليَّ رجل الأمن أن أسافر إلى مدينة القرنة القريبة ما دمت هاويا لجمع الآثار، وعلى حد قوله "الخردة العتيقة". فهناك كما ورد لعلمه أن رجلاً فاقد البصر يملك صندوقا من خشب الأبنوس، ويحافظ عليه بحرص شديد عسى أن أجد عنده ما يُرضي فضولي. أعطاني صاحبي اسم الرجل، وكان اسمه ناصر، ودلني على من يوصلني إليه في مدينة القرنة، وزودني بتوصية منه إلى ذلك المرشد، فشكرته ورحت أمني النفس بنفائس الآثار.

عدت إلى بيتي في دور المعلمين في الناصرية فرِحًا بما عثرت عليه، وبعد إصلاحات بسيطة راح (الغرامفون) يصدح بأغانٍ عراقية لم أسمعها من قبل، ولا أظن الإذاعة العراقية تملك مثلها. كانت كلمات بعض تلك الأغاني غريبة على ذوقنا في سبعينيات القرن الماضي، ولم نعتدها مثل:

عمد أرد أطب للقبه

مقتول فيها غريري

انطيني خدج دا أعضه

أحسن ما يمصه غيري

أو:

يعنيده شتقولين لو طال الفراق

والضعن أسرى بليل وأنوى على العراق؟

وغيرها:

عيني وسطك يا كله

وي فطيم وسطك يا كله

لقلب سبع قلبات يا عيوني

آخ منك يا الأسمر محبوب قلبي قاتلني [١١]

أو:

والله لبنيلك قصر

وفوق القصر طائرة

وغيرها.

رغم فرحتي وانشغالي بما اقتنيت، ظلّت مسألة صندوق الأبنوس تشغلي فكري، وأخيرًا وجدت الوقت المناسب لأتفرغ لذلك الصندوق عندما كنت في زيارة لمدينة البصرة.

مدينة (القرنة) لا تبعد كثيرًا عن البصرة، لذا تناولت فطوري على عجل في فندق قصر رغدان حيث قضيت ليلتي، ويمّمت وجهتي بسيارتي الصالون صوب مدينة القرنة.

القرنة مدينة متميزة، وذات طابع قدسي خاص، فعندما تعبر الجسر إليها، عليك أن تتجرد من شعورك الدنيوي، وتلبس وشاح القدسية فأنت في حضرة التاريخ، فيها تنتهي رحلة النهرين الخالدين دجلة والفرات، فيلتقيان هناك بزفاف قدسي لينجبا شطّ العرب، وأول ما يطالعك في تلك المدينة شجرة عملاقة وارفة

الظلال باسقة الأفنان، أحيطت بسياج رخيص من البلوك الأسمنتي صُبغ باللون الأزرق الفاقع، إنها شجرة آدم أبو البشر، حتى أن لوحة عُلّقت هناك خُطت بحروف معوجة تشير إلى تاريخ الشجرة، كتبها مسؤول السياحة في المدينة ربما، والذي اتخذ له غرفة في الفندق السياحي كمقر لعمله هناك، وهو الذي أوصاني رجل الأمن بالاتصال به ليرشدني إلى بيت الضرير.

قرْب النهر الذي على اليسار، وهو نهر دجلة؛ عثرتُ على بيت طيني قديم أرشدني إليه المرشد السياحي بشيء من الوجل، وعاد أدراجه مسرعًا على غير عادة الناس هناك حيث يثيرهم الفضول لمعرفة ما يريده الغريب، وخاصة رجال الأمن مثل ذلك المرشد السياحي.

وقفتُ أنادي على صاحب الدار فلم يكن هناك باب لأطرقه، وأنا بانتظار من يخرج لي، أخذتُ أقلّب الموضوع في ذهني، كيف يمكن لصندوق ثمين من الأبنوس أن ينجو من اللصوص في بيت لا باب فيه، وصاحبه أعمى لا يبصر؟
كان الجواب بسيطًا وغير متوقع. فقد كانت لصاحب الدار كما يُشاع (كرامات!) فلا يجرؤ أحد على الاقتراب من تلك الدار بسوء، أما لماذا وكيف؟، فتلك قصة أخرى قد أذهب مرة أخرى للبحث عنها.

خرجتْ لي فتاة بدت على وجهها مِسحة من جمال أخّاذ ذكرّتني بحبيبتي المفقودة سهام، رغم السواد الذي توشحتْ به، دعتني إلى الدخول بعد أن عرفتُ سبب زيارتي لهم. والظاهر إنني وصلتُ الدار

في الوقت المناسب تمامًا، وإلا لضاعت عليَّ الفرصة، فقد توفى الرجل الضرير منذ وقت قريب.

وجدت في الدار شابًا معوَّقا، وكان هذا هو الابن البكر، والفتاة التي استقبلتني عند مدخل الدار كانت البنت الصغرى، وهناك أيضًا امرأة كبيرة السن افترشتْ سريرًا من جريد النخل تلفلفت بملابس سوداء أسمر لونها، وهؤلاء هم كل سكان الدار ورثة المرحوم على ما أظن، وقد جاءت زيارتي لهم في الوقت المناسب كما قلتُ، فلم يكونوا ليعرفوا ماذا سيفعلون بتلك التِركة، لذا لم يساومونني كثيرًا على السعر، واشتريتُ منهم صندوق الأبنوس بما فيه بسعرٍ معقول.

عند اتفاقنا على السعر أصرَّتْ الفتاة على أن أفتح الصندوق أمامهم قبل نقله، واشترطتْ، إن كان في الصندوق ثروة ما فهي من نصيبهم، ولا تدخل ضمن صفقة البيع.

فتحنا الصندوق الذي كان قد قفل بقفلٍ من الحديد غريب الشكل مصنوع يدويًا، ولم تكن عملية فتحه سهلة، لذا ظلَّ الصندوق مقفلاً بعد وفاة صاحبه، ولا أظن أن الورثة كانوا على استعداد لكسر الصندوق وإتلافه، فهم يعرفون جيدًا أنه ليس في داخله ثروة ما، وأن أباهم كان رجلاً فقيرًا يعيش من مورده المتواضع من دكان الحدادة الذي بجانب الدار، فلم يكونوا على عجلة من مسألة فتح الصندوق، وقد يتسبب فتحه بالقوة في

إتلافه وهو من الخشب القديم فلا يصلح بعدها لشيء أو يرغب به أحد.

بدا الصندوق بحالة جيدة، وبعد أن أزالت الفتاة طبقة التراب من فوقه بانت مساميره ذات اللون الذهبي، والتي زينّت سطحه بنجوم لامعة كنجوم الصحراء.

كان الصندوق يحتوي على أوراقٍ وكُتبٍ لفّت بأقمشة بيضاء، وبعض المقتنيات الغريبة، ولفائف تفوح منها روائح نفاذة.. وعندما حاولت الفتاة رفع أحد الكتب تساقط في يديها على شكل فتات لم تكشف عن أي حرف من سفرها، فقد أضرَّ الزمن كثيرًا بمحتويات الصندوق، فراحت الأوراق فيه تتحول إلى غبار بمجرد لمسه خفيفة، ولما رأت الفتاة ما حلَّ بالكتاب؛ خشيت أن أتراجع عن شراء الصندوق، وكانوا هم بأمسِّ الحاجة على ما يبدو إلى ثمنه، فسمحت لي بنقل الصندوق بما فيه دون أن تفتشه، وقد أعانتني هي على حمله ووضعه في صندوق السيارة، وأغلقت الباب خلفه، وكأنها تدفنه كما دفنت أبيها وأهالت عليه التراب منذ مدة قريبة!.

ترددّت في سؤال الفتاة عن الصورة التي كانت معلقة على جدار الغرفة التي دخلتها حيث كان الصندوق رابضًا فيها، وكانت صورة فوتوغرافية قديمة اصفرَّ ورقها لرجل غطّت وجهه لحية بيضاء كثة لم تبقي من معالم ذلك الوجه شيئًا ينظر؛ وقد ظننتها لأحد أجدادي أنا، وكانت تشبه صورة الفيلسوف الألماني

كارل ماركس، حزرت أن الصورة كانت لصاحب الصندوق فشدَّني الفضول لأعرف من هو صاحبها، ولكن الموقف لم يكن يسمح حينها بمثل هذا الفضول فآثرتُ السكوت، ولكن الفتاة كانت لماحة وذكية، وبعد أن رأت كثرة تمعني بالصورة بادرتْ بالقول بأن تلك هي صورة أبيها الوحيدة، وهو رجل مستقيم عاش حياة ببساطة وورع، وكان حدَّادًا ماهرًا قبل أن ترمد عيونه ويفقد البصر منذ مدة قليلة. كان رحمة اللّه عليه مُحبًا للعلم فكان يقتني كل ما تقع عليه يداه من كتب أجداده المندائيين ويقرأها، ولكننا لم نفقه منها شيئًا فلغة الكتب لغة قديمة لا نجيدها، وكان المرحوم يعرفها منذ صغره، ونحن المندائيون قوم كنا قد سكنا هذه الأهوار منذ نشأتها.. وراحت تحدثني عن طباع المندائيين المسالمة وحبهم للطبيعة دون أن تعلم إنني أنا مندائي مثلها أيضًا، وهنا أردتُ أن أحتضنها مواسيًا، ولكن للموقف حُرمة لا تسمح بذلك، فترحمتُ عليه بلغتنا المندائية [١٢]، وهنا سالت دموع الفتاة، وأصرت على أن أجلس قليلاً لتعلم أمها بأن من اشترى الصندوق مندائي أيضًا ليسكن حزنها على ذخر أبيهم، فتركتني واقفًا وركضت إلى أمها لتعلمها بذلك.

نادتني الأم بطيبة متناهية، وطلبت مني أن أجلس جوار سريرها، وحالما فعلتُ ذلك راحت تمطرني بالأسئلة مستعلمة مني عن اسم أبي وأجدادي، وعن أمي وجداتي ومن أي المندائيين نحن.

أجبتُ على كل أسئلة المرأة الممدة في فراشها، وبتفصيل دقيق كما أرادت، وهنا سألتها أنا بدوري من يكونون هم، ولماذا اختاروا مدينة القرنة،والتي لا يسكنها إلا قلة من أهلنا المندائيين، وكيف يستطيعون العيش في دار من دون باب؟.

- نحن لسنا غرباء عنكم يا ولدي، فالمندائيون كلهم أهل يمتون لبعضهم بنسب قريب مشترك بسبب زيجاتهم المحصورة بينهم.

قالت الأم ذلك والدمعة في عينيها.

- لماذا سكنا القرنة؟

أنا يا (يمه) بالأصل من سكنة مدينة (الحلفاية) القريبة من مدينة العمارة، وقد زفوني لبيت زوجي هنا في القرنة وأنا فتاة صغيرة، ولم أغادرها منذ ذلك اليوم، ولا أعرف لماذا اختار المرحوم مدينة القرنة بالذات، فبالأصل كان أهله يسكنون (ششتر)[١٣]، ولكنني لم أرَ أحدًا منهم طيلة حياتي معه، وعندما كان يتذكرهم المرحوم يطبق عليه الحزن، فيقضي نهاره بعيون دامعة، ويتكرر ذلك المشهد دائمًا، فلم نجرؤ على سؤاله بعدها عنهم، وقد علمت أن رجالهم تعرضوا لمجزرة رهيبة هناك كونهم مندائيون، قتِل رجالهم فيها ونُهبت نساؤهم ولم يهرب منهم حينها سواه عندما كان يافعًا، فسكن القرنة... أنجبتُ منه الصبي المعوق هذا الذي تراه، وتلك الفتاة التي تراها،

والتي تدير كل شؤوننا بعد أن تركتُ المدرسة عندما فقد والدها بصره قبل وفاته بسنة.

أما قصتنا مع باب البيت فتلك قصة تطول، ولكنني أوجزها لك: كانت دارنا مثل باقي الدور لها باب من الخشب؛ وإن كانت عتيقة قضمت دودة (العثة) بعضًا منها، وذات يوم كنا جميعًا خارج الدار فكسرها أحد اللصوص واقتحم الدار بغرض سرقتها. لم يكن عندنا شيء يستحق السرقة، ولكن اللص دخل غرفة أبي سلمى، والتي لا يدخلها أحد منا إلا لغرض تنظيفها، وعندما شاهد الصندوق الذي اشتريته أنت اليوم همَّ بسرقته، وعندما أراد حمله أصيب بالشلل وراح يتقلب على أرض الغرفة بين الحياة والموت. وبعد أن استطاع الهرب من الدار شاع الخبر بين الناس، ولم يجرؤ بعدها أحد من دخول دارنا إلا بإذن منا... عندما رجعنا إلى الدار ورأينا ما حلَّ ببابها، قام أبو سلمى بخلعه تمامًا ووضع بدلاً منه تلك الستارة التي جاء بقماشها من خيمة قديمة وسمرها من الأعلى وخاط أسفلها على قضيب من الحديد، ليبقيها مستقرة، ونقل خشبها إلى موقد دكانه. و(الهيي قدمايي) الحي الأزلي هو الحافظ.

دفعتُ لهم ثمن الصندوق مضاعفًا رغم معارضة الفتاة، ووعدتهم بزيارة قريبة إن سمحوا لي بذلك. فرحبت الأم، وهي تنظر بعين الأمل إلى ابنتها التي تظاهرت بانشغالها عنا، وعن حديثنا.

تركت مدينة القرنة وصورة الفتاة لم تفارق مخيلتي. كم كانت تلك الفتاة جميلة، وقوية الشخصية وقريبة الشبه بحبيبتي المفقودة سهام!.

عدت بكنزي؛ أو كما تصورته كذلك؛ إلى بيتي في مدينة الناصرية، وهناك كلفت أحد العاملين معي بنقل الصندوق إلى الطابق الثاني حيث غرفة نومي.

حمل العامل الصندوق معي، والفضول باديًا في عينيه لمعرفة محتوياته، ولكي أضع حدًا لفضوله، ولكي لا تنسج أسطورة عن الكنز الذي أخبئه، فتحت له الصندوق وأطلعته على محتوياته، فبانت بسمة ساخرة على شفتيه، وكأنه يقول: أيعقل أن رجلاً راجح العقل مثل الأستاذ فوزي يبذل كل هذا الجهد والمال من أجل هذه الخردة؟!.

بعد أن تركني العامل وراح لشأنه، اختليت أنا بالصندوق ورحت أتمايزه، وأتطلع بنجومه الذهبية الجميلة، ترى هل حقًا أن هذا الصندوق يستحق كل هذا العناء؟

لم تفارقني صورة سلمى وهي تزيح التراب من على سطح الصندوق بأناملها الرقيقة، فشعرت أن مجرد التعرف على تلك الفتاة الرائعة كان يستحق أكثر من ذلك العناء.

كانت صورة سلمى تطالعني حتى عند قيادتي للسيارة طول طريق عودتي من البصرة، فرحت أرسم صورًا للمستقبل، وفيها مكان الصدارة لتلك الفتاة المميزة.

عدتُ إلى الصندوق.. فتحته، ورحت أتطلع بما في داخله، خشيتُ في البدايةِ أن أمسَّ أي شيء فيه كي لا يتلف في يدي، وخطرتْ لي فكرة بأن أترك الصندوق يومًا أو عدة أيام مفتوحًا قد تدبُّ فيه الحياة بعد أن تمسه النسمات الرطبةِ.

عدتُ إلى صندوقي مرة أخرى في العطلةِ الأسبوعيةِ بعد أيام من العمل البعيد عن المدينةِ، وقد أصبح للصندوق مكانةِ خاصةِ في ذهني، فكان الصندوق حاضرًا معي في كل الأيام الخمسةِ التي قضيتها في الصحراء في أحد بيوت الشركةِ الجاهزة هناك (كرفان)، وكانت صورة فتاة الصندوق تشاطرني السكن في ذلك الكرفان الضيق فأحسُّ بدفئها.

طيلةِ الطريق الممتد إلى مدينةِ الناصريةِ لم أرَ غير الفتاة وصندوقها.

تحقق هاجسي بأنَّ لمحتويات الصندوق سحرٌ ما، ففي طريق العودة الممتد وسط الرمال من موقع عملي القريب من البصرة، وكنتُ وحيدًا هذه المرة أقود سيارة من نوع (البيك آب) تعود للشركةِ التي أعمل فيها، فسائقي كان يتمتع بإجازة مرضيةِ بعد أن أتعبته نوبات الملاريا. رحتُ أقتفي أثر السيارات التي سبقتني على تلك الطريق التي أعرفها جيدًا، وكان الوقت عصرًا. سِرتُ على مهل فقطعتُ من الطريق ما يقرب رُبعه، وخيالي سارح بمحتويات الصندوق وبصورة سلمى، ثم أفاجأ بأن آثار الطريق المطروقةِ قد اختفت، وأصبحت السيارة تشق طريقًا جديدًا بين

الرمال بصعوبة، وبعد بضعة كيلومترات من المثابرة توقفت السيارة، وراحت عجلاتها تدور في مكانها.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أضل طريقي فيها بين تلك الرمال، والأمر كله كان كسلاً مني ومكابرة، فهناك طريق آخر شبه معبَّد ولكنه أبعد قليلاً فلم أسلكه معتقدًا أن خبرتي أصبحت كافية لقطع تلك المسافة التي تزيد قليلاً على المائتي كيلومترا. في المرة السابقة كنت قد نِمت وحيدًا ليلة كاملة في تلك الصحراء، حيث قضيتها داخل السيارة على أصوات عواء الذئاب. أما هذه المرة فقد سارت الأمور بشكل أسهل بعد أن عدت أدراجي، بصعوبة دون أن أتوغل أكثر في تلك الكثبان الرملية.

رجعت إلى صندوق الأبنوس بعد أن تركته كل تلك الأيام مفتوحًا، وكان ظني أن رطوبة الجو قد تطري بعض جفافه، فرحت أفرغ محتوياته على أرضية الغرفة بعناية شديدة. ولكن طريقتي تلك لم تنفع مع العديد من محتوياته التي كانت تتلفت بمجرد لمسها.

وجدت في الصندوق بعض الكُتب في حالة لا بأس بها، وكذلك العديد من الأوراق، منها ما هو مكتوب بخط اليد، ومنها ما هو مطبوع على آلة الطابعة، وكانت بعض تلك الأوراق رسائل خاصة، وشكاوى معنونة للحاكم العسكري البريطاني،

ولفت نظري وسطها بيان معنون من الجنرال (مود) [١٤] مؤرخ في عام ١٩١٧ يحذِّر فيه العراقيين من التقاط الصور الفوتوغرافية، ويتوعد بإعدام كل من يلتقط صورة بدون موافقات خاصة!.. وغيرها من الرسائل.

أما كيف وصلت تلك الرسائل إلى الصندوق؟ فتلك أحجية لا جواب لها، وقد أسدل الستار خلفها بموت صاحب الصندوق.

من بين الكتب التي عثرتُ عليها كتاب ضخم ملفوف بقماش أبيض سميك، وبعد أن أزحتُ القماش من فوقه، وقد تفتت أجزاء من القماش في يدي ظهر الكتاب بحالة جيدة، قد يكون القماش قد تحمل قسوة الزمن الأساسية مدافعًا ببسالة عن محتوياته، وهكذا فتحتُ الكتاب ولكن بحذر شديد أيضًا، فتبين أنه مكتوب باللغة المندائية التي أعرف حروفها، وهي لغة شبيهة بالعربية والسريانية والعبرية ولهذا الكتاب مستقبل ستكشفه الأيام المقبلة.

وجدتُ في الصندوق كذلك بعض الأحجار (خرز) منها ما هو راقد في صندوق صغير من الفضة اسوَّد لونها بعد أن تقادمت عليها السنون، ومنها ما لفَّ بقماش أبيض اصفرَّ لونه، ولكن رائحة المسك لا تزال تفوح منه. ووجدتُ هناك أيضًا قصبة من الفضة مغلقة من الجانبين، وبعد لأي فتحتها فوجدت في داخلها حرزًا طويلاً طوي على شكل سيجار من الورق الخفيف كُتب عليه بذات اللغة التي كُتب بها الكتاب، ورُسمت عليه صور

وأشكال هندسية على شكل طلاسم ذكرّتني بطلاسم الشيخ عباس. راودتني فكرة الذهاب إلى الشيخ عباس وعرض (كنزي) عليه قد أجد عنده بعض الإجابة...
وهكذا عاد بي الحنين للبحث في موضوع السحر مجدّدًا.

صمّمتُ هذه المرة على دراسة موضوع السحر بشكل علمي جاد لكشف سره، معتمدًا على مصادر رصينة، ولكن المشكلة كانت كيف تفرّق بين ما هو الرصين وما هو غير ذلك؟
وما هي الكتب الجادة التي تكشف لك عن حقيقة السحر؟
وجدت كمًّا هائلا من الكتب التي تتطرق إلى موضوع السحر أو وردتْ كلمة سحر في عنوانها، ولكن لو عددنا عناوين تلك الكتب، فسوف تمثل كتابًا بحد ذاتها، فبأي منها ستبدأ؟
إنها بالعشرات إن لم تكن بالمئات، وجدتها تملأ واجهات سوق المكتبات (السراي وشارع المتنبي) في بغداد منها:

- في كل بيت راق.
- حقيقة الجن في ظلال القرآن.
- منهج الشرع في علاج المس والصرع.
- منكرات الإنسان في ما يسلط الجن والشيطان.
- فتح المغيث في السحر والحسد ومس إبليس.
- تبرئة سليمان عليه السلام من السحر.
- المنهل المعين في إثبات الحسد والعين.

هذا جزء يسير من الكتب التي أهمل اسم كاتبها، فما بالك بالباقيات؟!

تهت في الحقيقة بين كتب التراث العربي في بحثي عن ذلك الموضوع. وجدت أن كل ما أمكنني الإطلاع عليه هو فكر ديني إسلامي متخلف يحاول بكل الطرق نفي السحر وتحريمه بشكل متحيز، ولم أجد دراسة محايدة تبحث عن الموضوع بشكل علمي عدى ما كتب في مقدمة ابن خلدون، حيث يفسر السحر والطلسمات بأنها:

(علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إمَّا بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات، ويقسِّم النفوس الساحرة إلى ثلاثة أشكال فيقول التي تؤثر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين هو السحر، والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات، والثالث هو التأثير في القوى المتخيلة عند المقابل فيتصرف فيها ويلقي فيها أنواعًا من الخيالات وهي الشعوذة). ثم يشرح فيها علوم السحر والطلسمات وعلوم أسرار الحروف، وذكر أهم من كتب عن السحر من الكُتاب العرب مثل المجريطي، والبوني، والسبتي وأهمهم جابر بن حيان.

وقد فوجئت أثناء تصفحي لما كتبه العالم الكيماوي الأشهر في تاريخ الحضارة الإسلامية جابر بن حيان [١٥] في كتابه

"التجميع" فقد عرض فيه نظريته ومحاولاته الفريدة والأولى ربما في التاريخ البشري، في تكوين إنسان أو خلقه بمساعدة صناعة الكيمياء [١٦]! قبل استنساخ النعجة "دولي".

وردت أحاديث عن السحر أخرج بعضها في صحيح البخاري.

هناك العديد من الدراسات الحديثة عن السحر صدرت للعديد من الأساتذة العرب، ومن بلدان عدة، ولكنها في الأصل تعتمد على بحوث العلماء الغربيين، لذا سأحاول أن أصل إلى مقصدي مباشرة عن طريق ما كتبه العلماء الغربيون المختصون في علم (الأنثروبولوجي) أي دراسة تطور الفكر الإنساني وفهمه [١٧].
وجدتُ الكثير مما كتبه العلماء الأكاديميون المتخصصون في هذا المجال، وهم أعلام يُشار لهم بالبنان، بنوا نظرياتهم في الأساس على دراسات ميدانية جادة في تتبع ما تقوم به الأقوام البدائية التي لا زالت موجودة على كوكبنا، والتي تعيش بعيدة عن حضارتنا في جُزر وأماكن نائية في مجاهل الغابات من ممارسات سحرية وتعبدية.

يقول جيمس فريزر [١٨]:

إن العقل البشري أثناء تطوره مرَّ بثلاث مراحل هي: السحر البدائي، والدين، والعلم.. والسحر سبق الدين، وقد بنى فريزر فكرته تلك على ما صاغه قبله الفيلسوف الألماني (هيجل) [١٩].

يقول فريزر في كتابه (الغصن الذهبي) وهو كتاب ضخم يعدّ من أهم المصادر العلمية عن موضوع السحر مؤلف من ١٢ جزء:

(هناك بعض العادات يمارسها المجتمع المتحضر دون أن يدرك لوجودها سبب، وسمّاها بالرواسب أو المخلفات الثقافية. يتمسك بها الناس دون أن يعرفوا معناها الأصلي).

وهنا وعند قراءتي لتلك السطور تراءت لي صورت الدكتورة الشابة التي كانت تتردد على الشيخ عباس، ترى هل من سبب جدي يجعل بعض الناس ومن النخبة المثقفة يتمسكون بمخلفات ثقافية مضت عليها آلاف من السنين؟.

ربط فريزر بين السحر والعلم وقال إنهما يتعارضان مع الدين، وهما يقومان على أسس ومبادئ منطقية واحدة تعتمد على تداعي المعاني أو ترابط الأفكار، ولكن عملية التداعي تلك تتمّ في السحر بشكل خاطئ لذا يطلق عليه اسم العلم الزائف.

يمثل السحر موقف الرجل البدائي من العالم المحيط به، ونظرته إليه تقوم على التجربة، وعلى الملاحظة والخبرة الطويلة بظواهر الحياة وأحداثها، وتقلبات الفصول. وكل تلك الملاحظات تشكّل أسسًا مهمة في قيام العلم والتفسير العلمي لتلك الظواهر، ومن هنا كان الربط بين السحر والعلم.

هناك الكثير من النظريات حول تفسير السحر تبين لنا أن خطوات التفكير التي يتبعها عقل الإنسان البدائي هي نظريات

منطقية تمامًا بالنسبة له ولظروف حياته، وللبيئة التي عاش فيها. فما نسميه اليوم سحرًا كان يمثل قمة المعرفة للإنسان البدائي بأسرار الكون وظواهر الطبيعة في تلك الأزمان.

السحر إذًا هو محاولة من الإنسان لـ(إجبار) عالم ما فوق الطبيعة وعالم الغيبيات على تحقيق مطالبه، والساحر يعتقد أن ممارساته السحرية لا تفشل إلا عند ارتكابه أحد الأخطاء أثناء ممارسته للطقوس السحرية التي يقوم بها، أو أن هناك تدخل من قبل ساحر آخر مضاد، ويكون أقوى مفعولاً.

يعتمد السحر على عبارات وتعاويذ وصيغ كثيرًا ما تكون غير مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها، بينما الدين يرتكز على التضرع والابتهال والسؤال دون القيام بعمل ايجابي لتحقيق مطالبه من قوى غيبية أيضًا، ومن عالم ما فوق الطبيعة، والدين يتم على مستوى المجتمع. بينما أغلب السحر يتم في الغالب في الخفاء.

لا تسأل عزيزي القارئ عن سرّ عداء الدين ورجاله للسحر في الوقت الذي نجد فيه كل من السحر والدين يتجهان لقوى غيبية مجهولة فوق الطبيعة لا يمكن الركون لصحة وجودها غير الإيمان الساذج بوجودها، أو الإكراه على الإيمان بأنها موجودة. (أظنها مسألة غيرة ومنافسة مصالح بين تلك القوى الغيبية التي تركن وراء الطبيعة وممثليها من البشر على الأرض! وكما يقول المثل : "مكدي يغار من مكدي" أي: متسول يغار من

صاحبه). ولكن ابن خلدون يفسّر عداء الدين للسحر والسحرة كون السحرة يستعينون بقوى الأفلاك وقوى أخرى بعيدًا عن إرادة اللّه.

وهذا الحديث يذكرني بقصة شاب شبّ في كنف عائلة معروفة متدينة ولم يكن الشاب مقتنعًا بوجود اللّه تعالى، مما سبب مشكلة كبيرة لعائلته الملتزمة دينيًا.

تدخل العديد من وجهاء قبيلة الشاب لأجل حل تلك المشكلة، فذلك الشاب عاش في مجتمع قبلي في غرب العراق يقيم للوجاهة وزنًا كبيرًا وللدين وزنًا أكبر.

حاصر الجميع ذلك الشاب العنيد، والمتمسك بقناعاته، ذات يوم، وأجبروه على الاعتقاد بوجود اللّه، والاعتراف بذلك أمام الملأ، فلم يبقَ له إلا أن يرضخ لإرادتهم، ولكنه اشترط عليهم أن يجيبوه على سؤال واحد فقط ليقتنع بجد، ويؤمن عن قناعة حقًا بوجود اللّه.

فرح الحضور جميعًا فأغلبهم من العلماء والفقهاء المتمرسين بالصنعة من رجال الدين، وكان سؤال الشاب بسيطًا جدًا وربما كلنا قد فكّر به ولكن دون أن يجرؤ على التصريح به، فالمسألة لا تنتهي عند الإقناع بالحجة وإنما تتعداها إلى القتل فهي قضية حياة أو موت كما تعلمون.

سأل الشاب:

ـ سادتي الكرام، آمنت بوجود الله الذي تدعونني للإيمان به وعبادته، "وهنا كبَّر الجميع"، ولكن هل يقول لي أحد منكم (الله من ألله؟)، وبلغة القوم تعني من خلق الله أو من صنعه، وجعل منه إلهًا!.

عندها انفض القوم من حوله خائبين، ونبذوا الشاب رغم مشروعية سؤاله بعد أن عجزوا عن إجابته.

ولإيجاز ما قيل عن السحر يقول الدكتور خزعل الماجدي [٢٠] في كتابه (بخور الآلهة) مستندًا إلى آراء أشهر العلماء الغربيين، ومختصرًا آرائهم عن السحر بما معناه:

السحر يوجد بأشكال ثلاثة:

١ـ السحر الخارقي

وهو يمثل مجموعة من ظواهر (الباراسيكولوجي)[٢١] المعروفة والمثبتة علميًا، والذي يفترض وجود قوة خارقة، أو إحساس فائق في إنسان ما يجعله مؤثرًا في قوانين الطبيعة، وقادرًا على إخضاعها أو التحكم فيها.

٢ـ السحر التعاطفي:

يطلق هذا المصطلح على السحر بصورة عامة، وقد مارسه الإنسان منذ البداية على أنه علم، وينقسم هذا النوع من السحر إلى قسمين:

أولاً: السحر التشابهي، وقد نشأ هذا النوع من السحر من مراقبة الإنسان للطبيعة غير الحية بصورة عامة، فوجد مثلاً أن ما يأخذه الإنسان من ماء النهر يشابه ماء النهر كله، وكذلك المطر والتراب وغيره وراح يعود إلى مكونات الطبيعة المعروفة (الماء، الهواء، التراب والنار)، وهذه المكونات أوحت إليه بأن الجزء يشبه الكل، وبذلك قام هذا النوع من السحر على مبدأ العلل المتشابهة.

ثانيًا: السحر الاتصالي، نشأ هذا النوع من السحر من مراقبة الإنسان للأشياء الحية مثل النبات، والحيوان، والإنسان، فلاحظ أن البذرة تنتج النبتة، والبيض ينتج الأفراخ، والجنين ينتج الصغار، فوصل إلى نتيجة أن الأشياء التي كانت متصلة في زمن ما ثم انفصلت يبقى تأثير بعضها على بعض، وللجزء تأثير على الكل، وللكل تأثير على الجزء.

لم يكن الساحر في تلك الحالات مشعوذًا، ولم يكذب على نفسه بل إنه كان صادق في عمله.

وينقسم السحر التعاطفي إلى:

السحر الأبيض، وهو الذي كان يمارسه الكهان، وهو سحر رسمي مفيد، وينقسم هذا بدوره إلى سحر عمومي، والذي يبغون منه خيرًا عامًا كالتأثير على نزول المطر، وخصوبة الزرع، والنصر قي الحروب وغيرها.

أما النوع الثاني فهو السحر الأسود، وهو السحر الضار، وكان يمارسه سِرًا، كُهَّان أو سحرة محترفون، وهو سحر يخص الأفراد، ولا يخص المجتمع.

٣ـ السحر الكاذب (الشعوذة)

هذا النوع من السحر يعتمد على الدجل، والحيلة، والغش، وخداع البصر، وخفة اليد، وهو نمط ينتشر كثيرًا بين الناس، ويمارسه أناس مختلفون يعلمون تمامًا بأنهم يمارسون خداع الناس والتأثير عليهم بشتى الطرق، ويسعون إلى تلبس كل وسائل السحر، الخارقي، والتعاطفي، ويدعون أنهم يتصلون بقوى خارقة، أو أنهم يكشفون أسرار الطبيعة، وكل ذلك من أجل الربح أو الجاه أو من أجل غايات أخرى.

يلجأ الناس بكثرة إلى هؤلاء المشعوذين حيث يستطيع المشعوذ وبطرق شتى النفاذ إلى نفس الشخص، وبذلك تسهل السيطرة عليه، والتأثير فيه.

لعل ثمة فائدة وحيدة أساسية لهذا النوع من السحر، هي أن هؤلاء المشعوذون يقدمون الراحة النفسية لزبائنهم الذين يؤمنون بهم، وبذلك يكون عملهم أقرب إلى الاستشفاء النفسي.

ما دمنا نتحدث عن السحر، وقبل أن أعود معكم إلى (صندوقي) سأكشف لكم سر الدكتورة، والشيخ عباس، وكما رواه لي حينها... ترى إلى أين نوع من أنواع السحر تنتمي ممارسة الشيخ عباس مع تلك الفتاة، وهل سيسلط الشيخ عباس علي بعض الجن كوني كشفت سرّه إن كان لا يزال حيًا ؟.

قال الشيخ عباس:

- جاءتني فتاة شابة، وكانت قد تلفلفت بعباءة سوداء لم تعتد على لبسها بعد فكانت تتعثر بها، ومعها امرأة تكبرها سِنًا، ربما خالتها أو أمها، وجلستا بحياء أمامي ثم كشفتا عن غرض زيارتهما لي بعد أن أعطياني مبلغًا بسيطًا من المال، فرحَّبتُ بهما ووعدتهما خيرًا، طلبت منهما بعض المعلومات والأسماء، وحددّتُ لهما موعدًا آخر قريبًا طمعا بنقود إضافية.

في المرة التالية جاءتني الشابة لوحدها، وجلست قبالتي كما في المرة السابقة، ووضعتْ بيدي مبلغا كبيرًا من المال وكلها لهفة لسماع ما يطمئنها.

تفرَّستُ بالفتاة ورحت أسألها بجرأة عن أمورها الخاصة جدًا، وعن تفاصيل علاقتها بعبد الرزاق، وكان هذا هو اسم حبيب الفتاة، وعن علاقاتها مع رجال آخرين إن وجدت، فاحمر وجهها، ولكونها طيبة أجابتني بدون تكلف وبشكل لا يشجع على الاستمرار بالأسئلة على هذا المنوال، ولكنني وكما تعرف متمكن من صنعتي، وبحكم خبرتي الطويلة لم أتراجع بل أكثرت من تلك

الأسئلة المباشرة، فانهارت وكشفت لي كل أسرارها الخاصة دفعة واحدة بعدها لاحت دمعة في عينها حاولت عبثا سترها.

بعد أن تمكنت من كشف أهم أسرار الفتاة رحت أتعامل معها هذه المرة بحرية تامة، ودون حرج، وقد كانت الفتاة كريمة معي، ولم تبخل علي بالمال بل أغدقته علي فأغدقت عليها أنا بدوري بالوعود الوردية، أخذت منها الكثير كثمن لأتعابي، على الرغم من كوني كنت مقتنعًا بأنها سوف لن تظفر بحبيب قلبها، ولكن بعد أن تعبت من إقناعها بالبحث عن غيره، وكذلك تعبت من لجاجتها، رحت أماطلها بحجة أن الرجل معمول له سحر قوي، و يجب إبطال هذا السحر أولاً، وتلك مهمة صعبة وإن كانت غير مستحيلة، ولكنها تتطلب جهدًا كبيرًا وتعاونًا مطلقًا من ناحيتها. وعدتها بأنني لن أبخل بأي جهد لإبطال ذلك السحر، وكانت كل تجاربي السابقة ناجحة في هذا المضمار، ولكن عليها التعاون المطلق معي لتظفر بحبيبها، فعليها أن تستجيب لكل متطلبات العمل، وكان آخر طلباتي منها أن تأتيني ولثلاث مرات بشعرات من أسفل جسمها على عدد أحرف اسم حبيب القلب؛ بشرط أن تقتلعها ولا تقصها.

ضحكت أنا عند هذه النقطة كثيرًا، فالمسكينة سوف تعاني كثيرًا من تلك الممارسة كون أحرف اسم حبيبها عبد الرزاق كثيرة فلو كان اسمه (طه) مثلاً لكانت المعاناة أخف، ولا أعرف لماذا جاء اسم طه على ذهني في تلك اللحظة.

لسنا وحدنا في العالم العربي نؤمن بتلك الممارسات، فشعوب العالم كلها تقريبًا تمارس السحر بشكلٍ وبآخر. عند كتابتي لهذه السطور تذكرت زيارتي للمغرب العربي، وهناك حاولت فيها التعرف على ممارسات السحرة، شاهدت الكثير منها، وكان غالبية السحرة هناك يضعون المسألة على عاتق الجن، وكيف يتلبس هذا الجن البشر فيقوم الساحر بإخراج الجن من الممسوس بطريقة أو بأخرى تصل إلى الضرب والتعذيب وممارسة الجنس وغيرها، وأغلب ممارساتهم تعتمد على خفة اليد والحيلة والعلاج بالآيات القرآنية. والسحر هناك متفشي بشكل يلفت النظر.

التقيت في جنوب المكسيك عندما كنت على ساحل المحيط الهادي وكنت أتمتع بأشعة الشمس المحرومين منها هنا في أوربا، وأتلذذ بالسير على الرمال البيضاء الناعمة، التقيت بثلاث فتيات مكسيكيات، اثنتان منهن تشتغلان في المحاماة، والثالثة مهندسة ديكور، وكنّ يتقن اللغة الإنجليزية.

السياح دائمًا يجدون طرقا مختلفة للتعارف وتمضية الوقت والتعرف على عادات غيرهم من البشر... رغم فارق السن الكبير بيني وبين تلك المجموعة الجميلة من الفتيات وجدنً متعة في الانضمام إلى المظلة التي كنت تحتها على الشاطئ أختبئ من شمس الظهيرة. وبعد أن تشاركنا في أكل بطيخة قانية الحمرة حلوة المذاق كنت قد اشتريتها توًا من بائع متجول

وضحكنا كثيرًا لسبب أو بدون سبب، سألتهنّ: هل يؤمن الشعب المكسيكي بالسحر؟ فكان الجواب بالإيجاب، لا بل قد سبقونا هم بمراحل فعندهم مُدن وأماكن خاصة لممارسة السحر وخاصة في الشمال الشرقي من المكسيك. عندهم هناك مدينة كاملة لممارسة السحر تقع في منطقة اسمها (فيراكروز كاتاماكو) Veracryz catemaco شمال خليج المكسيك على الكاريبي. ولكن المفاجأة كانت بالنسبة لي أن مهندسة الديكور قد جرَّبتْ شخصيًا السحر هناك، وعندما طلبتُ منها التفاصيل ضحكت كثيرًا، تصور منظره فتاة مرحة الوجه ممتلئة الجسم وكما نقول في العراق (مربربة) تضحك بقوة من كل قلبها وكان اسمها (فيولا) قالت فيولا:

- قصدتُ ساحرًا هناك ذات يوم ليعمل على إعادة حبيبي الذي هجرني دون سبب...

وهنا أخذتها نوبة ثانية من الضحك فلم تخرج الكلمات واضحة من بين شفتيها المكتنزتين وكل ما فهمناه منها أن الساحر طلب منها أن تأتي بشعر من أسفل بطنها وأشارت بيدها إلى هناك ليحرق الساحر الشعرات مع تعزيمة معينة تحت ضوء القمر عندما يكون بدرًا!

سألتها ما الذي دفعها لذلك؟

فأجابت: ما الدافع لأن نشتري بطاقة يانصيب ؟ إنه الأمل وعندما لا يجد المرء حلاً لمشكلته يلتجأ لكل شيء، أليس هذا من المنطق؟

إذًا، فطبيبتنا كانت تتشبث بأي أمل، والحب غلاّب كما يقولون.

ترى هل هذه الممارسة مصادفة؟ أو اتفاق غير معلن بين السحرة؟ أم هناك مدرسة متوارثة بين شعوب العالم في طريقة ممارسة الطقوس السحرية، أم حقًا أن السحر مرتبط بالجنس بشكل أو بآخر؟

لن أقصَّ عليكم ما كان يقوم به الساحر الروسي الأكبر (راسبوتين) وكيف كان يتحكم بالقياصرة الذين ملكوا الدنيا في ذلك الوقت وغيرها من قصص السحرة والشامانت في إفريقيا ومصر ومنغوليا وغيرها، والحديث يطول.

ترى هل كان الشيخ عباس يطبِّق سحره بطريقة السحر التعاطفي. أم الخارقي أو الشعوذة؟

يقول (كولن ولسون) في هذا المضمار وهو الكاتب الإنكليزي المعروف:

هدف الساحر بصورة عامة هو فرض إرادته على الطبيعة والآلهة والبشر، والساحر بشكل خاص، والإنسان بشكل عام يمتلك قوة خفية يسميها الملكة (س) يصل بها الإنسان إلى ما وراء

الحاضر، وهي قدرة من قدرات الوعي، والتي يرى بأنها مفتاح التجربة الغيبية [٢٢].

ترى أين تكمن الحقيقة، وما الذي يقنع طبيبة متعلمة في نتف شعر عانتها؟

وبعد أن يئستُ من الحصول على تفسير مقنع لمثل تلك الممارسات؛ قلتُ كما قال ذلك الشاب:

- آمنتُ بالسحر، ولكن (الساحر من سحرو؟!).

عدتُ إلى صندوق الأبنوس فقد أجد فيه بعض ما يجيب على أسئلتي، وهناك أشهر الصندوق بوجهي ذلك الكتاب بلغته القديمة المندثرة تقريبًا ليعيدني إلى المربع الأول كما يُقال.

كنتُ أزور أهلي في بغداد، في أغلب العُطل، وكلما سمحتْ لي ظروف العمل. قصصتُ على أبي وأمي قصة صندوق الأبنوس، ولمحت لهم بإعجابي بسلمى فتاة الصندوق، ففرحتْ أمي فرحا كثيرًا، ولكن أبي قال لي بالحرف الواحد:

- اسمع ولدي فوزي، لا مانع عندي من ارتباطك بتلك الفتاة ما دمتَ اقتنعت بها، وسوف أساعدك بكل المصاريف، ولكن لا تقم بأية خطوة قبل أن تترك لي فرصة السؤال عن عائلتها، وعنها إن أمكن.

فوجدتُ طلبه معقولاً جدًا.

كنتُ قد أجّلتُ فكرة الزواج عدة مرات قبل ذلك، ولم أجرؤ على الارتباط بالعديد من اللواتي قدمتهنّ لي أمي وألحتْ في ذلك ولكن دون جدوى، فذكرى سهام لا تزال ماثلة أمامي ولم ينطفئ حبها بعد رغم كل السنين وكل النساء، لذا لم أكن في عجلة من أمر الزواج، وفي الحقيقة تحولت المسألة كلها إلى أشبه ما تكون تأدية واجب فلم أتحمس قبل اليوم لكل الفتيات اللواتي زكاهن أبي سابقًا.. ولكن سلمى أثارت فيَّ الرغبة من جديد في بناء أسرة.

لم أكن على عجلة من أمر الزواج، خاصة أن عملي كان يجبرني على البقاء أغلب الوقت خارج البيت، فكيف يمكنني الارتباط بزوجة وبيت وأسرة؟

بعد أن انتهى عملي في مد أنابيب الخط الاستراتيجي للنفط عدتُ إلى بغداد، ووجدتُ وظيفة في إحدى دوائر أمانة العاصمة.
نقلتُ ما كان معي من الأغراض في بيت الناصرية، وسكنتُ في بيت أبي في غرفة لم تسع كل أغراضي.

اشتريتُ قطعة أرض بمساحة أربعمائة متر في محلة (الميكانيك) في جنوب بغداد، عن طريق جمعية المسّاحين بسعر رخيص، وبنيتُ عليها بيتا صغيرًا على عجل، وحسب الإمكانيات التي كانت متوفرة عندي، مع دعم كبير من أبي طبعًا، وفوقه قرض جيد من المصرف العقاري، ورحتُ أفرشه على مهل، فكان لصندوق الأبنوس فيه موقع الصدارة حيث احتلَّ

الركن الأهم في غرفة الضيوف، ووضعتُ خلفه مكتبة صغيرة حوَت مجموعة من كُتب السحر والتاريخ القديم والفلسفة وكتب الأساطير، والأدب العربي، ومجموعة من دواوين الشعر القديمة والحديثة.

بعد أن جاءت كل المعلومات عن ناصر وابنته سلمى وأمهم؛ ايجابية؛ لا، بل مشرِّفة، أخذتُ أمي وتوجهنا إلى مدينة القرنة. استقبلتنا أم سلمى بترحابٍ حار، وكذلك سلمى، وهناك تمَّت خطوبتي لسلمى بيسر، وعلى نطاق ضيق جدًا كون العائلة لا تزال حزينة على وفاة رب الأسرة، رغم مضي أكثر من سنة على تلك الحادثة.

في تلك الدار التي بنيتها على عجل تزوجتُ من سلمى، واكتشفتُ أن الفتاة كانت تهوى الشعر والأدب، وعلى درجة جيدة من الثقافة، رغم عيشها في مجتمع يعد متأخرًا حضاريًا، ولكن الفتاة كانت طموحة وقد دعَمها أبوها كثيرًا في ذلك، فكان يستعير لها الكتب عن طريق معارفه الكثيرين في البصرة وغيرها، وكان يحاول تعليمها اللغة المندائية، ولكن فقدانه البصر حرمها من ذلك.

كانت أمنيتي أن أقترن بفتاة تحب الأدب، فكانت سلمى تلك الفتاة، وهكذا اطمأن قلبي على الصندوق، وعلى الكتب المحيطة به، وأخيرًا وجدتُ من يشاركني اهتماماتي.

لم ترغب أم سلمى بالانتقال معنا إلى بغداد، وأصرّت على البقاء في دارهم في مدينة القرنة، فكان ذلك مدعاة قلق وشوق مستمر لسلمى، لكنها أطمأنت على أمها بعد أن انتقلت خالة سلمى، والتي كانت تعيش عند إخوتها قي مدينة الحلفاية والتي فاتتها فرصة الحصول على زوج وتأسيس أسرة، ففضلت العيش مع أختها بعد أن تركت سلمى الدار، ورحنا ندعمها ماليًا بشكل منتظم.

من حرصي الشديد وغير المبرر ربما، على الكتاب المحفوظ في صندوقه العجيب، لم أريه لأحد من معارفي، وإنما ذهبت به إلى شارع المتنبي في بغداد، وهناك صورت بعض أجزاء منه، ثم جلّدته بشكل فني يحفظه مستقبلاً من عاديات الزمن.

أخذت الصور المستنسخة من ذلك الكتاب إلى واحد من شيوخ طائفتنا المندائية، فتبين أنه لا يجيد قراءة المندائية بشكل يستطيع معه شرح المضمون، وإنما معارفه بالمندائية اقتصرت على الحفظ عن ظهر قلب للنصوص الدينية التي تساعده على تأدية تلك الطقوس.

أخذت الصور هذه المرة إلى أحد معارفي في جامعة بغداد، وعرضتها على أستاذ يعمل في قسم اللغات القديمة فيها.
تصفح الأستاذ النسخ المصورة، وأراها لزميلٍ له كان يشاركه الغرفة، وتبين أن اللغة التي كُتب بها الكتاب هي اللغة الآرامية القديمة [٢٣]، وبعد لأي استطاعا معرفة معاني بعض الكلمات،

ثم طلب مني صديقي أن أترك تلك النسخ عنده ليحاول معرفة ما كتب فيها،على أن ألتقي بهما بعد عدة أيام.

بعد أسبوعين جئتهما حسب الموعد، وكان الأستاذ قد قام مشكورًا بترجمة بضع صفحات، فكانت الصفحات تتحدث عن الطالع والأبراج، وعلاقة المواليد بمصير ومستقبل الفرد، وعلاقة موقع الكواكب بمصائر الأمم، وكيفية التصرف بتلك المصائر أو تجنبها! هذا ما جاء في الصفحات القليلة التي كانت تحت يد المترجم... ترى ماذا يحتويه الكتاب، وهو الذي يزيد على ثلاثمائة صفحة؟

لقد كان حدسي صحيحًا، أن للكتاب علاقة بالغيبيات، وقرّرتُ إيجاد طريقة لترى صفحاته النور، قرّرتُ زيارة الشيخ عباس فربما أجد عنده بعض ما يساعدني في موضوع السحر، فأخذتُ معي الصفحات المصورة من كتابي، وترجمتها العربية وذهبتُ إليه في مكانه القديم وسط أزقة محلة بني سعيد في رصافة بغداد. لم أجد الشيخ هناك ولا دكانه، وقد علمتُ أنه قد ترك المكان منذ مدة طويلة، ولا أحد يعرف مكانه حاليًا.

- "غالبًا ما يكون التحطيم كُلّيًا والبناء ناقصًا دائمًا"

اندلعت حرب العراق مع جارتها إيران في ٢٢/ ١٩٨٠/٩ وكانت حربًا بدون أسباب ظاهرة، وقد فتكت بالشعبين العراقي والإيراني وراح ضحيتها ما يقارب المليون إنسان من كلا الجانبين وخسائر مادية قدّرت بخمسمائة مليار دولار أمريكي. لقد زجّ البلدان بكل قواتهما والتي كانت قوات كبيرة جدًا فالجيش العراقي زَجَ بمائة وثمانين ألف جندي، ومائتين وخمسين ألف جندي من جنود الاحتياط، عدا سلاح الجو والبحرية، وبألف وسبعمائة دبابة و٢٧٧ طائرة.. أما الجيش الإيراني فكان مكونًا من مائتين وخمسة وثمانين ألفًا، وبجنود احتياط جاوز عددهم الثلاثمائة ألف، عدا سلاح الجو والبحرية، واللذين كان يتفوقان على نظيريهما العراقيين بخمسة أضعاف على الأقل وزج بـ١٨٩٠ دبابة و٤٥٠ طائرة.

ولم تتوقف تلك الحرب إلا في ١٩٨٨/٨/٢٠

اشتدّت الحرب بين العراق وإيران، وراحت الطائرات تقصف المدن، فانشغل الناس في البحث عن مكان آمن هربًا من حِمَم القنابل، والبحث عن المواد التموينية والوقود.

بعد أن طال أمد الحرب وراحت سيوفها تقطع الرقاب بالآلاف من كلا الجانبين، تعطلت الأعمال، وكسدت التجارة، وراح الفقر يغزو البيوت بعد أن نفدت مدخرات الناس.

تطورت الحرب من حرب كلاسيكية إلى حرب صواريخ، فراحت الحكومة تجنّد حتى كبار السن للزج بهم في تلك الأتون

الرهيب، فأخذ كل فرد يبحث له عن مهرب من الموت المحقق، يبحث عن بلد يلتجئ إليه. وبعد أن أصبحت المحلة التي أسكن فيها (الميكانيك) هدفا للصواريخ الإيرانية كونها قريبة من مصافي النفط، تركنا دارنا، وانتقلنا للعيش مع أهلي في شارع فلسطين، وكانت تلك المنطقة تعد آمنة نسبيًا حينها.

تركت داري بمحتوياتها ليسكنها أحد معارفي ممن ضاقت به السُبل، وتعهد الرجل بحراسة الدار ومحتوياتها لحين عودتي لقاء السماح له بالسكن دون أجر، وهذا ما جرى.

بعد أن توقف دوي القنابل لم يجد الناس فسحة آمنة للعيش في ظلّ حُكْم استبدَّ وراح يحكم الناس بالحديد والنار ويحارب هنا وهناك دون أن يوفّر حدًا أدنى للعيش الكريم الآمن، ففرَّ العراقيون بالملايين يبحثون عن بلدان يمكن للإنسان أن يعيش فيها بكرامة، فينشأ أطفالهم بأمان وحرية.

غادرتُ العراق مع سلمى وطفلي الوحيد عندما توقفت الحرب وفتِح السفر قبل أن يُغلق من جديد؛ تاركًا الدار بما فيها، وكما يقال عندنا هربنا بالروح العزيزة، ولجأنا إلى ألمانيا، ورحتُ هناك أشقُّ طريقًا جديدًا.

انقطع اتصالنا بمن تبقى لي من أهلنا في العراق، بعد أن هاجر أبي وباقي أسرتنا إلى أستراليا بعد معاناة طويلة بانتظار التوطين في مدينة جرمانا في ريف دمشق، وضاعت الصلة بالناس الذين أعرفهم في أتون حروب الكويت وحرب بوش، والتي

قلبت البلد رأسًا على عقب. دخلت الجيوش الأمريكية الغازية بغداد بحجة تحريرها! فجعلت ممن تبقى من ناسها قسَّاة يقتل بعضهم بعضًا بحِجج شتى منها الدين والطائفية وغيرها.
فقدت اتصالي بصديقي الذي تركته في داري في بغداد، وبعد مُدَّة التقيت به صدفة في تجمع للعراقيين في إحدى المدن الألمانية بعد أن استطاع هو الآخر الوصول إلى ألمانيا تاركًا في بغداد أسرته بأمل أن يستطيع لمَّ شملهم في المستقبل، فراح يقصُ عليَّ قصصًا من الأهوال التي حلَّت بالناس في بغداد تقشعر لها الأبدان.

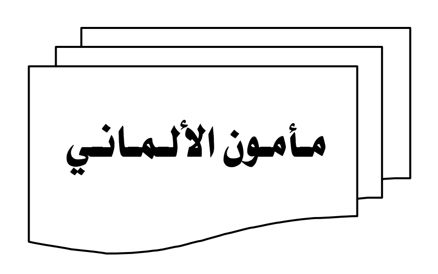
أخبرني صديقي معتذرًا أنه اضطر لترك الدار بما فيها بعد أن أصبح العيش فيها مستحيلاً، فقد احتلت مجموعة من الإرهابيين منطقة الميكانيك ومنطقة الدورة، وراحوا يعيثون فيها فسادًا، فتحولت إلى معقل لهم، فاضطر صاحبي وأسرته إلى الانتقال إلى صوب الرصافة تاركين أحد معارفهم أيضًا في داري، أمَّا محتوياتها، فتركها أمانة عند الساكن الجديد.

لم أسأله عن أثاث الدار الذي تركته أمانة عنده، ولا حتى عن الدار وماذا حلَّ بها، ولكنني سألته أين حلَّ الدهر بصندوق الأبنوس ومحتوياته؟
طمأنني بأنه ترك صندوق الأبنوس بمحتوياته مع أناس مقربين له يحافظون على الأمانة.

هكذا ضاع الكتاب الذي كنتُ أمَّني نفسي بدراسته من جديد بعد أن أعددتُ العدة لذلك.

فَقِد صندوق الأبنوس ولم أعثر عليه إلى اليوم. كم حزنتُ لفقدان ذلك الصندوق، فقد ربطتني به علاقة ودٍّ مبهمة.
أمَّا سلمى فكان حزنها أشدُّ ومن نوع آخر، فقد كان الصندوق هو الذكرى الوحيدة التي بقيتْ لها من أبيها الذي أحبَّته كثيرًا.

الظاهر أن كتاب السحر رفض أن يترك صندوقه الخشبي فضاع كما ضاعتْ حقيقة السحر، وفي عراقنا الجديد ضاع كل شيء فيه، وضاع صندوق الأبنوس بما فيه فلم نعثر عليه، ولحين ذلك سنظل ندور بما كتبه فريزر وما قاله فلان عن السحر والسحرة.



(الإنسان الذي طالما غامر وخاطر وهو يتوجه إلى العقل؛ احتفظ على الأقل بما يكفيه من الغرائز لكي يواجه الجهل والضلال)

بعد أن تركتُ العراق هربًا من ملاحقات أزلام النظام السابق تاركًا فيه زوجتي وأطفالي الصغار إلى حين، رحتُ أذرع شوارع عَمَّان ومقاهيها بحثا عن طريق آمن للوصول عبره إلى أوربا، لتلحق بي أسرتي فيما بعد كي نبني هناك حياتنا من جديد ليعيش أولادنا بحرية وكرامة وأمان على أرضٍ جديدة، وهذا قدرنا.

التقيتُ في إحدى مقاهي عَمَّان القريبة من وسط البلد برجلٍ عراقي، تشرَّد من وطنه مثلي. كان الرجل طويل القامة ذا جسمٍ رياضي بارز العضلات، ترك مرض الجدري على وجهه الأسمر آثارًا لا تنمحي، وكان اسمه "مأمون".

كان مأمون شديد الحذر، وربما كان مبالِغًا في حذره. لم يجمع بيننا لقاء سابق، أو معرفة مسبقة، إلا عندما التقينا عند مساعد مهرِّب في تلك المقهى التي تغص بالرواد وقد زالت ملامحها بعد أن غطّاها دخان (الشيشة). وهناك أجزل لنا هذا (المهرّب المشبوه) الوعود المعسولة في إيصالنا إلى البلد الذي نريده، بطرق مضمونة وكأننا في مكتب سياحي، فتملكنا الخوف من تلك الوعود الخيالية، والحياة قد علمتنا الكثير.

تركنا المقهى الذي التقينا فيه تاركين المهرب سارحًا مع أنفاس التبغ العطرة دون أن ندله على عنوانٍ لنا، وكل ما أعطيناه وعدًا باللقاء في اليوم التالي في ذات المقهى.

عند خروجنا من المقهى سرنا سوية أنا ومأمون، ورحنا نلفُ وندور في أسواق عَمَّان وقد شعرنا حينها كأننا مراقبين، فأخذنا نضيع الأثر على مساعد المهرب، أو على من كان يراقبنا من رواد المقهى.

بعد أن تعبت أرجلنا تمامًا من ذلك المشوار الطويل في أسواق عَمَّان المكتظة بالباعة وبالضائع الصينية الرخيصة الثمن وبالملابس والأحذية المستعملة، وبالخضروات الطازجة التي يغطيها التراب والذباب، جلسنا في أحد أركان ساحة الملعب الروماني وسط عمَّان، وهناك رحنا نقلّب العرض المقدَّم لنا من قِبَل المهرِّب، والذي كان من شروطه أن نعطيه جوازات سفرنا العراقية ليضع عليها تأشيرة دخول إلى هولندا، وكما قال المهرب إن التأشيرة مضبوطة مائة بالمائة يشتريها هو بثلاثة آلاف دولار من أحد موظفي

السفارة. رحنا نقلب كل العروض التي كانت قد قدِّمت لنا من قِبَل هذا المهرب أو من غيره، والمصيبة أن بعض معارفنا العراقيين يؤكدون لنا على أن المهرب الفلاني مضمون، وفلان أوصل عائلات عدة إلى أوربا عن طريق ماليزيا!.

وهناك مثل ساري في بغداد يقول : (يا الرايح إلى كركوك مرّ بالسماوه)، والسماوه مدينة تقع جنوب بغداد وكركوك مدينة في شماله.

لم نطمئن لحديث المهرب طبعًا، وكان حرصنا على جواز السفر وصل حدًا غير مبرر إطلاقا، فما هو إلا وثيقة لا يمكن السفر بها أبعد من عاصمة الأردن.

جلسنا طويلاً على مدرجات الملعب الحجرية ورحنا نقلّب الاحتمالات الممكنة، فوصلنا إلى مرحلة اليأس، وأصبحنا نبحث في خيارات ما وراء تلك المرحلة وكان أكثرها إحباطًا هو ترك كل شيء والعودة إلى العراق.

افترقنا في ذلك المساء دون نتيجة على أمل اللقاء بعد ثلاثة أيام، وفي ذات الركن من الملعب الروماني عسى أن يستجد شيء.

في اليوم التالي ذهبتُ أنا إلى أحد الصاغة الأردنيين اللذين تربطني به علاقة صداقة بدأت عندما زارني الرجل في دكاني في بغداد، باحثا عن منهوبات الكويت من الماس فدللته على أحد الصاغة اللذين تعاطوا شراء وبيع تلك المنهوبات.

وثق الرجل بي بعدما تأكد له أن متجري يعدُ من متاجر الدرجة الأولى، وكنتُ قد زرته عند وصولي إلى عَمَّان محملاً بهدايا من العراق قبل شهرين.

عند زيارتي له هذه المرة رحَّب بي كثيرًا، وجدتُ عنده في المحل رجلاً وقورًا بدت عليه آثار النعمة، يجلس على الأريكة الفخمة التي احتلت أحد أركان المحل.

عرَّفني صاحبي على الرجل فقدَّمه لي كونه القنصل الفخري لدولة (بليز) في عَمَّان وفي عدد من العواصم العربية.

لم أسأله أين تقع دولة (بليز) كي لا أكشف جهلي بجغرافية العالم، ولكنني سألته إن كان بإمكاني زيارة هذا البلد؟

هنا بادر صديقي الصائغ بالإجابة نيابة عن القنصل الفخري بالإيجاب، محدِّدًا سعر تأشيرة الدخول لدولة (بليز) بألف دينار أردني إذا كان جواز سفري نظامي وغير منتهي الصلاحية.

قبلتُ العرض فورًا بعد أن يئست من مماطلات المهربين تاركًا الخمسمائة دولار التي دفعتها تقدمة لأحدهم، والذي ظلَّ يماطلني لأكثر من شهر دون جدوى.

اتفقتُ مع (سعادة) القنصل الفخري على اللقاء بعد أربعة أيام حيث تمنعه عطلة الأسبوع التي تمتد من الجمعة إلى يوم الاثنين من أي نشاط (قنصلي)!.

جئتُ إلى مأمون قبل الموعد المحدد بيننا في الملعب الروماني، فجلستُ أنتظره وأنا شارد الذهن، رحتُ أفكِّر في تاريخ هذا الصرح ومَنْ بناه، لقد بُنيتْ عَمَّان من قبل الدولة العمونية، وكان اسم المدينة "ربَّة عمون"، ثم احتلها الآشوريون وبعدهم البابليون حتى أصبحتْ تحت السيطرة اليونانية في عهد البطالسة وسمَّاها بطليموس فلادولفس باسمه (فلادليفيا - وتعني مدينة الحب الأخوي) ثم احتلها الرومان وظلت تحت سيطرتهم إلى العهد الأموي وقد بنوا فيها عمارة وملاعب؛ ربما الملعب الذي أجلس فيه الآن هو منذ تلك الحقبة، ثم احتلها العرب في عهد الخليفة أبي بكر الصديق بقيادة يزيد ابن أبي سفيان...

ولم أشعر إلا بعد تنحنح مأمون بصوت مرتفع ليعلن عن مجيئه، فأخبرته بقصة القنصل الفخري لدولة بليز، وكان عليَّ أن أشتري خارطة جديدة للعالم كي أبيِّن لمأمون أين تقع دولة بليز هذه، وحتى الخارطة الجديدة لم تحل معضلة التعرف على دولة بليز، ولكن مأمون، وكما يقال في المثل الشعبي العراقي (ذبها على الساطور) أي لم يعد يبالي أين سيحل به الدهر، المهم أن يخرج من معاناة التهريب والمهربين في عمان...
وهكذا اتفقنا بأن ندخل تلك المغامرة سوية بعد أن ضاقت بنا السُبل، عسى أن يسهلها رب العالمين هذه المرة.

ـ لابد أن الفضول يدفعكم الآن لمعرفة أين تقع دولة بليز وهل هي موجودة فعلاً، ولكنني وبكل خباثة لن أشفي غليلكم وعليكم أنتم البحث عنها كما فعلتُ أنا، وكما فعل مأمون، ولكن دون جدوى.

أخذتُ جواز سفري وجواز سفر مأمون الذي جلس ينتظرني في المقهى المقابلة لمحل الصائغ، ومعي المبالغ المطلوبة وصورتان لكل منا، وحضرت إلى الموعد المتفق عليه في دكان الصائغ.

جاء (سعادة القنصل) في الموعد المحدد بالضبط، وكانت في المحل امرأة تساوم على شراء خاتم صغير؛ ولم تشتريه في النهاية، وبعد أن خلى المحل من غيرنا أخذ سعادة القنصل جوازات سفرنا العراقية وراح يقلّبها فاحصًا، ثم أخذها بعد أن اطمأن بأن الألفي دينار أردني قد أصبحت في خزنة الصائغ.

غادر القنصل الفخري المحل بعد أن وضع قسمًا من النقود وجوازات السفر في حقيبة سمسونايت أنيقة يحملها بيده بشيء من التباهي، وطلب أن أنتظره ساعة واحدة فقط.

لم أقلق كثيرًا هذه المرة على فقد جواز سفري، ولا على فقد النقود، فإنني قد سلّمتها لسعادته عن طريق زميلي الصائغ، وهو إنسان محترم كما عرفته وله سمعته جيدة في السوق، وقد طمأنني وتمّتْ كل الأمور بكفالته.

لم تمرّ في حياتي ساعة أطول وقتا من تلك الساعة التي قضيتها متبرمًا رغم أقداح الشاي والقهوة المتتالية، والتي لم يبخل عليّ بها صديقي، أمَّا كيف كانت حالة مأمون فحدّث ولا حرج، فهو لم يجرؤ على دخول محل الصائغ حيث أجلس أنا على آرائك من جلد فاخر ليستطلع الخبر، ولم يستطع الانتظار في المقهى القريبة لحين أن يفرجها اللّه علينا، فظلَّ يقطع الدرب بين المقهى والمحل جيئة وذهابًا.

جاء القنصل بعد أقل من ساعة، وسلَّمني جوازات سفرنا وعليها تأشيرة دخول إلى دولة (بليز)، والظاهر أن حقيبة السمسونايت هي مكتب عمل القنصل الفخري.

تفحصت جوازات سفرنا ورحت أمعن النظر في ختم تأشيرة الدخول التي راحت تزين الصفحة الأخيرة منه، والتي لم يجف حبرها بعد فوجدتها - وحسب خبرتي المتواضعة - أصلية، فـ"سمة الدخول" لا غبار عليها.

ظهرت أمامي مشكلة جديدة، هي أنه لا توجد رحلات سفر مباشرة من عمَّان إلى عاصمة (بليز)، وقد قضينا نهارًا كاملاً أنا ومأمون في التنقل بين وكالات شركات الطيران الموجودة في عمَّان، وكل شركات الطيران أصرَّت وأكدَّت أنه لا يمكن قطع تذاكر سفر إلى تلك الدولة مباشرة، ويجب على المسافر إلى هناك أن يمرَّ بدولة مجاورة (ترانزيت) وعنده تأشيرة دخول لتلك الدولة، ومنها إلى جمهورية بليز.

عدتُ إلى زميلي في الشميساني طمعًا بنصيحة أو معرفة تسهّل الأمر، فتعهد صديقي بتذليل تلك العقبة أيضًا، فعنده صديق يعمل في سفارة دولة مجاورة لدولة بليز، وسوف يؤمّن لنا تأشيرة الترانزيت لتلك الدولة لقاء خمسمائة دينار أردني لكل جواز سفر. قبلتُ بهذا الحل أيضًا حتى دون أخذ موافقة مأمون، فقد خولني الرجل بكل ما أراه مناسبًا لننتهي من متاعبنا التي امتدت طويلاً في عمّان.

حُلَّ ذلك الإشكال فعلاً وظهرت تأشيرة جديدة بجانب تلك البليزية لدولة المكسيك، وكان سعر بطاقة السفر التي توصلنا إلى المحروسة (بليز) ألف وثلاثمائة وثلاثين دينارًا أردنيًا لكل منا، أي ما يزيد على الألف وخمسمائة دولار أمريكي.

جازفنا بكل ذلك، وصعدنا إلى طائرة الجامبو التابعة إلى الخطوط الجوية الملكية الهولندية، فوصلنا أنا ومأمون أخيرًا إلى دولة بليز بشكل رسمي بعد ساعات طويلة من الطيران المتعب وانتظار في امستردام امتدَّ لأكثر من ساعة.

في مطار عاصمة بليز استقبلنا بساطٌ رائع الخضرة ووجوهٌ سمراء مرحّبة باسمة، ولكنها صغيرة الحجم مقارنة بطولنا الفارع أنا ومأمون.

كنتُ أخفي معي مدخرات لا بأس بها من العملة الصعبة في جيوب سرّية، أما مأمون فقد صرف أغلب مدخراته على المهربين ثم

على تأشيرات الدخول وبطاقة السفر، وأصبح كما نقول نحن العراقيون (على الحديدة).

علمت من مأمون أثناء رحلتنا الطويلة المرعبة أنه كان يشتغل ميكانيكيًا متخصصًا في إصلاح سيارات المرسيدس وغيرها من السيارات الفخمة في العراق، وكان قد تخرَّج من دورة تعليمية بهذا الشأن، وتعلم بذلك القواعد الأساسية على يد خبراء ألمان مرسلين خصيصًا من الشركة، ليدرِّبوا من له قدرة من العراقيين على تصليح وإدامة ذلك النوع من السيارات والتي لها سوق رائجة في جميع أنحاء العالم، ثم استقبلته شركة المارسيدس في دورة امتدت لستة أشهر في ألمانيا فأتقن عمله في تلك الدورة وتعلم اللغة الألمانية بشكل يستطيع التفاهم بها.

كانت لمأمون ورشة مزدهرة في شارع الشيخ عمر في بغداد زبائنها من علية القوم، وهناك أطلق عليه زملاؤه لقب "مأمون الألماني". باع مأمون الألماني ورشته بثمن بخس قبل تركه العراق، ولكنه لم يفقد حبه ومهارته لتلك المهنة الرائجة، وظلَّ يطوِّر لغته الألمانية عن طريق القراءة الذاتية، فتعلم الكثير منها.

سألته ذات مرة بماذا ستفيدك اللغة الألمانية هنا والكل يتكلم الأسبانية والإنجليزية؟
فراح يلقي عليَّ محاضرة طويلة عريضة عن أهمية معرفة اللغات.. فندمت عندها على سؤالي هذا.

عقدنا اتفاق شرف أنا ومأمون على أن نبدأ حياتنا في وطننا الجديد (بليز المحروسة) شراكة على الحلوة والمرة، وهذا ما حدث فعلاً، فالرجل لم يكن يعير اهتمامًا كبيرًا للنقود، وكان صادقا في تعامله مع الجميع، فبرأس المال الذي معي وبخبرة مأمون نستطيع أن ندبّر عيشنا بطريقة أسهل.

العيش في ذلك البلد رخيص، والناس بسطاء غالبيتهم من الفقراء ولكن هناك شريحة منهم مرفهة جدًا. أثار انتباه مأمون كثرة السيارات الألمانية من نوع "فولكس واكن" القديمة، والعديد من السيارات ذات الماركات المميزة حديثة الصنع في عاصمة بليز.

لم تكلفنا الإقامة في بليز كثيرًا، فاستأجرنا في البداية أنا ومأمون دارًا صغيرة في ضواحي المدينة، ببدل إيجار زهيد جدًا، وسكنا سوية في تلك الدار.. ولكن بعد أن تعرفنا على البلد أكثر اكترى كلٌّ منا سكنه الخاص، وبسعرٍ رخيصٍ أيضًا.

لم تكن لغة البلد صعبة علينا فنحن قد درسنا من قبل اللغة الإنجليزية بشكل جيد في المدارس العراقية ووجدنا اللغة الأسبانية سهلة ومحببة، وقوانين موطننا الجديد كانت سهلة ومفتوحة والناس هنا بسطاء ومتعاونون، فرحنا نبحث بجد عن محل لنفتح فيه ورشة لتصليح السيارات؛ وتلك الفرصة الأوفر حظًا لكسب العيش في بلد تكثر فيه البطالة وتكثر فيه السيارات القديمة والحديثة، أما فكرة فتح محل للصياغة

فنزعتها من ذهني منذ البداية، فالمسألة تحتاج إلى رأس مال كبير لم نقدر على توفيره، ومجازفة غير مضمونة النتائج.

كان مأمون قليل الكلام في البداية، شديد الحذر معي، رغم أننا نسكن قريبين من بعضنا، ولا أصدقاء لنا نقاسمهم همومنا، وأظن مرد ذلك الحذر يعود إلى التربية الحزبية الصارمة التي نشأ عليها مأمون في شبابه، ولكنه ترك تلك الصرامة بعد أن أطمأن لي، فلم يجد أحدًا غيري يكلمه.

مع الأيام أصبح مأمون لا يفارقني، وكأنه طفل صغير، وخاصة بعد أن صنعت من بعض ألواح الخشب المرمي في الأنقاض (طاولة زهر) أو كما نسميها نحن العراقيون (طاولي) لنقضي الوقت لعبًا برهان بسيط، وكان مأمون يكسب الرهان في أكثر الأوقات فكان يفرح كثيرًا بذلك ولكن كان ينزعج كثيرًا عندما يخسر ويظل مهمومًا طيلة يومه.

حصلنا على إقامة عمل في البلد بعد أشهر قليلة من وصولنا وبمساعدة رشاوى قليلة لبعض الموظفين، ثم فتحنا حسابا في البنك وأخذنا رخصة بالعمل.

افتتحنا ورشة تصليح السيارات باحتفالية بسيطة، وخصصنا جزءًا من الورشة لبيع بعض قطع الغيار الضرورية لها. لم أدرك حينها سبب إصرار مأمون على أن تكون بجانب الورشة قطعة أرض واسعة وقد كلفنا ذلك الكثير من الجهد ودفعنا مبالغ

اضافية كإيجار لقطعة الأرض تلك، ولكن ومع الزمن تبين أن مأمون مخطط اقتصادي ورجل أعمال بارع... فبجانب مواظبته على إصلاح السيارات العاطلة وبكل إخلاص، راح يشتري السيارات الميئوس من إصلاحها حسب ظن مالكيها وبأسعار زهيدة جدًا، ثم يبرع في إصلاحها وتعديلها وصبغها أحيانًا، فيبيعها بأضعاف السعر الذي اشتراها به، وعندها فقط أدركت سبب إصراره على أرض مجاورة، فقد كان يركن فيها السيارات ويعمل على إصلاحها في أوقات فراغه الطويلة، لذا تجده مشغولاً طول الوقت، وتلك طريقة بارعة لتمضية الوقت تعلمت أثنائها تصليح بعض الأعطال البسيطة في السيارات.

بعد دعاية رصينة على شاشة التلفيزيون البليزي كوننا افتتحنا هناك بإدارة خبير بالسيارات الألمانية يتقن اللغة الألمانية، طبعًا لم يكن هناك ربط بين تصليح السيارات الألمانية وبين إتقان اللغة الألمانية، لكنها أعطت نتيجة جيدة في بث روح الثقة بين الزبائن المرفهين خاصة، فراحت سيارات المارسيدس الفخمة تجمّل ورشتنا وأضفت عليها نوعًا من المهابة، فأخذت الورشة تدرُّ علينا أرباحًا جيدة كانت تكفي لعيش كريم، وتوعد بمستقبل جيد.

ازدهر العمل في ورشتنا بعد أن أثبت مأمون مهارة كبيرة في عمله، فراح يخطط لشراء أرض واسعة خارج المدينة تصلح لأن تكون مقبرة للسيارات التالفة، وعندما سألته عن الفائدة من السيارات التالفة أجاب أنها منجم للأدوات الاحتياطية.

حصلنا على جواز السفر (البليزي) والجنسية البليزية خلال فتره تعد قليلة دامت سنة وبضعة أشهر فقط بعد أخذنا إقامة العمل، وعندها أرسلتُ خلف أسرتي، فباعتْ زوجتي أملاكنا في بغداد وضواحيها بثمن دون سعرها الحقيقي بعدة مرات، وهربتْ بالأطفال إلى سوريا والنقود معها، وكانت تلك مجازفة كبرى خطرة النتائج على أسرتنا لو كُشف أمرها، ولكن زوجتي كانت بارعة الحيلة وقوية الشخصية فلم تخشَ شيئا.

هناك في عراقنا (العظيم) قوانين عجيبة يجب التحايل عليها لتدبِّر أمور حياتك. من إحدى تلك القوانين هو قانون (المحرم) أي أن على المرأة المسافرة لأي مكان يجب أن يرافقها رجل (محرم) أي لا يحل له الزواج منها، كالأخ والابن والأب وإلى آخر (الآية) وأن تحصل على موافقة الزوج الخطية ليسافر أطفالها معها... وقد سبَّب ذلك القانون عقبة جدية في حصول زوجتي وأطفالي على موافقة السفر، لم تحل تلك المشكلة إلا بعد أن انتحل أخي الأكبر صفتي، وأصدر جواز سفر باسمي، وعليه صورته، ولكن بعد أن دفع رشاوى كبيرة لأكثر من ضابط في مديرية الجوازات، ورافق زوجتي وأطفالي في سفرتهم إلى سوريا.

لو كان يعلم أخي بأن زوجتي تخفي معها مبالغ كبيرة من المال بين أغراض الأطفال لما رافقها حتمًا، فهو يخاف من تلك الأمور حدَّ الرعب، ولكن كل شيء مرَّ بسلام والحمد للّه.

سافرت أنا إلى سوريا بعد أن علمتُ بوصولهم، لألتقي بأسرتي التي افتقدتُها واشتقتُ لها كثيرًا.

في دمشق التقيتُ بزوجتي وأطفالي وأخي، وقضينا أيامًا كلها سعادة، فدمشق مدينة جميلة تكثر فيها المسرات، فقضينا أمسياتٍ رائعة في مطاعمها المنتشرة في حاراتها القديمة، وكانت أمسيات لا تُنسى؛ كلها طرب شامي أصيل.

حاولتُ جهدي إقناع أخي بالسفر والهجرة معي إلى بليز، ولكن دون جدوى، فقد ظلَّ الرجل متشبثا بالوطن.

حوّلتُ المبالغ التي مع زوجتي إلى حسابي المصرفي في بليز، وقطعنا تذاكر السفر إلى بليز على متن الخطوط الجوية الأسبانية هذه المرة وإلى مدينة كانكون المكسيكية ومنها إلى بليز على متن خطوط جوية محلية.

صعدنا الطائرة دون خوف هذه المرة، فوصلنا دون مشاكل إلى بليز، فقد كانت معي كافة الموافقات الرسمية ووجدنا مأمون في استقبالنا ومعه سيارة تشبه الليموزين فخمة تخص أحد زبائن الورشة.

كنتُ قد أنجزتُ هنا في بليز كل المعاملات اللازمة التي تمكّن زوجتي وأطفالي من السفر إلى دولة بليز والإقامة معي فيها، وهذه المرة دون الحاجة لخدمات سعادة القنصل الفخري طبعًا، والذي فقدتُ الصلة معه منذ سفرتي الأولى، ولا أعرف حتى أين أراضيه اليوم، وهل كان حقيقة قنصلاً فخريًا كما يدّعي، أما منتحلاً لتلك الصفة.

هنا في بليز اشتريت بالنقود التي حولتها لبلدي الجديد مسكنًا جديدًا مطلاً على ساحل البحر الكاريبي، في مكان يرتاده السياح غير بعيد عن العاصمة.

أصبحنا مع الوقت (بليزيين) حقيقيين، وكان المناخ رائعًا هنا فالصيف لا يفرق كثيرًا عن الشتاء، والأشجار خضراء دائمة الخضرة، فكنا نشعر بحرية لم نعتدها ورحنا ننظم حياتنا على هذا الأساس.

افتتحنا أنا وزوجتي متجرًا لبيع المواد الغذائية، وبعض ما يحتاجه السائح والمصطاف غير بعيد عن دارنا الجديدة، كما استأجرنا من بلدية المدينة قطعة أرض تطلُّ على الساحل وبنينا فيها كشكًا نبيع فيه المثلجات والمشروبات الغازية، ونؤجّر فيه المظلات الواقية من الشمس ومساطب يجلس عليها السائح ووظفنا للعمل فيها شابًا بليزيًا تمتد جذوره إلى حضارة المايا هو وزوجته وهما من سكنة المنطقة، فالمنطقة جميلة بُنيت حديثًا يؤمها السياح الأمريكان بشكل خاص وراحت تزدحم بالزوار،

والساحل يمتد إلى مسافات بعيدة من رمال بيضاء ناعمة، وأشجار جوز الهند تمتد مع الساحل فترى السياح هناك شبه عراة وقد افترشوا تلك الرمال منذ الصباح الباكر، ويظل الساحل يغص بهم حتى يسقط ذلك القرص الأحمر وسط البحر لينسج حكايات خرافية عن عشق إله البحر لآلهة الشمس وكيف عند لقائهما الحميم فتنفجر الشمس عندما تقبل محبها إله البحر فتتهشم وتتحول إلى أحجار من العنبر يلتقطها السياح من على الشواطئ هناك.

تفرغت زوجتي لتدير المتجر بعد أن التحق الأطفال بالمدارس، وتركت أنا التردد على الورشة بعد أن أخذ العمل يتوسع في متجرنا الجديد، والتحقت بزوجتي في إدارته، أما صديقي مأمون فلم تكن عنده أسرة لا هنا ولا في العراق، فاعتاد على الوحدة، ولم يكن بحاجة جادة لتواجدي معه في الورشة بعد أن وظف عاملين من الشباب ليساعداه، فلم يكترث لغيابي عنها.

حاول مأمون تأسيس أسرة هنا في بليز فلم ينجح، بسبب الشروط المتشددة التي كان يضعها معيارًا لشريكة حياته، رغم أنه تجاوز سن الستين أو قاربها... كان يقضي جُلَّ ساعات النهار في ورشته، والتي أصبحت تمثل له كل حياته، وكانت الورشة تدرُّ أرباحًا أخذت تزداد بعد أن طوَّرنا قسم بيع الأدوات الاحتياطية فيها بالمبالغ التي توفرت معي، وتوسع في شراء وبيع السيارات القديمة وزاد عدد العمال الذين وظفهم معه بعد أن كثر العمل.

لم تنقطع حصتي من أرباح الورشة بعد أن تركت الدوام فيها وتفرغت تمامًا لمتجري، وهكذا تحسن وضعي المادي هنا بشكل ملحوظ، وأصبحنا نعيش في وطننا الجديد في بحبوحة.

••••

مضت خمسة أعوام على معرفتي بمأمون هنا في بليز، وكانت تلك السنين كافية لتجعله فردًا من أسرتنا، فقد أحبَّه الأطفال وتعلقوا به، وهو لم يعد قادرًا على فراقهم، ومع الأيام راح يحدثنا عن حياته في العراق على شكل حكايات للسمر يفرح بها الأطفال كثيرًا، وعادة تبدأ حكاياته بعد عشاء تعده زوجتي خصيصًا له وهو طبق (الدولمة) العراقي المشهور، والذي يحبه مأمون جدًا.

يقول مأمون:

بُنيت بغداد عام ٧١٠ للميلاد على خط الطول ٤٤ وخط العرض ٣٣ وكانت دائرية الشكل في البداية على غير العادة التي جرت في بناء المدن في ذلك الزمان.. قسِّمت بغداد منذ بنائها إلى كرخ ورصافة، فصوب الكرخ على يمين نهر دجلة، والرصافة تقع إلى شماله، وظلت تربط الصوبين جسورًا تعددت نوعًا وعددًا على مدى العصور.

احتلَّ الغزاة بغداد ـ العاصمة الأشهر على مدى التاريخ ـ أكثر من ١٢ مرة، وفي كل مرة يُقتل رجالها وتُسبى نساؤها وتخرَّب معالمها وتندثر حضارتها.

تشقُّ صوب الرصافة اليوم شوارع طولية من بدايتها وحتى نهايتها قبل أن تتوسع المدينة بشكلٍ كبيرٍ وعشوائيٍّ في السنين الأخيرة.

كان شارع الرشيد أكبر وأهمَّ شارع فيها قبل أن ينافسه شارع الجمهورية والذي شُقَّ حديثا، ثم شارع غازي وشارع الشيخ عمر، وكانت كل الشوارع خطوطًا مستقيمة متوازية يبعد الواحد عن الآخر بضع مئات من الأمتار تلتقي في نهاياتها فقط. يضاف لها شارع المستنصر الأكثر أصالة والذي يجري مع ضفة نهر دجلة، ولكنه يتعثر بمسيرته فلا يظل مستقيمًا حتى يصل إلى شارع أبي نؤاس فيتحد معه مشكِّلاً خطًا رابعًا.

ما يهمنا هنا هو شارع الرشيد وحصرًا من باب المعظم شمالاً حتى الباب الشرقي، والمسافة بينهما تقارب العشر كيلو مترات..

كان ذلك عام ١٩٥٧...

كان العراق تحت الحكم الملكي الذي اختارته له بريطانيا العظمى قبل أن تتركه، وظلت روابط المودة والعرفان بالجميل لحكومة صاحبة الجلالة الصفة الواضحة للملوك الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم شعب لم يعرف السلم طيلة تاريخه.

كان الشعب العراقي ولا يزال عصيًا على القيادة ولا يعجبه العجب كما يقال، فتجده ثائرًا دائمًا على من يحكمه، ولا أعرف كيف استطاعت حكومة البعث التي أتت بها السفارة الأمريكية أن تظل على دفة الحكم إلى الآن؟.

استمر مأمون في سرده لقصته بعد أن أتى على آخر قطعة من الدولة في الصحن:

بعد أن ينتهي شارع الرشيد في باب المعظم وقبل أن يواصل السير إلى مدينة الأعظمية تحت اسم جديد شارع الإمام الأعظم ـ نسبة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان حيث ينتهي الشارع عند ضريحه الكبير الذي يفصله عن ضريح الإمام موسى الكاظم نهر دجلة.

وهنا سألته زوجتي: من هم هؤلاء الأئمة ولماذا كل هذا التبجيل والاحترام المبالغ به؟

عزيزتي هذا موضوع طويل ويحتاج له دعوة خاصة وقدر دولة جديد، وباختصار فأبي حنيفة النعمان واحد من أربعة علماء سُنّة ظهروا في الأزمنة الغابرة ووضعوا للدين الإسلامي أصوله فأصبح المسلمون يتعبدون على أربعة مذاهب وظلت الناس ملتزمة بتعاليمهم منذ أكثر من ألف عام لا تغيِّرها رغم تبدل الزمن وتطور البشرية.

أما الإمام موسى الكاظم فهو الإمام السابع في المذهب الشيعي والحديث عنه سيكون أطول وربما لا يكفيه قدر دولة واحد،

وباختصار فهو قد توفى في زمن هارون الرشيد وترك من الأولاد ٢٣ ذكرًا و٣٧ من الإناث ومن ألقابه: الكاظم والصابر والزاهد، وأمه من البربر... ودعيني أكمل قصتي:

توجد في باب المعظم منطقة واسعة جمعت بين المدنية والريف حيث تناثرت مجموعة من الكليات العلمية والأدبية، وقد انتشرت بشكل عشوائي، مثل كلية الهندسة ودار المعلمين العالية وغيرها، وهناك خلف تلك الصروح الحضارية أقيمت بضعة بيوت بنيت من القصب والطين لا يلتفت إليها أحد.

هناك في واحد من تلك الأكواخ خلف سدة ناظم باشا كان يختفي وكرٌ للحزب الشيوعي العراقي، والذي كنتُ عضوًا ناشطا فيه، قال مأمون ذلك معقبًا: أرجو أن لا تسأليني ما هو الحزب الشيوعي وما هو الوكر... وهو يلوك لقمته بتلذذ.

ظلَّ الحزب الشيوعي يرفع شعار "وطن حر وشعب سعيد" طيلة العهد الملكي والعهود التي تلته ولكن دون جدوى! فلا وطن حر كما ترين بل وطن محتل وشعب تعيس مشرد.

المطبوعات التحريضية الحزبية، والتي توزع على البيوت والمحلات سرًا بعيدًا عن أعين أجهزة الشرطة، كانت تُطبع في ذلك الوكر ربما، أو تنقل إليه من مكان آخر، وكانت تدعو الناس إلى الانتفاضة على الحكم الملكي ووزاراته.

كان الانتماء إلى الحزب الشيوعي في تلك الحقبة يعد جريمة يعاقب عليها القانون بقسوة، وقد زُجَ بالمئات من الشباب في السجون ليقضوا هناك سنينًا طويلة بجريمة انتمائهم للحزب الشيوعي، أو بسبب التعاطف معه.

كنتُ مراهقًا جميل الطلعة، وكنتُ مقدامًا عندما التحقتُ بذلك الحزب منذ الطفولة، أما كيف تمَّ ذلك فلا تسألوا؛ ربما بالوراثة، ولكن ما حدث لي ذات يوم في شارع الرشيد كان قصة تستحق السرد...

وهنا صاح الأطفال جميعًا : احكها لنا عمو مأمون

كان الوضع السياسي متوترًا جدًا في العراق وفي المنطقة العربية، نتيجة للعدوان الثلاثي على مصر، وكما تعرفون فإن مصر معشوقة العرب، وبسبب سياسة الأحلاف التي سارت عليها الحكومة العراقية..

كان مأمون يلقي بتلك العبارات الكبيرة الرنانة دون الالتفات إلى إدراك الأطفال لمعناها ويستمر في حديثه:

كُلفتُ من قبل المنظمة التي كنت عضوًا نشطًا فيها، بالذهاب إلى وكر الحزب الواقع في الأكواخ التي خلف السدة، في منطقة باب المعظم، وجلب المنشورات من هناك وإيصالها إلى رفيق آخر من منظمة حزبية أخرى في منطقة (البتاويين) والقريبة من الباب الشرقي في الجهة المعاكسة تمامًا لباب المعظم والتي كانت

محلة شبه مقفلة للجالية اليهودية التي عاشت في بغداد قبل تسفيرها في بداية الخمسينيات.

ذهبت ظهرًا إلى هناك بملابس العمال العتيقة كي لا ألفت النظر، وأخذت رزمة كبيرة من تلك المنشورات من ذلك الوكر بعد أن وصلته بطريقة بوليسية مثل استخدامي لكلمة السر وكانت عبارة غناء بيتين من (الأبو ذيه) معين فأجاب بكلمة هذا ياهو؟ وغيرها من التعليمات.. أخفيت المنشورات بكيس من قماش أبيض؛ اسوَّد لونه من كثرة الاستعمال، وقصدت به باب المعظم سيرًا على الأقدام، ومن هناك ركبت في باص [٢٤] المصلحة رقم واحد المتجه إلى الباب الشرقي.

كان باص الأمانة ذا طابقين، وهي باصات دخلت الخدمة في شوارع بغداد في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، فوجدت مكانًا خاليًا فيه بالصدفة في الطابق الأسفل وفي المقاعد الأخيرة تمامًا. سار بنا الباص في شارع الرشيد من بدايته، مجتازًا وزارة الدفاع ومحلة الميدان، فاكتظّ الباص بالركاب، وراح يدفع بعضهم بعضًا، فرحت أحتضن الكيس وأشدّه على صدري بقوة خشية أن يسقط أو ينفتح.

قبل أن نجتاز منطقة "حافظ القاضي" التي تقسم شارع الرشيد إلى قسمين، أقفل سائق السيارة الأبواب، وأعلن أنه متجه إلى مركز شرطة (العبخانة) القريب بسبب وجود سارق في الباص، فقد حدثت سرقة في الباص بلغ عنها الآن.

جرت العادة في مثل تلك الحالات أن يتجه الباص مباشرة إلى أقرب مركز للشرطة دون أن يتوقف أو ينزل منه أحد، وهناك في مركز الشرطة يتم تفتيش الركاب بشكل دقيق بحثا عن المسروقات والسارق.

كانت دقائق مرعبة تلك التي مررت بها عند مركز شرطة العبخانة.... وقفت مجموعة من الشرطة أمام باب السيارة وصعد شرطيان إلى الباص واتجها رأسًا إلى الطابق العلوي، وبعد أن فتشاه جيدًا أنزلا ركابه من الباص بريئين من أية تهمة ليترك لهم الخيار في انتظار نتائج التفتيش، أو أن يستقلوا الباص القادم بذات التذاكر التي قطعوها، أو يبحثوا عن واسطة نقل أخرى.

أخذت المقاعد الأمامية في الطابق الأسفل تفرغ من ركابها الواحد بعد الآخر بعد تفتيش ركابها، وأخذ رجال الشرطة يقتربون مني. ترى ماذا سأفعل بكيس المنشورات الذي أحمله معي، والركاب كل واحد منهم يراقب صاحبه فلا مجال لرمي الرزمة والتي تحولت في حضني إلى كيس من جمر.

اقترب الخطر مني كثيرًا ولم يظهر السارق بعد، ويئست من الخلاص من تلك الورطة... أخلي الباص من الركاب عدا أربعة فقط، وكنت أنا من بينهم فقد كنت أشغل آخر مقعد في السيارة، وقبل أن يصلوا إلى ما أحمل من مناشير والتي كانت سترسلني إلى السجن لو ضُبطت معي، أمسكوا بشاب كان يجلس أمامي مباشرة فتنفست الصعداء، ولكن ما كان

يحيرني هو كيف وصل هذا السارق إلى هذا المقعد، والذي لم يكن خاليًا من قبل.

أنزلوا السارق من الباص بعنف، وعاد من عاد إليه من الركاب، وانطلق الباص بنا من جديد حتى وصلنا إلى الباب الشرقي، ومن هناك سرتُ راجلاً إلى المكان المطلوب وتخلصتُ من ذلك العبء وكأن جبلاً قد انزاح من على كتفي.

تلك مغامرة من مغامرات مأمون العديدة في أيام شبابه رواها لنا، واعدًا بسرد روايةٍ جديدة من مغامراته في أيام العهد الملكي والتي تخص سفره إلى سجن نقرة السلمان وسط الصحراء إذا كانت الدولةُ في المرة القادمةِ بهذ الطعم الشهي...

ولكن الأيام لم تسمح لمأمون بأن يفي بوعده.

كان مأمون يتابع أخبار العراق أولاً بأول عن طريق الفضائيات، ويواكب استعدادات أمريكا والغرب للإطاحةِ بنظام صدام حسين. عندما حلّتْ ساعةُ الصفر، وأرسلت أمريكا جيوشها لغزو العراق، استبشر مأمون خيرًا في البدايةِ، وراح يعد نفسه للعودة إلى العراق بعد (تحريره)، بعكسي تمامًا، فأنا أؤمن بأن الحروب مهما كانت أهدافها لا تجلب الخير للشعوب، ولكنني في الحقيقةِ حلمتُ بلقاءات حميمةٍ مع من بقي من أهلي وأصدقائي في العراق الذين انقطعت أخبارهم عني منذ أن تركتُ العراق.

وبعد أن حلّت الكارثة بالعراق، وراح الغزو (الثالث عشر) يدمّر البنية التحتية في بغداد على كل الأصعدة، وبعد أن تفككت الدولة وراح كل طامع بمنصب أو ثروة من العراقيين الذين تركوا العراق يعد العدة للعودة إليه، كان هدف مأمون في العودة أكثر رومانسية، فكان يريد أن يعود إلى الوطن ليساهم في بنائه.

توالت الأحداث، لا بل قل المصائب، مسرعة على بلدنا، وكنا هنا في بليز نراقب نهب كنوز العراق المادية والثقافية والتراثية من قِبَل كل من استطاع الوصول إليها قبل غيره وأحيانًا تحت حماية قوات الاحتلال، وكنا نرى مدى وحشية القوات الغازية وكذب ادعاءاتها بإحلال الديمقراطية والعدل في العراق، والظاهر إن تلك الإدعاءات كانت حجة فقط، فلأمريكا وحليفاتها أجندة أخرى غير تحرير الشعب العراقي من حكم دكتاتوري شديد القسوة.

تبدلت وجهة نظر مأمون بخصوص العودة لبناء العراق بعد أن أصبح كل شيء فيه يُدمَّر بشكل منهجي، ووصل القتل والخطف إلى مستويات لم نسمع بها أو نقرأ عنها من قبل.

راح مأمون هذه المرة يحضّر نفسه ذهنيًا، وحتى ماديًا، للعودة إلى العراق من أجل أن يأتي بزوجة له من هناك، فيكوّن أسرة معها هنا في بليز ويقضي ما تبقى من سنينه فيها.

لم أعارضه أنا هذه المرة، بل بالعكس شجعته على أن يقوم بهذه الخطوة المهمة في حياته بعد أن اقتنعت بأن مأمون لن يقترن بغير امرأة عراقية.

مضت بضعة سنين على غزو الجيوش الأمريكية للعراق ووضع العراق يزداد سوءًا، وخاصة وضعه الأمني، لذا راح مأمون يؤجل مشروع سفره إلى هناك في كل مرة، إلى أن وصل إلى قناعة بأن لا فائدة من التأجيل فالأمور لن تتحسن على المدى المنظور والسنين تجري مسرعة، كان ذلك عام ٢٠٠٦ وقد مضى على الاحتلال ثلاثة أعوام.

كان مأمون لا يزال يحتفظ بجواز سفره العراقي على الرغم من أن دولة بليز قد أعطته جواز سفر بليزي.
أخذ مأمون معه مبلغا جيدًا من النقود بعد أن أخذنا قرضا من أحد المصارف لقاء ضمان ورشة العمل، مضيفًا على قيمة الرهن المبالغ التي كان قد وفرها لهذا الغرض، وسافر إلى الأردن بجواز سفره البليزي، ودخل العراق عن طريق طريبيل (المركز الحدودي العراقي مع الأردن) بجواز سفر عراقي.

فرح مأمون بعد أن شعر أنه يطأ تراب وطنه من جديد دون أن يتخلى عن عراقيته.

وصل صاحبنا بغداد منهكًا تمامًا، فالطريق من طريبيل وإلى بغداد كان مجازفة خطرة بعد أن انتشرت عليه فرق القتل

والخطف، ناهيك عن رداءة الطريق المتروك من دون صيانة أو خدمات، فالرعب قد وجد له موقعًا بارزًا في قلب كل المسافرين، ومن بينهم مأمون طبعًا، ففي كل نقطة تفتيش، كانت العيون تتفحصهم، وتتفحص أوراق سفرهم.

من محاسن الصدف أن مأمون القنطار ـ وهذا هو اسمه في جواز سفره ـ لا يكشف عن تبعيته المذهبية، فلم يعترضه أحد لا من أتباع (علي) ولا من أتباع (عمر).

وصل مأمون بغداد أخيرًا، فنزل ليلته الأولى في فندق متواضع من فنادقها، متجنبًا الفنادق الفخمة، والتي كانت مستهدفة دائمًا من قبل الإرهابيين.

في اليوم التالي راح مأمون يسير ماشيًا على الأقدام في شوارع بغداد المهدمة بحثا عن بيت خالته في مدينة الثورة.

مدينة الثورة هذه هي مجمع سكني هائل يمتد موازيًا لرصافة بغداد خلف سدة ناظم باشا وأغلب سكانه من الفلاحين المهاجرين من جنوب العراق بنيت أغلب مجمعاته السكنية في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم قائد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ليسكن فيها المهاجرين إلى مدينة بغداد بدلاً من الصرائف (بيوت عشوائية من القصب).

كان كل شيء قد أصبح جديدًا على مأمون، فوجد الناس في بغداد غير الناس الذين تركهم منذ سنين قليلة، والشوارع

مقطعة بكتل من الأسمنت ذكرَّته برياضة قفز الموانع التي كان يمارسها بإبداع، وأصوات مولدات الكهرباء تصمُّ الأذن، والغازات المنبعثة منها حوَّلت هواء بغداد إلى سُمٍّ قاتل فكان الهواء يدخل إلى الرئة ثقيلاً كالرصاص.. أما منظر جنود الاحتلال وهم يمشطون الشوارع بسيارات (الهمر) كاد أن يسبب له أزمة قلبية، أيعقل أن يضحي مأمون بشبابه في الكفاح من أجل وطن حُرٍّ وشعب سعيد فيجد ترابه يداس تحت أقدام جنود (المارينز) والناس تبحث في النفايات عن كسرة خبز؟

اهتدى مأمون أخيرًا إلى بيت خالته، وكانت فرحة أهله بلقائه غامرة. لم يستطيع البقاء في بغداد كثيرًا، فالحياة اليومية فيها غدت شاقة حتى على مناضل كادح مخضرم مثل مأمون، فلا مياه نقية ولا كهرباء ولا أمن، والوجوه كلها عابسة مكفهرة كوجوه ذئاب جائعة.

هذا ما دوَّنه مأمون في دفتر ملاحظاته الذي اشتريته أنا له خصيصًا في بليز ليدوِّن فيه تحركاته يومًا بيوم.

عاد مأمون مع ابن خالته على دراجة نارية صغيرة، إلى الفندق الذي نزل فيه، وهناك أخذ أغراضه البسيطة، ودفع ما بذمته لصاحب الفندق بالدولار ـ والذي أصبح عملة متداولة في بغداد يفضلها الناس على الدينار العراقي، بعد أن فقد الأخير قيمته منذ أمد بعيد ـ وعاد إلى بيت خالته على تلك الدراجة ومعه حقيبته بعد أن وضعها على كتفه طيلة الطريق.

في بيت خالته، راح مأمون يشرح لخالته هدفه من زيارته لبغداد في هذه الظروف الصعبة، ويأمل في أن تساعده في إيجاد ابنة حلال تناسبه، ومستعدة للسفر معه إلى بليز.

أكثر النساء في بغداد كُنَّ يطمحن بالحصول على فرصة كهذه، فقد وصلت نسبة الأرامل فقط إلى عشرة في المائة ناهيك عن عزوبة الباقيات من (الماجدات)... فشاع الخبر في المنطقة، وكثرت زيارات النساء لبيت خالة مأمون؛ حتى الفتيات صغيرات السن رحن يفتعل الحجة لزيارة ذلك البيت، فغدا البيت وكأنه مزار السيد (إدريس) الذي كانت الفتيات يقصدنه في أيام بغداد الخوالي ليرزقهن بحبيب القلب.

لم ترق تلك الحالة لمأمون، فقد كان يريد امرأة راجحة العقل تناسبه سنًا وهو الذي يعيش في ستينيات عمره.

مأمون في الأصل من العشائر القريبة من بغداد، لكنهم سكنوا مدينة الثورة منذ زمن بعيد، ولم يلحظ أحد من سكان الحي بأنهم من عشائر سُنية المذهب، وكانت له علاقات قربى كثيرة في مدينة المحمودية، فأشارت عليه خالته أن ترافقه إلى هناك، ومن هناك حتمًا سيختار شريكة له، فالنساء هناك ملتزمات بالعادات القديمة المحافظة، وهناك الكثير ممن يعرف أسرة مأمون وخالته، وهم أسرة فوق الشبهات.

استأجر مأمون سيارة تاكسي ودفع مبلغًا كبيرًا لسائقها على أن يسوقها مأمون بنفسه فلم يرغب بأن يتقيد بأوقات ذهاب وإياب، أراد أن يكون حرًا في تحركه، وأخذ خالته معه في رحلة شاقة إلى جنوب بغداد.

الطريق إلى منطقة اليوسفية القريبة من مدينة المحمودية، والتي لا تبعد عن بغداد إلا بضع عشرات من الكيلومترات كانت مليئة بقوات الاحتلال، فكانت عملية المرور فيها شاقة جدًا وخطرة في ذات الوقت... أراد مأمون أن يعود أدراجه فالمخاطرة كبيرة، ولكنه قد سلك أغلب الطريق ولم يستطع التراجع والعودة خالي الوفاض.

بعد أن وصلا مدينة اليوسفية ذهب هو وخالته من هناك مباشرة إلى بيت تعرفه الخالة جيدًا، ويعود لواحد من أقربائهم في تلك المدينة، فرحَّب أهل الدار كثيرًا بمأمون وخالته.

سكنت تلك الدار أكثر من عائلة بسبب الظروف الأمنية الجديدة، وفيها بضع نساء مناسبات لمأمون. وصادف أن كانت في ضيافة أهل الدار امرأة مع بنتيها من سكان المحمودية، فغمزت له خالته كأنها تقول: أنت مرزوق يا ابن أختي، ففرصة الخيار كبيرة وسط هذا الجمع الجميل من بنات العشائر.

بينما كان مأمون جالسًا مع أصحاب الدار يحدثهم عن بليز والحياة فيها، وكيف أنها جنة من جنان الله على الأرض، وخالة

مأمون جالسة مع النساء تقارن وتفاضل بينهن قبل أن تفاتح واحدة منهن، أو تخبر ربة الدار بهدف الزيارة، وراحت تطنب في مدح ابن أختها الوحيد، وبالحياة المرفهة التي يعيشها في الخارج، وهي في ذروة حديثها عن بليز والنساء يستمعن لحديثها فاغرات الفم ينتظرن النتيجة بلهفة، في هذه الأثناء هجمت على الدار مجموعة من قوات المارينز الأمريكية مكونة من ثمانية جنود مدججين بالسلاح، وراحت تقتل الرجال في الغرفة المجاورة دونما سبب وبشكل عشوائي ومأمون من بينهم، ولم يجد مأمون الوقت الكافي ليريهم جواز سفره الأجنبي، فقد سبقته رصاصات من رشاش ثقيل تركته سابحًا في دمه، ثم هجم الجنود على غرفة النساء والفتيات المجتمعات فيها وهن غارقات في بحر أحلام حديث مأمون ودولة بليز.

لقد صعقن من ذلك الهجوم غير المتوقع، وهناك قام هؤلاء الجنود الثمانية، وهم من فرقة المارينز كما قلت باغتصاب النساء والفتيات جميعًا في تلك الغرفة دون استثناء، وبعد أن اغتصبوا جميع النساء الموجودات هناك قتلوهن جميعًا حتى العجائز، ثم أرسلوا إشارة إلى قواتهم الجوية التي تغطي المنطقة محددين إحداثيات الدار، وطلبوا قصفها كما جرت العادة كونها وكرًا للقاعدة، ولم تمضي دقائق حتى راحت الصواريخ المنطلقة من الطائرة تدك الدار، وتحيلها إلى أثر بعد عين لتمحي آثار الجريمة التي ارتكبها الجنود الأمريكان في مدينة اليوسفية.

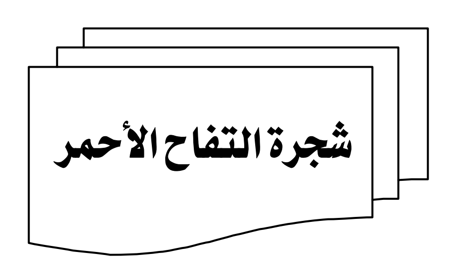
هكذا انتهت حياة مأمون، وتناثرت حكايات نضاله مع أشلاء جسده الذي لم يعثر عليها أحد بعد أن افترشت البساتين المجاورة نتيجة القصف الصواريخي الهائل.

بعد أن طال غياب مأمون عنا، وانقطعت أخباره، كلفت أخي المقيم في بغداد في البحث عنه، وبعد جهود أسطورية استطاع أخي أن يصل إلى بيت خالة مأمون في مدينة الثورة، وهناك راحوا يحدثونه كيف أن مأمون قد قتل مع خالته في جنوب بغداد على أثر غارة أمريكية على بعض أوكار القاعدة، ولم يعلموا حقيقة جريمة الجنود الأمريكان هناك لأن آثار الجريمة قد انمحت بعد القصف تمامًا.

بعد أن علمت بالخبر اتفقت مع البنك ـ كوني وكيلا رسميًا لمأمون هنا في بليز ـ على بيع الورشة وسداد القرض، وهذا ما تمَّ فعلا، وبعد أن أخذت المبالغ الموظفة من قبلي في الورشة، زاد منها مبلغ جيد أرسلته إلى أقارب مأمون ليبنوا له قبرًا في بغداد، حتى ولو لم يسكنه جسده الطاهر كما كان يحلم.

ظلت هناك ثلاث سيارات من نوع الفولكس واكن القديمة والتي أصلحها مأمون قبل سفره، فأخذت واحدة منها لتبقى ذكرى من صديق عزيز أحببته بكل إخلاص، وبعت الباقيات بأول سعر عرض عليَّ.

قبل أيام من كتابتي لقصة مأمون هذه، سمعت خبرًا على إحدى الفضائيات يشير إلى تقرير صادر من إحدى المنظمات الدولية، إلى جريمة اليوسفية بالتفصيل، وكيف أن الجنود الأمريكان الثمانية بعد أن قتلوا الرجال واغتصبوا النساء قاموا بدك الدار كما مرَّ ذكره... وتلك واحدة من جرائم الجنود الأمريكان الكثيرة في العراق.



كلُ حيٍّ على كوكبنا العجيب هذا يسعى لأن يعيش سنينا أكثر، ولا أدري ما الحكمة وراء هذا التشبث اللحوح بالحياة!

من هو السعيد على الأرض؟ هل الذي يعيش أيامًا أكثر، أم الذي يتمتع بمباهج الحياة أكثر؟، وما هي مباهج الحياة؟

لماذا يكون البقاء وطول العمر دائمًا على حساب السعادة؟

كيف وزعت أعمار الأحياء على أرضنا هذه؟

لا تقل لي (رب العالمين) هو من قام بذلك، فلا أظنه عشوائيًا إلى هذا الحدَ!

وفق أي نظام تمَّ هذا التباين؟

لماذا تموت الزهور وهي في ربيع عمرها ويظل السنديان يتمتع بضوء الشمس لمئات السنين؟... لماذا يعيش الفيل مثلاً أكثر من الأسد؟.. ولماذا تعمر السلحفاة مئات السنين بينما تموت الضفدعة على عجل؟

ما هو المهم في حياتنا، هل هي الفرحة، المتعة، العطاء، أم العيش لسنين أكثر؟

كل تلك الأسئلة التي لم أجد لها جوابًا شافيًا، وقد توالت على فكري المشغول دائمًا بأمور أخرى، وأنا أتطلع إلى شجرة تفاح عجوز امتدَّ بها العمر طويلاً.

لا أكشف لكم سِرًّا لو قلت إن كل تلك الأسئلة بعيدة عن طريقتي بالتفكير، ولم أجد فيها غير فلسفة فارغة، فأنا رجل عملي أحاول أن أقضي ما قسم لي من أيام بطريقة سهلة وممتعة ودون تعقيد.

كنت أجد حرارة الصيف عقوبة، أو قل ضريبة ندفعها على مضض لنعيش بعدها أشهر الخريف الرائع بسعادة في ظلال غابات النخيل، في عراق غدا مقفرًا اليوم حتى من القصب.

هنا في صقيع دول الشمال، أرقب الشمس كما يرقب الصائم هلال العيد. تأتي الشمس عندنا على استحياء وتقضي نهارها بدلال بين غيوم لتلعب معنا لعبة التخفي (الختيَلة)، فتنقضي أيام الصيف ونحن لا نشعر بها، أو قل نعيشها بخوف ووجل من أن تنقضي فيأتي هادم اللذات صاحب الدار ذلك الثلج الذي يلف كل شيء من حولنا وكأنه كفن المندائي (كفن المندائي يخاط من الخام الأبيض ويكون طويلاً).

هنا أقضي الساعات المشمسة متجولاً على دراجتي الهوائية بين الحقول والغابات التي تحيط بمدينتنا من كل صوب. وما أجمل

الطبيعة هنا في الدنمارك عندما تكون الشمس مشرقة جنة لا تنقصها حور العين ولا أنهار الخمر.

على بعد بضعة كيلومترات من مدينة (نيفو) شمال الدنمارك يمتد بساط أصفر من زهور الخردل كل صيف فيظل البصر يمتد داخل هذا اللون الساحر إلى ما لا نهاية، تتطفل الزهور البرية الملونة على ذلك البساط الساحر لتحيله إلى سجادة فارسية لم يُنسج مثلها بعد.

تقع كنيسة المدينة ذات الطراز المعماري المميز في نهاية حقل الخردل هذا، وبالقرب منها يجري جدول صغير، والجداول هنا صغيرة جدًا، فالدنمارك أرض منبسطة لا جبال فيها فتظل الريح تلعب كما تشاء دون رادع.

لي سنين عدة أعيش هنا في وطني الجديد الدنمارك وأنا أحاول معرفة لون تربة هذا الوطن، ولكن دون جدوى، فالأرض مغطاة بحشائش خضراء مزرقة الخضرة صيفًا، وبيضاء كالحليب شتاء بعد أن يغطيها الثلج تمامًا.

في طريقي وأنا من نزهتي اليومية إلى الكنيسة، والتي لم أدخلها يوما عدا مرة واحدة، وكنت أسأل فيها عن طرق الدفن هنا، فعلى المرء أن يؤمّن (مستقبله!) وكانت النتيجة أن القبور هنا مؤجرة، فإذا لم يدفع أحفادك الأجور المقررة يزاح قبرك فلا يبقى لك أثر بعدها!.

كنتُ قد جعلتُ من تلك الكنيسة الحدَّ الفاصل في تجوالي اليومي، وبعد أن أجتاز حظيرة صغيرة للأغنام لم أرَ لها مالكًا أو حارسًا ولا مرة، ولم أعرف أين تعيش تلك الأغنام في الشتاء... وأنا في سيري في شارع الكنيسة المؤدي إلى البحر، تصادفني شجرة تفاحٍ بريٍّ قديمة؛ وكأنها أيقونة فرَّتْ من الكنيسة لكثر التراتيل، أو كأنها عاشت في مكانها هذا منذ الأزل.. جذع شجرة التفاح هذه تحول إلى أضلاع تغور بينها أكفُّ اليد؛ وهو كل ما تبقى من الشجرة، فأوراقها باتت تشبه شعر رأسي الأصلع، تفرقت هنا وهناك بين أغصان لم تمتد طويلاً، أمَّا ثمارها فكانت تأتي فرادا ولا تتركها الديدان سالمة، وقبل أن تنضج تكون قد نخرتها من كل الجهات، ولكن على الرغم من ذلك يظل طعم تلك الثمار لذيذًا مميزًا لا تجد مثيلاً له في السوق مطلقًا.

عندما يحلُّ الشتاء وتتساقط أوراق تلك الشجرة تبدو وكأنها كومة من الحطب، وفي كل مرة أتخيلها قد ماتت، ولكنها مع أول نسائم الصيف تعاود من جديد لتزهر وتثمر متصورة أن الأسواق سوف تقفر من التفاح إذا هي لم تعطِ ثمارها.

كنت أجلس أحيانًا ساعات أمامها، أتأملها وأتأمل حالي، وأقارن بين حالها وحالي. أوراق تلك الشجرة رغم قلتها أكثر من شعر رأسي بدون جدال، وروحي غدت عجفاء كضلوع تلك الشجرة،

وحتى الثمر نحاول كلانا الجودة بها بإصرار وكأن الحياة ستتوقف بدون عطائنا الشحيح.

في السنين الأخيرة هرمتْ شجرتي إلى الحدِّ الذي أصبحتْ أخشى عليها من الريح أن تقتلعها، فتركتُ عادة زيارتها السنويّة كي لا أصاب بخيبة أمل حينما لا أجدها، فقد ربطتُ مصيري بها وكأنها قدوتي في الكفاح والتشبث بالحياة!.

كان ذلك منذ سنين عدة، والآن لم تعد مفاصلي تقوى على ركوب الدراجة واكتفيتُ بالتطلع من خلال النافذة إلى زهور الخردل، ولا أدري ماذا حلَّ اليوم برفيقة دربي شجرة التفاح الأحمر...

أملي أنها لا تزال صامدة هناك.



مسلسل تركي

كان الرجال في زماننا ـ أقصد زمان الخير،عندما كانت الحياة بسيطة وسهلة في سبعينيات القرن الماضي ـ كانوا يقضون سهرات رمضان في لعب (المحيبس) في المقاهي، فتقام لتلك اللعبة مباريات بين محلات بغداد الشعبية يغلب عليها طابع الجد والتحدي، وتقضي النساء الأمسيات بالتزاور والقبولات.

أما المتدينون فيقضون ليالي رمضان بصلاة التراويح في بعض الجوامع، أو في قراءة الذكر الحكيم؛ وهم قلة بالمقارنة مع لاعبي المحيبس.

تطور الزمن، فغزتنا الفضائيات ببرامجها الترفيهية، والتي أختص بها شهر رمضان من دون شهور السنة! وخاصة برامج فوازير الفنانة الرائعة (نيللي)، وهناك المسلسلات المكسيكية وحتى الصينية، ثم المسلسلات المصرية والسورية، فغدا الناس يشاهدون تلك المسلسلات بإلحاح، فأصبح مسلسل (حافات المياه) الصيني و(كواده لوبي) المكسيكي وحتى الخليجية مثل خالتي قماشة وغيرها، أصبحت هاجس المشاهدين، فتراهم ينتظرون تلك

المسلسلات بفارغ الصبر، حتى أنهم راحوا ينتظرون رمضان من أجلها. فأفرغ الشهر من حرمته، وتحول إلى طقس كل حكمته تحمُّل الجوع لبضع ساعات، أما الوقت الأكثر فكان الصائم (والمفطر) يقضيه أمام جهاز التلفاز، يتنقل من مسلسل إلى آخر، فأصبح الناس يترقبون المسلسلات التلفزيونية أكثر من ترقب ليلة القدر!.

انتبه الأتراك مؤخرًا إلى اهتمامنا نحن العرب بتلك المسلسلات، بعد أن انتعش اقتصاد تركيا، فحولوها إلى تجارة رابحة، وراحوا ينتجون مسلسلاتهم بمواصفات متطورة تنافس الموجود على الساحة.

وُظِّفت في المسلسلات التركية أجمل الفتيات، وأجمل الشباب الأتراك، وهم كُثر والحمد لله، و(دُبلجت) تلك المسلسلات؛ أي تُرجمت نُطقًا إلى العربية بلهجة مميزة شدَّت المتفرج العربي إلى الشاشة الصغيرة، وأصبح هوس العرب بأبطال تلك المسلسلات لا يُصدَّق، إلى حدٍّ أن السُيَّاح العرب عند زياراتهم لإسطنبول باتوا يهتمون ببيت (مهند ولميس) - بطلا واحد من هذه المسلسلات- أكثر من اهتمامهم بمسجد (آيا صوفيا) و(قصر طوبقابي) الذي يعد أهم متحف في إسطنبول والذي فيه من التراث الإسلامي ما يثير الانتباه، مثل مرازيب الكعبة والغلاف الذهبي للحجر الأسود، وسيف الرسول وسيوف الخلفاء الراشدين وسيف خالد ابن الوليد وغيرها من التحف...

وهكذا لم تعد أيام رمضان تكفي لمشاهدة المسلسل إلى نهايته بعد أن امتدت بعض تلك المسلسلات إلى مائة وخمسين حلقة وأكثر.

كنت أعيش في بغداد حينها في بحبوحة، فبيتنا كان يغفو تحت أشجار الكمثرى فتحجب عنه أشعة الشمس المحرقة صيفًا، أما في الشتاء فتتجرد تلك الأشجار بكرم من أوراقها لتفسح الطريق أمام خيوط الشمس الدافئة فتدخل النوافذ بكسل يشعرك بخدر لذيذ. وحديقة الدار كبيرة جدًا، فكانت ملاذًا لنا في أيام الحر. كنت أفضّل المذاكرة في الرُكن القصيّ من تلك الحديقة حيث يفوح عطر أزهار الكردينيا، وهكذا كانت حياتنا تجري حلوة وسهلة.

لم يكن لأبي همًا في تلك الأيام غير العمل في محل صياغة الذهب في سوق الدورة، فكان هذا المحل مصدر رزقه، ومكان يلتقي به مع شرائح مختلفة من الناس، وبعد ركود العمل بسبب الحرب مع إيران والحصار الذي فرضته أمريكا على العراق؛ تحوّل المحل إلى مكان يلتقي فيه أبي بأصدقائه الصاغة المجاورين كأنه مقهى، فيقضونها لعبًا في الطاولي أو الدومنو.
أمّا أمي فلا همّ لها غير شراء البط و(البشوش) وطبخها، وزيارة جاراتها...

وهكذا مرّت الأيام دون أن نفطن لها.

أنهيت دراسة الأدب الإنجليزي في كلية الآداب بتفوق رغم ظروف الحرب الصعبة... بعد أن طال أمد الحرب مع الجارة اللدودة تغيرت الحياة، وأخذت تلك الحرب تقطف أرواح الشباب بالدرجة الأساسية من كلا البلدين بنهم.. ثم راحت الصواريخ تتساقط علينا كحمم من الموت والدمار في كل يوم.

كان السفر إلى خارج العراق مغلقًا في تلك الفترة، فلم نستطع تدبر أمر الهروب من ذلك الجحيم، ثم ضاق الخناق علينا بعد أن راحت دوريات الجيش الشعبي تلاحقنا أنا وأبي من مكان إلى آخر... لا أعرف كيف انتهى كل شيء معنا على خير، هل عند أبي (خرزة) تحفظه من الشرور؟ أم أننا كنا محظوظين فقط؟

عندما توقفت الحرب، وفتح السفر؛ باع أبي محل الصياغة في الدورة، وصفى ما فيه من موجودات منتظرًا أول فرصة للمغادرة، ثم جاءت تلك الفرصة قبل أن يغزو (الرئيس) دولة الكويت الجارة اللدودة الأخرى.

لم يكن حينها مسموح لنا نحن الشباب بالسفر، ولكن غالبية المكلفين بإصدار جوازات السفر هم من ضباط الشرطة المرتشين، وهكذا حصلت على جواز سفر بعد أن دفع أبي مبلغًا باهظا جدا، أو ربما كانت تلك كرامة من كرامات (الخرزة) التي يحتفظ بها أبي في جيبه دائمًا والتي ظلت سرًا لم أكتشفه إلى اليوم.

بعد ضياعٍ امتدّ لأشهر في عَمّان؛ استطعنا الوصول إلى ألمانيا بجوازات سفر بولونية مزورة مزّقناها حال وصولنا إلى مطار دزيلدورف الألماني.

لم يبع أبي الدار التي قضينا فيها أجمل أيام حياتنا خوفا من فشل الوصول إلى أوربا، فيعود عندها إلى العراق خالي الوفاض، فترك الدار كطوق نجاة في حالة الفشل، وأسكن فيها واحدًا من أقاربه كحارس، وكتب عقدًا معه على هذا الأساس، فمن عادة الوالد حفظه اللّه أخذ الحذر والحيطة في كل تصرفاته الكبيرة منها والصغيرة.

لم تكن حياتنا في ألمانيا سهلة في البداية فاللغة الألمانية كانت صعبة عليّ، وكارثية على أبي وأمي (العجائز)، والعمل بالاختصاص غير متوفر، على الرغم من أن بلدية المدينة تكفلت بسكننا وعيشنا، إلا أنني لم أتقبل تلك الطريقة في العيش، فرحتُ أبحث عن أي عمل، ووجدت بالفعل عملاً في إحدى الأسواق المركزية الكبرى (مترو) والقريبة من بيتنا.

العمل في تلك الأسواق كان متعبًا حقًا (حمالة) ولكنني لم أنقطع عنه، وبذلتُ ما في استطاعتي من جهد، فحزتُ على ثقة إدارة السوق، ورغم التعب كنت مسرورًا بعملي فإنني لا أعيش عالة على أحد.

أمي وأبي أحيلا على التقاعد بسبب بلوغهما السن التقاعدية، فعشت معهم في شقة واحدة عيشة كفاف لم نعتدها من قبل في بغداد.

بعد أن سقط نظام الحكم في العراق على يد القوات الأمريكية الغازية ٢٠٠٣، رجع أبي إلى بغداد، وباع أملاكه هناك، ومنها بيتنا الذي أحبه جدًا، وعاد إلى ألمانيا برأسمال جيد بعد أن ارتفعت أسعار العقارات بشكلٍ غير طبيعي.

فتح أبي محلاً لبيع الذهب والمجوهرات باسمي في أحد الشوارع التجارية في مدينة كولن الألمانية، وكنت ذا خبرة في هذا المضمار، فقد كنت أساعده في محله في الدورة بعد دوام الكلية، وتلك صنعة نتوارثها نحن المندائيون أبًا عن جد.

نجحت في عملي الجديد هنا رغم اختلاف الظروف. كنت - وكما ذكرت قد درست الأدب الإنجليزي في كلية الآداب في بغداد، وتخرجت منها بتفوق، وقد ساعدني إتقاني للغة الإنجليزية في تعلم الألمانية كثيرًا.

ازدهر العمل في المحل الجديد، بعد أن أدخلت في تجارتي المصوغات الشرقية، والتي وجدت لها سوقا رائجة بين الجاليات التركية والصومالية والعربية بشكل خاص، وهكذا وجدت نفسي ناجحًا في مجتمعي الجديد، وحققت جزءًا من طموحي فيه، ولم يبقى لي إلا أن أكوّن أسرة وأعيش لأجلها.

تعرفتُ على فتاة ألمانية جميلة جدًا، فأحببتها بصدق وقد بادلتني هي الحب أيضًا حتى إننا عشنا سوية ردحًا من الزمن بسعادة، وكانت هي يدي اليمنى في إدارة عملي، إلا أن أمي أصرّتْ على أن أرتبط بزوجة عراقية مندائية لا غير وبدون نقاش، فالمندائيون يرون أن من يرتبط بشريك من خارج المندائية يكون قد خرج من دينهم! لذا لم تتنازل أمي عن ذلك الشرط مهما كلفها الأمر، فكانت متصلبة جدًا في موقفها من علاقتي بـ(أنيتا)، وقد أيّدها أبي في ذلك، فلم أستطع مخالفتهما، فكان علي أن أضَّحي بسعادتي مع (أنيتا)، وهذا هو اسم الفتاة التي أحببتها.

لم تستوعب أنيتا هذا الموقف العنصري المخالف لأبسط حقوق الإنسان فتركت العمل معي في المحل وهجرتني، ولم ألتقي بها بعد ذلك.

لم تحب أمي طريقة حياة الألمانيات، ولم تقتنع بأسلوب عيشهن المتحرر جدًا، وفوق كل ذلك لا تعرف المرأة الألمانية شيئًا عن الطبخ العراقي، ولا حتى تذوق الأطباق العراقية، ولا زالت حفظها اللّه تحنُّ إلى مرقة البط، والبشوش، والذي يعيش بحرية في البحيرات هنا عيني عينك بدون رقيب متحديًا الجميع... هكذا فوتت الفرصة عليّ بالارتباط بالمرأة التي أحببتها بصدق.

راحت أمي تزين لي العيش مع فتاة عراقية، تنتقيها هي بمعرفتها، وتعرف أصلها وفصلها، وحتى أنها قد رشحت إحداهن لذلك.

كانت أمي معجبة جدًا بـ(هند) تلك الفتاة التي تربطها بعائلتنا روابط قربى بعيدة، وكانت أمي على معرفة جيدة بأم هند جارتها ذات يوم.

أخذت أمي تصف لي هند بأجمل الأوصاف، مضفية عليها أرقَّ الخصال، وكيف لا، وهي التي كان جمالها يلفت النظر عندما كانت شابة صغيرة فكيف أصبحت الآن يا ترى بعد ان اكتملت أنوثتها؟

عندما حصلت على الجنسية الألمانية، سافرت إلى بغداد للتعرف على هند حسب رغبة أمي بعد أن اقتنعت برأيها فالحياة ليست حبًا فقط!.

وجدت في سفري فرصة لرؤية بغداد من جديد والعودة إلى ملاعب الصبا، وهناك حتمًا سأجد فتيات غير هند إن لم ترق لي هند.

لم يكن في تلك الأيام طيران مباشر إلى بغداد، فمطار بغداد لم يكن مُهيئًا لذلك بعد، فسافرت إلى دمشق ومنها إلى بغداد بواسطة السيارة، وكانت الطريق إلى بغداد متعبة وخطرة.

لقد صُدمت عندما شاهدت الدمار الذي حلَّ ببغداد نتيجة الاحتلال الأمريكي، وفاجأتني تلك الحملة السلفية التي لم نعرفها من قبل بعد أن أمسكت الأحزاب الإسلامية الرجعية بزمام السلطة، فكانت خيبة أمل منذ البداية.

بعد أن التقيت بهند في بيت أهلها أعجبت بها، وبادلتني هي ذات الشعور، ولكل منا دوافعه، فأنا وجدت فيها فتاة مناسبة، وعلى قدر جيد من الجمال والثقافة، وفوق هذا تميزت بخفة الدم وسرعة البديهة.

عاشت هند المدللة دلوعة أهلها بطلة قصتنا في بغداد، في منطقة الدورة التي كان أغلب سكانها من المسيحيين، ولم يكن التزمت الديني حينها كما هو اليوم يكتم الأنفاس وكأن القيامة ستقوم غدًا، فكانت تقضي أيام شبابها الأولى مع صويحباتها في مرح ونشاط، والضحكة لا تفارق وجهها الصبوح.

تعد هند من الجميلات بين أقرانها، فجسمها الرشيق الفارع الطول يذكّر بممثلات السينما، وكان حلمها أن تعيش الحياة الأوربية بكل مباهجها وكما تشاهدها في الأفلام. فظل هذا الحلم يعيش مع هند حتى جاءت ساعة اليقظة.

تركت هند كلية الإدارة والاقتصاد وهي في الصف المنتهي في فرع المحاسبة، بعد أن جئتها من جنة الغرب خاطبًا. وافقت الفتاة بالعرض الذي هبط عليها من السماء فورًا، بدون تردد أو جدال رغم فارق السن بيننا، فأنا أكبرها سِنًا بعشر سنين على الأقل، وكان شرطها الوحيد، هو أن يتم العرس بسرعة، فالفتاة لم تعد تحتمل الحملة السلفية التي راحت تتحكم برقاب الناس في العراق وأجبرتها هي وغيرها من بنات منطقتها على ارتداء الحجاب.

أصرّتْ هند وبعناد بأن تسافر معي إلى مدينتي (كولن) في ألمانيا فورًا بعد أن وصفتُ لهم المدينة وكنيستها التي تعد هي الأجمل في كل أوربا، وكم هي رائعة أمسيات كولن عندما تقضيها على ضفاف نهر الراين، وطلبتْ أن تتم هناك كل الإجراءات الرسمية دونما حاجة إلى الانتظار.

تدخلت أم هند هنا، وانفردت بابنتها في المطبخ. وبَّختها بشدة على تسرعها وقلة صبرها، موضحة لها أن هناك أعراف، وطرق قانونية يجب أن تأخذ مجراها، وقبل كل شيء يجب أن تتأكد هي من عواطفها تجاه الرجل الغريب الذي ستعيش معه في بلد غريب بعيد عن بيت أبيها قبل أن ترمي نفسها عليه وبهذه العجالة وكأنها سقط متاع.

لم تتنازل البنت عن قرارها بالارتباط بي، فرضخت الأم أمام إصرار أبنتها ووافقت على تلك الزيجة بشرط أن يُعقد القران في المحكمة المختصة هنا في بغداد، ولا أدخل بعروسي إلا بعد أن تتم كل الموافقات الرسمية على سفرها وعندها ستلتحق بي وهناك يتم زفافها، وعلى حد قول الأم: "لماذا العجلة؟ فالأيام طويلة أمامكم، وقارورة العسل لن تنضب طوال عمركم الذي أدعو أن يمتد إلى أرذله بإذن اللّه".

وهكذا تمَّ الاتفاق وعقد المهر، ولبست هند (شَبْكتها كما يقولون في مصر) والتي كنت قد جلبها معي من متجرنا في ألمانيا، وكانت عبارة عن طقم من الذهب المرصع بالماس، فكان محطً

إعجاب الجميع، أما صاحباتها اللواتي حضرنَ حفلة عقد القران ببهجة، فكنَّ يقرصنها عسى أن تصيبهنَّ عدوى النصيب الذي وفقت فيه.

وقع اختياري على هند بالحقيقة دون أن أرى غيرها من فتياتنا في بغداد، على الرغم من الدعوات التي انهالت عليَّ من كل صوب، فأنا بطبيعتي خجول، وأتردد كثيرًا من ولوج تلك العلاقات المفتعلة. ثم أن أسرة هند محترمة وتحظى برضا أمي. وجدت في الدوران على العائلات التي أوصتني بها أمي من أجل معاينة بناتهم حرجًا شديدًا، فاكتفيت بنصيبي مع هند وفرحت به.

أما هند فوجدت فيَّ ربما رجل مقبول الشكل، والأهم من أي شيء آخر إنني أحمل الجنسية ألمانية، فأنا إذًا طوق النجاة المنتظر للخلاص من الكبت الذي غدت كل الفتيات؛ وهند بالخصوص تعاني منه بقوة سواء في الكلية، وفي الشارع، وحتى في البيت، وهذه الزيجة ستحقق لها حتمًا حلمها في العيش في بلد الأحلام أوربا، ثم إنني لست عاطلاً هناك، بل أملك متجرًا لبيع الحُلي والمجوهرات.

بعد أن تمَّ عقد قراننا، وأصبحت هند زوجتي بحكم الوثيقة المصدَّقة في المحكمة والمترجمة إلى اللغة الألمانية، وعليها ختم القائم بأعمال السفارة الألمانية ووزارة الخارجية العراقية، وحسب الاتفاق؛ لم نقم عُرسنا في بغداد وتركت قارورة العسل ورحت أجمع الهدايا والحاجيات التي أوصتني عليها الوالدة، والتي لم يك

بوسعي شرائها لولا مساعدة أم هند فكيف لي أن أعرف أين تباع (علكة البستج) أو (الطين خاوة وأمشاط الخشب) جمعت كل ما استطعت جمعه من الهدايا التي تذكرنا ببغداد التي ضاعت وسافرت إلى ألمانيا، وهناك أعددت كل الترتيبات اللازمة فحصلت على الموافقات المطلوبة لالتحاق زوجتي بي، وأخذ الموافقات اللازمة لدخولها الأراضي الألمانية، وأرسلتها إلى العراق بواسطة البريد المضمون.

التحقت هند بنا في ألمانيا بعد شهرين من الانتظار غير المطاق، فسافرت هي أولاً إلى الأردن بصحبة أبيها حسب قانون (المحرم) فالمرأة بنظر القانون عورة وشيطان لا تُترك وحدها دون رقيب يحرَّم عليها الزواج منه مثل الأخ والأب والعم والخال، إلخ.. وهناك أوصلها أبوها إلى الطائرة المتجهة إلى مطار (كولن بون) وقبَّلها مودِّعًا بعد أن أوصاها بأن تخلص لزوجها ولا تقطع رسائلها عن أهلها، وعاد هو إلى بغداد حزينًا على فراق ابنته الوحيدة، وكانت هند خائفة ومترددة فتلك هي المرة الأولى التي تركب فيها طائرة.

وبإصرار من أمي ذهبنا نحن إلى مطار كولن بون القريب من مدينتنا ننتظر عروسنا قبل موعد وصول الطائرة بساعة على الأقل. رافقتني أمي وقد اعتبرت مسألة استقبال العروس واجبًا لا مجال للنقاش فيه، وأصرَّ أبي شبه المقعد بدوره على مرافقتنا أيضًا ليكون باستقبال العروس، وباقات الورد تثقل أحضاننا.

وصلت عروسنا سالمة وتحقق لها أن السفر بواسطة الطائرة آمن ولا خوف منه، واستقبلتها أمي بالزغاريد مما لفت أنظار المتواجدين في المطار، وسبَّب ذلك لي حرجًا لم أعرف كيف أداريه، المهم أحاطت باقات الورد العروس من كل جانب، وبعد القُبل الحارة من الجميع، حملت حقيبة هند التي رافقتها من بغداد والتي ملأتها على ما أظن بكل ما يذكِّرها بماضيها، وببلد اسمه العراق، من صور وهدايا.

عدت إلى البيت بعروسي فرِحًا مبتهجًا، وكانت هي مندهشة طول الوقت من كل ما ترى: من خضرة الطبيعة التي تمتد على طول الطريق الموصلة إلى المدينة، من الطُرق السريعة المعبَّدة جيدًا، ومن العمارات الشاهقة التي لاحت لها عند اقترابنا من المدينة، حتى أنها قد تسمرت إلى نافذة السيارة، فلم تترك التطلع من نافذة السيارة طيلة المشوار الذي امتد لأقل من ساعة، ولم تعر أثناء تلك الساعة اهتمامًا لأحد، وكأنها وحدها في تلك السيارة الفخمة.

كنا جميعًا فرحين بهند وبتلك الزيجة، فقد مهَّدت طريق السعادة للجميع، فالعجائز راحوا يحلمون بمداعبة الأحفاد، ورحت أنا أتخيل السعادة والحب الذي ينتظرني وقوارير العسل التي ستنسكب على رأسي مع تلك الفتاة الحلوة المرحة؛ كما قالت أم هند. أمَّا هند فكانت منبهرة بكل ما يحيط بها، واستغرقت في حُلم مُتعة التسوق، واللهو، والمراقص.

أخذتُ عروسي في رحلة عسل على ظهر باخرة تشق نهر الراين على أنغام الموسيقى، ولكن رحلة العرس انتهت بسرعة، وهي التي أعددتُ لها بعناية لتكون أيامًا لا تُنسى، فعدتُ بقارورة العسل إلى بيتنا، وتركتها مع أمي لأبدأ حياة الكفاح والعمل من جديد.

بعد الانتهاء من المقابلات الضرورية في بلدية المدينة، وبعد أن تعرَّفتْ هند على المدينة ومتاجرها، لم يبقَ لها سوى أن ترافقني في الذهاب إلى العمل، فأصبحتْ تذهب معي كل يوم، حتى جاء وقت التحاقها بمدرسة اللغة، وهناك وجدتْ جوًّا جديدًا أعادها إلى أيام الكلية، ولكنها لم تترك مرافقتي إلى المحل، فكانت في البداية تجد متعة كبيرة وهي تعرض كل تلك المجوهرات الجميلة في أماكن عرضها، ثم راحت تنظِّم حسابات المحل وتدير شؤونه بمهارة، فتفرغتُ أنا إلى تجديد بضاعتنا ورحتُ أبحث عن مصادر جديدة، لها فتحسن دخلنا بشكل ملحوظ، والفضل في ذلك يعود لهند.

أخذ النجاح يشدُّ زوجتي الشابة إلى المحل أكثر فأكثر، فكانت تتجه رأسًا إلى المحل بعد ساعات الدرس، لتظل معي حتى نقفله ونعود سوية إلى البيت فرحين مستبشرين بمستقبل سعيد.

كنا نتناول طعام الغداء أنا وهند سوية في أحد المطاعم التركية القريبة من المحل. قبل أن نكتشف المطعم الإيراني وطبق (الشبزي) الشهي الذي يقدمه، والذي راح يتكرَّر كل

يوم حسب رغبة هند، وهكذا أخذت الحياة تسير بسهولة وفرح لم تكن هند تتوقعه.

مرَّت الأيام تجري بسرعة ويُسر مع هند دون مشاكل، وخاصة بعد أن تخلصت هي من عُقدة اللغة.

أنجبت هند طفلنا الأول في مستشفى المدينة، وكان ولدًا معافىً كبير الوزن، أصرَّت أمي على أنه يشبهني كثيرًا رغم أن معالمه لم تتبين بعد، وكان الطفل فرحة ما بعدها فرحة لنا جميعًا، وخاصة لأمي، والتي راحت تربيه، وكأنها هي التي ولدته، وكانت هند تريد أن تسميه على اسم أبيها (ياسين) لكي يحفظ ذكراه أولاً، ولأنه يُكتب بالألمانية (جايسن) وهو اسم معروف في أوربا.. وكان لها ما أرادت.

توقفت هند عن الذهاب إلى العمل في المتجر بعد الولادة، وظلت حبيسة البيت، لا تخرج منه إلا ما ندر، وخاصة أن الشتاء قارص هذا العام وراحت الثلوج تتساقط بكثافة، والتي لم نعتدها بعد.

انتهت سنة حضانة الطفل، وعادت هند إلى نشاطها الدائب، وبهمة أكثر هذه المرة، ولكنها اعتادت أثناء جلوسها في البيت على متابعة المسلسلات التي تبثها الفضائيات العربية، وخاصة التركية منها. أعجبت هند كثيرًا بالمسلسل التركي (العشق الممنوع) وراحت تقلّد بطلة المسلسل اللعوب (سمر) بكل حركاتها، وملابسها، وهامت حُبًا ببطل المسلسل (مهند) حتى

أنها راحت تعامل زبائن المحل الأتراك معاملة متميزة لفرط حبها في الحياة التركية التي عرضها ذلك المسلسل.

الظاهر أن كل أسباب السعادة التي وفرّتها لزوجتي لم تكن كافية، وظلت تشعر أن شيئًا ينقصها، عزيت ذلك إلى فراقها لأهلها وحنينها لأيام بغداد، وتلك مرحلة مررنا بها جميعنا.

شعرت أن زوجتي لم تتمكن من حُبِّي بعمق كما كنت أشتهي. رغم أنها لم تُظهر ذلك، ولم تقصِّر بواجباتها الزوجية، فكانت تكنُّ لي ولأسرتنا كل الاحترام، ولكن هل يكفي الرجل الاحترام فقط؟ تمنيت لو كانت تحبني بعنف كما فعلت (أنيتا).

أصبحت حياة العمل والالتزام بمواعيده صعبة على هند، فكانت تحرمها من شغف النوم حتى الظهر، الذي اعتادت عليه بعد الولادة، ولم تجد حياتها صاخبة ومليئة بالمغامرات كالتي عاشتها بطلة المسلسل (سمر) فراح الملل يدخل روح هند ببطء، ويجعلها تبحث عن نقلة تغيِّر روتين الحياة وتبدِّل حياتها.

كنت أستغرب كيف أن (هند) لم تكن كثيرة التعلق بطفلها، وكأنها ولدته خصيصًا لأمي التي غدت تسهر عليه وتعتني به ليل نهار، حتى أن رضاعة الطفل اعتمدت على حليب الصيدليات بعد أن رفضت هند إرضاع طفلها بحجة أن الرضاعة تشوِّه نهديها الحريصة عليهما كثيرًا.

شروط شركات التأمين صارمة على محلات بيع الذهب والمجوهرات هنا وفي أوربا كلها، وقد قامت هند بدراستها جيدًا قبل أن نوقّع عليها مع شركة تأمين كبرى في المدينة لنضمن مستقبلنا ونعيش بطمأنينة من أن يُسرق محلنا. من أهم الشروط التي اشترطتها شركة التأمين أن تكون خزائن المحل بمواصفات معينة تحدّدها الشركة، وأن نقوم بجمع كل المجوهرات يوميًا ونودعها في تلك الخزائن قبل إغلاق المحل، ولا يجوز ترك المجوهرات في معارضها إلا نسبة قليلة منها، والتي لا تمثل قيمة مادية كبيرة، وكانت تلك مهمة شاقة نقوم بها كل يوم بملل، ويقع عبؤها الأكبر بالدرجة الأولى على هند.

كنتُ أترك هند لوحدها في المحل أحيانًا لأنصرف أنا إلى تجهيز المحل ببضاعة جديدة. سافرت ذات يوم إلى مدينة أمستردام عاصمة هولندا بعد أن علمتُ أن أحد أصدقائنا الصاغة قد جلب بضاعة كبيرة ومميزة من دبي، فتركتُ المحل وسافرتُ إلى هناك. بقيتْ هند وحدها في المحل كالعادة. وقد اعتادت هي على ذلك وكل شيء كان طبيعي يومها.

بعد أيام من سفرتي، وفي يوم عودتي، وعندما حان وقت إغلاق المحل؛ تركتْ هند كل المعروضات في مكانها على غير ما جرت عليه العادة، وأغلقتْ المحل على عجل لتلحق مشاهدة الحلقة الأخيرة لمسلسل (العشق الممنوع).

عدتُ مساءً، وكان كل شيء طبيعيًا عدى إصرار هند بأن يسكت الجميع للتركيز على المسلسل.

في اليوم التالي ذهبنا أنا وهي سويةً إلى المحل، معنا بضاعتنا الجديدة والتي فرحتْ بها هند كثيرًا، فسوف تدرُّ علينا تلك البضاعةُ أرباحًا جيدة. فتحنا المحل فوجدنا أن اللصوص اقتحموا المحل بعد أن فتحوا طريقًا إليه من الجهةِ الخلفيةِ، ولم يبقوا فيه قطعةً واحدة من بضاعتنا القديمةِ التي هي كل ما نملك، لقد سرقوا كل شيء؛ حتى المسائل الصغيرة التي كانت تزيِّن المحل...

كاد يغمى عليَّ، لولا شعوري بأن شركةَ التأمين ستعوِّضني، وعنَّفتُ زوجتي بشدة لإهمالها وتركها الحلي دون أن تودعها في الخزانةِ كالعادة، ورحنا نتدارس كيفيةَ معالجةِ الأمر وما هي القوائم التي سنقدِّمها إلى شركةِ التأمين، وبأي مبالغ تعويض سوف نطالب بها، وأيةَ فواتير سنبرزها لشركةِ التأمين.

اتصلتُ فورا بالشرطةِ، وأخبرتهم عن السرقةِ، فجاءت سيارات الشرطةِ إلى المحل بسرعةِ تفوق التصور، وكأنهم كانوا يقفون مسبقًا بجواره.

بدأ تحقيق الشرطةِ الروتيني بالسؤال عن كميةِ المصوغات، وأنواعها وأثمانها، وأين كانت عند سرقتها، وعندما سألوا (هند) عن سبب تركها البضاعةَ خارج الخزنةِ كما يجب، راحت

تتحجج بأن صداعًا حادًا ألمَّ بها، فلم تستطع القيام بتلك المهمة...
لم يكن جواب هند مقنعًا لذلك المحقق المتمرس، والذي درس علم النفس قبل أن يدرس القانون. طلب المحقق منها أن تعطيه هاتفها النقّال، وكان طلبه مفاجئًا لها فمدّتْ يدها بطريقة لا إرادية إلى حقيبتها، وأخرجت هاتفها النقال وأعطته إليه.
أخذ المحقق الهاتف وراح يعبث بأزراره، وعلامات الجدّ بادية على محياه، وهنا أمر المحقق الحرس الذين معه أن يقتادوا (هند) إلى سيارة الشرطة، ولم يستمع لاعتراضاتها واعتراضاتي، وكنتُ ممتعضًا جدًا من هذا التصرف غير المبرر.

ذهبنا جميعًا إلى قسم الشرطة، وهناك أودعوا (هند) في إحدى الزنزانات، وأنا في حالة ذهول، فلم أرَ مبررًا واحدًا لهذا التصرف الغريب، ولم أجد تفسيرًا مقنعًا له غير أنه سلوك عنصري لرجل الشرطة يمارسه هذا علينا بتعسف.

لم أستطع العودة إلى البيت طبعًا، بل بقيتُ في قسم البوليس مستعطفًا المحقق تارة، وتارة طالبًا منه تفسيرًا مقنعًا لمثل هذا الإجراء، ولكن المحقق لم يتعاطف معي وأمرني بالذهاب إلى البيت، وفي الغد سوف يظهر التفسير المقنع لهذا التصرف.
لم أستسلم طبعًا لأوامر البوليس، ورحتُ أصرخ على طريقة العراقيين الانفعالية، مطالبًا بإطلاق سراح زوجتي لتعود إلى طفلها، ولكن رجال البوليس أبعدوني خارجًا بالقوة.

ذهبتُ إلى أحد المحاميين الذين أعرفهم وشرحتُ له الوضع، ثم وكَّلته بمتابعة القضية، والعمل على إطلاق سراح زوجتي حالاً، فلابد أن هناك سوء فهم، ورفع دعوى على المحقق لتصرفه العنصري غير المبرر إطلاقا.

عدتُ إلى البيت وأخبرتُ أهلي بما جرى، فنزل الخبر عليهم كالصاعقة، فراحت أمي تحتضن الطفل النائم أصلاً لتطمئن عليه، وراح أبي يقلّب الأمر معي مستعرضًا تجاربه التي لا تنفع هنا طبعًا.

قضيتُ ليلتي ساهرًا حتى ساعات الفجر، وفي أول الصباح اتصلتُ بالمحامي مستفسرًا عمَّا آلت إليه جهوده، فهو لم يتصل بي كما وعد، وبقيتُ أنتظر مكالمته إلى وقت متأخر من الليل.

لم يستطع المحامي عمل شيء بالأمس، وقد حاول إطلاق سراح هند بكفالة دون جدوى مبرّرًا ذلك بأن الموضوع أكثر تعقيدًا، ولكنه سيتم ذلك اليوم، وأنه في طريقه إلى قاضي التحقيق الآن.

انتهى التحقيق بسرعة فائقة، وكُشفت أبعاد الجريمة وتمَّ إلقاء القبض على العصابة التي سطت على المحل وسرقت الموجودات.

عندما أخذ المحقق هاتف هند النقال وجد فيه مكالمات ورسائل مع أحد الشباب المراقبين أصلاً من قبل الشرطة، وأن هناك

اتصالات وتنسيق مسبق بين هند وبين ذلك الشاب منذ وقت سابق للحادثة، وعندما واجه المحقق (هند) بالحقيقة اعترفت بكل شيء وراحت تجهش بالبكاء.

المسألة وما فيها، وحسب اعتراف هند، أن متابعتها للمسلسلات التركية أثرَّت على سلوكها، فعشقت بطل مسلسل (العشق الممنوع) وتأثرت بشخصية البطلة، وصادف أن جاءنا إلى المحل أثناء غيابي شاب تركي يشبه (مهند) اسمه مراد، وراح يغازل (هند) بطريقة أثارت عواطفها فسايرته بتلك اللعبة في البداية هازلة، حتى تطورت العلاقة بينهما إلى الحد الذي أصبح يختلي بها أثناء غيابي عن المحل، ثم غدت العلاقة بينهم حميمة جدًا فأسلمت نفسها إليه، وأصبحت هند تكرهني أنا زوجها بعد أن رسم لها مراد مستقبلاً كله إثارة، فتعاونت معه على سرقة المحل، والهرب معه ومع ابنها إلى تركيا للعيش هناك بكل تلك الأموال بسعادة وحب حقيقي؛ كما تخيلت.

خطَّطت هند مع عشيقها مراد لعملية السطو في تلك الليلة التي سافرت فيها، وكان دورها أن تترك المجوهرات في مكانها بشكل طبيعي، والباقي سوف يدبِّره عشيقها بمعرفته.
تدبَّر مراد الباقي فعلاً، وبشكل متقن، بالتعاون مع شاب تركي آخر ورجل من المهاجرين الرومانيين يقود مجموعة الشباب هذه في السطو على المخازن.

بعد القبض على مراد اعترف هذا على شريكيه ووصف خطة السطو بكل تفاصيلها، وتمَّ القبض على باقي أفراد العصابة، وأقروا بالذنب، ولكن لم تعثر الشرطة على البضاعة التي هُرِّبت على عجل لدولة أخرى.

كشف الجاني علاقته بهند وادَّعى بأنه يحبها فعلاً وكان ينوي الهرب معها إلى تركيا ليتزوجها هناك.

أحيلت القضية إلى المحكمة وتمَّ الحكم على أفراد العصابة بأحكام لا تتجاوز السنتين، وحُكم على هند لمدة ستة أشهر تُحرَم بعدها من تمديد إقامتها في البلد وترحل. كما أصدر القاضي حُكمًا بأن تكون حضانة الطفل من مسؤوليتي خلال مدة سجن هند.

عندما غادرت هند بغداد لم يبقَ لوالديها ما يشدهما إلى البقاء، فتركا العراق وسافرا إلى سوريا بأمل توطينهما في دولة قريبة من ابنتهما.. دام انتظارهما لأكثر من ستة عشر شهرًا قضياها في ناحية جرمانا الفقيرة والقريبة من دمشق. ولم أبخل عليهما بالدعم المادي المتواصل طيلة تلك الأشهر الصعبة.

حصلت العائلة على توطين في مدينة درزدن شرق ألمانيا، وكان وصولهما في فترة الأحداث، وقد سمعا بعضًا منها، ولكنهما كانا مقيدين بقوانين البلد فلم يستطيعا مغادرة المدينة ليلتقيا بابنتهما.

بعد ستة أشهر أخلي سبيل هند على أن لا تجدَّد لها الإقامة في البلد إلا بعد طلب خطي مني وتعهد بحسن سلوكها.

عادت هند إلى بيتنا بعد أن قضت مدة حكمها محطمة المعنويات تمامًا، فقد اختفت البسمة من على وجهها وغارت عيونها من كثرة البكاء والندم.

انكبَّتْ على قدميّ أمي وراحت تقبلهما طالبة المغفرة، ولكن أمي طردتها، ورفضتها أنا كذلك وبحزم، فلما يئستْ من مساعدتنا انكبَّتْ على يدي أبي تقبلهما ودموعها تنهمر، فرَقَّ لها أبي ولم يرضى لنا أن نتسبب في طردها من البلد. فأعطيتها ذلك التعهد الشخصي بالبقاء على شرط أن تظل موافقتي تلك شكلية، ولا يترتب عليها أي التزام وتذهب هي للعيش مع أهلها في دريزدن.

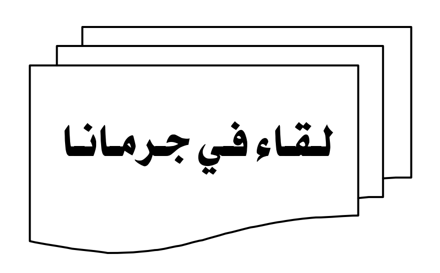
احتضنتْ هند ابنها، وراحت تقبله بجنون، وكأنها سوف لن تراه ثانية، والغريب أنها لم تأخذه معها إلى درزدن، بل تركته عند جدته، فلم يحظَ الطفل منها إلا بتلك القُبل، وبوعد غير محدد للعودة إليه ثانية.

عادت (قارورة العسل) إلى بيت أبيها من جديد ولكن في ألمانيا هذه المرة لتعيش معهما منطوية على نفسها تندب خيبتها وتشتم كل ما هو تركي.

أصبحتُ أنا خالي الوفاض تمامًا، فشركة التأمين رفضتْ تعويضي عن السرقة، فبعتُ المحل والبضاعة التي معي وسدَّدتُ بثمنها بعض الديون، ورجعتُ أعمل كالسابق (حمَّال) في أسواق (مترو) القريبة من بيتنا، أشقى لأسدد باقي الديون، فجُلُّ بضعتنا من ذهب ومجوهرات كانت لتجَّار الجملة، ولم يغطي ثمن بيع المحل إلا جزءًا يسيرًا من تلك الديون، ولم يخفِّف عني مصيبتي سوى ضحكات ابني (جايسن)، والمسلسلات السورية التي كانت تذكِّرني بمصيبتي أيضًا.

لم تحتمل هند نظرات أبيها المعاتبة ولا دموع أمها، فلم تمضي مدة طويلة على رحيلها، حتى سمعنا بأنها رمت بنفسها تحت القطار الذاهب إلى برلين والذي كان يسير بسرعة كبيرة، وهو خارج من المدينة ففارقت الحياة على الفور، لتنهي بذلك حلمها الوردي، حلم العيش الباذخ في أوربا.

حزنًا كثيرًا لموتها، ولكن القطار قد مرَّ.



كانت دمشق في خمسينيات القرن الماضي مدينة صغيرة عامرة تحيطها الجنان من كل جانب، ونهر (بردا) يتدفق وسطها صاخبًا بماء عذب فرات بلا كلل. كنت شاهدًا على ذلك عندما زرتها أول مرة قبل أكثر من خمسين عامًا.

زرت دمشق اليوم فلم أستطع أن أتعرف عليها، ورحت أبحث عن معالمها القديمة بصبر وأتساءل بشيء من اللجاجة والبلاهة أحيانًا: أين هذا؟، وأين ذاك؟، وكأن الزمن قد توقف من أجلي.

أين دمشق الصغيرة الجميلة الوادعة؟ لم أجد (بردا) لم أجد ساحة (المرجة) كما تركتها، وأول ما تبدَّل فيها الناس، لقد كانوا أكثر حميمية، لقد كانوا شاميين حقيقيين يفرحك لقاؤهم، وكنت أشعر حينها وكأنني أسير في بغداد في شارع الرشيد... اليوم تجد ساحة المرجة وقد غصَّت بعربات الهواتف النقالة وماسحيّ الأحذية، وبشر يتزاحمون بالسير ولا تسمع كلمة آسف واعتذار عندما يلكزك أحدهم بكوعه من دون مبالاة.

لا، حتمًا إنها ليست دمشق، فأين "الترام" الذي كان يوصلني من وسط البلد إلى منطقة (المهاجرين)؟

وأين تلك الملاهي الليلية وأصوات الدربَكة التي كانت تحيط بسوق الحميدية فتحول لياليها إلى فرح مستمر.

أذكر حينها وكنتُ أسيرُ في سوق الحميدية المزدحم بروَّاده، وكنتُ قد دخلتُ في أحد المخازن للفُرجة على البضاعة المعروضة فيه، وكانت عبارة عن أقمشة وملابس رجالية فاخرة، وإذا بموجة من الناس تدلف إلى المحل ويُغلق باب المحل على رواده، لم أفطن حينها إلى أن كوكب الشرق أم كلثوم كانت وسط هذا الحشد، فقد أدخلت إلى المحل وأغلق بابه حماية لها من جموع المعجبين الذين أحاطوا بها من كل جانب، وكادت تنسحق بين تلك الزحمة. كم كنتُ سعيدًا ومحظوظا في التطلع إليها عن قرب. بعد مضي وقت قليل جاءت مجموعة من رجال الدرك فأمَّنوا الطريق لسيدة الغناء العربي، وراحت عيوننا تودعها بإعجاب وفرحة.

سكنتُ في محلة "القصاع" عند زيارتي لدمشق أول مرة، وكان " القصاع" حيًا شعبيًا فقيرًا تنتهي دمشق عند حدوده، وبعدها يطالعك ريف دمشق البهيج. وإذا بالقصاع اليوم هو وسط المدينة، لا بل يخيّل إلي إنه الآن هو المدينة، فأسواقه عامرة بكل ما هو جديد وعلى آخر طراز "مودة"، والمقاهي فيه وكأنها رُكنٌ من أركان الشانزلزيه الباريسية.

قصر الكلام.. لم أتعرف على محلة القصاع التي عشت فيها ستة أشهر قبل خمسين عامًا، إلا بعد أن أقسم لي سائق التاكسي إنها هي، وكاد يدفع بي خارجًا من باب سيارته التي وسعت ساقاي الطويلتين بصعوبة لكثرة ما أتعبته بأسئلتي الساذجة!.

كنت شابًا طموحًا في خمسينيات القرن الماضي،وكنت شعلة من التحدي، والشام حينها كانت مهددة بغزو تركي (عام ١٩٥٧). تشكلت إثر تلك الأزمة وحدات من الجيش الشعبي كسندٍ للجيش النظامي السوري للدفاع عن دمشق قوامها المتطوعون السوريون، وشباب من الدول العربية. كان قائد الجيش آنذاك اللواء عفيف البزري رحمه الله، فانخرطت في صفوف الجيش الشعبي متطوعًا مع مجموعة من الشباب العراقيين، ورُحنا نتدرب على السلاح فوق جبل قاسيون.

ماذا جرى لكِ أيتها الحبيبة دمشق؟.. كيف سمحتِ لهم بأن يعبثوا بمعالمك هكذا وأنتِ الأبية أبدًا؟.

جئت دمشق هذه المرة في رحلة من نوعٍ آخر أبحث عن أهلي المندائيين بين أحيائها الفقيرة، والذين هجروا بيوتهم العامرة في بغداد والبصرة وغيرها قسرًا، ليُدفنوا أحياءً في حيٍّ فقيرٍ شُيِّد بعيدًا عن دمشق ليعيش الناس فيه بُعزلة، وكأنها وسيلة لحجر الفقر في مكان بعيد عن المدينة كي لا تنتشر عدواه!.

نحن المندائيون قِلة قليلة من بقايا بشر عاشوا على أرض عراق كان اسمه يومًا ما (مسباتاميا) أو بلاد ما بين النهرين أو أرض السواد وغيرها من المسميات التي لم نرَ أيًا منها على أرض الواقع.

راح بعض الباحثين يسموننا بقايا السومريين الذين أنشأوا أول حضارة في التاريخ البشري، والحقيقة لم نعرف من نحن فقد تماهينا مع عراقنا منذ الأزل.

تعايشنا نحن المندائيون مع كافة شعوب الاحتلال التي تعاقبت على تلك الأرض الخصبة المعطاءة. وكنا نجد لنا دائمًا مكانًا محترمًا في ظل حُكم المحتل، وآخر الذين استقروا على تلك الأرض هم عرب الجزيرة وعلى شكل هجرات كان آخرها يوم مصرّت البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

كنا ولا نزال أناسًا مسالمين تقتصر طموحاتنا على العيش بكرامة وممارسة شعائرنا الدينية بحرية.. أما ما هي شعائرنا فتلك قصة طويلة ملخصها إننا موحدون مغالون بالتوحيد على طريقتنا الخاصة... وكنا حرفيين متميزين، وأقول وبتواضع أصحاب علم ومعرفة، ولا غرابة هنا فكلمة مندائي في اللغة الآرامية القديمة تعني معرفي. تبوأ بعض المتميزين من المندائيين مواقع علمية متقدمة على مدى تاريخ العراق وإلى اليوم، ففي كل مستشفى على أرض العراق ستجد طبيبًا مندائيًا، وفي كل جامعة ومدرسة أستاذًا منهم، حتى أن أول جامعة عراقية في

العصر الحديث كان يرأسها مندائي، ولا علاقة لنا بمن يقود الحكم.

كان الحرفيون منا يعيشون في أغلب قرى الجنوب المنتشرة على ضفاف الأنهار، حيث يحتاج مهاراتهم الفلاح وصائد السمك والنساء وغيرهم، فهم حدادون و نجارون وصاغة، وبعد أن تطورت الزراعة في البلد، وأدخلت فيها المكننة، لم تعد الحاجة إلى مهارات الحداد والنجار فأصبح أغلبنا صاغة مهرة للذهب والفضة، وهكذا هجرنا الريف ورحنا نسكن المدن الكبرى فكان معظم الصاغة في سوق الشابندر (خان جغان) من المندائيين بعد أن هاجر أو هُجِّر اليهود من العراق.

تجد اليوم معظم صاغة الذهب والفضة في شارع المستنصر (شارع النهر) هم من الصابئة المندائيين، وإبداعهم الفني في النقش بالمينة السوداء على الأواني الفضية، صار محل فخر للبلد وعلامة مميزة ينفرد بها العراق بين الدول الأخرى.

سقطت حكومات وجاءت حكومات و نحن بعيدون عن كل ذلك الصراع، حتى جاءت الأحزاب الإسلامية للسلطة مع قوات الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ لتحكم العراق فأصبحنا هدفا سهلاً بلا منازع لكل متعصب ديني شيعيًا كان أم سُنيًا، فتركنا بيوتنا ومحلاتنا العامرة وهربنا في ليلة ظلماء بعدما ساد العراق من جديد شعار (اسلم تسلم).

عندما وطأت قدمي مطار دمشق وأنا قادم من قلب أوربا؛ شعرت أن شيئا غير حميد قد طرأ على هذا البلد العزيز. فبعد أن حطت الطائرة بنا على أرض المطار وهنأ بعضنا البعض بسلامة الوصول حتى ان بعضهم راح يصفق وكأن قائد الطائرة قد حقق معجزة.. اندفعت بلهفة لأصل قبل غيري إلى هناك، إلى دمشق الحبيبة.

على كل قادم إلى الشام أن يحصل على موافقة لدخول البلد، وهذا متعارف عليه بين الدول. في العادة كان على أغلب المسافرين الحصول على الموافقة إلزامًا في بلدانهم من السفارة السورية في ذلك البلد، أما نحن مسافرو أوربا فقد اعتدنا السفر إلى أغلب بلدان العالم بدون ذلك الشرط، فموافقة الدخول نأخذها في مطار الدولة التي نحل فيها بعد دفع بعض الرسوم أحيانًا.

وصلت إلى قاعة الجوازات، وإذا بي أرى العديد من المسافرين قبلي قد اصطفوا في طوابير طويلة لدفع ذلك الرسم. الجموع غفيرة وقد أخذها التعب بعد سفر طويل، وجابي الرسوم فرد واحد، أما لماذا موظف واحد يقوم بذلك؟ فجواب ذلك عند الكبار. ولا يُترك هذا المسكين يؤدي عمله بحرية، وإنما تقذف له مجموعة جوازات سفر من الباب الخلفي بشكل متتابع لتنجز قبل غيرها بعد أن دفع أصحابها (إكراميات) والملتزمين بالصف وأغلبهم من الرعايا الأوربيين تأخذهم الدهشة والتذمر لتلك الممارسة التي لا يعرفونها في بلدانهم!.

غلبتني العزة بالنفس وشعرت بالهوان في بلدي الثاني سوريا أن أدفع رشوة رغم ضآلتها لتنجز معاملتي قبل غيري، وهكذا وقفتُ صابرًا في الصف الطويل... (أكلها حيل بيك ظل واقف، لك هسه وقت مبادئ؟) رحتُ أحدّث نفسي، ولكنني بقيتُ صامدًا إلى نهاية المشوار.

مسكين ذلك الموظف ترى الإرهاق في عينيه ولكنه ظلَّ مثابرًا، وكانت تعترضه صعوبة أخرى في أداء عمله..
لا أدري كيف يُحدَّد رسم الدخول هذا، فتارة تجده ثمانية وعشرين دولارًا، وأخرى سبعة وأربعين وإلى آخره، وحسب بلد القدوم، ولم أرَ رقمًا صحيحًا مثل عشرين أو خمسين دولارًا، وغيرها، فيضطر الموظف المسكين لحل هذا الإشكال بإيصال الرقم إلى أعلى رقم صحيح، وبذلك يترك المسافر في وضع لم يعتده في بلده أيضًا، هل يترك الدولارين والثلاثة دون رضاه أو دون أخذ موافقته أصلاً؟... وفي النتيجة يتركها المسافر على مضض وقد يعتبرها "جزية".. ولو ألقيت تلك الدولارات في صندوق لمساعدة الفقراء لكان الجميع راضيًا وربما زادوا عليها.
آلاف المسافرين يوميًا يمرون بهذا الروتين، والموظف المسكين يتحمل ذنب آلاف الدولارات الحرام التي تفيض في خزانته، لا يعرف كيف يتصرف بها وهو المؤمن الذي لا يقبل السحت!.

صبرتُ على هذا الصف الطويل وقلت أمري لله، ودفعت الجزية وقلت فرِجت، ولكن عند وقوفي بصف آخر أمام الموظف الذي

يختم موافقة الدخول الروتينية، وكان شابًا جديد العهد بالمهنة، وكان مزهوًا بلباسه العسكري، وإذا بذلك الشاب يلقي بجوازات سفرنا جانبًا لينشغل بأمور لا علاقة لها بعمله مثل الحديث مع موظف آخر، أو يتشاغل بأي شيء وكلنا بانتظار عطفه علينا.

بعد أن تنتهي معاناة ختم الباسبورت ونأخذ حقائبنا من الجمارك، ونخرج لنشم نسيم دمشق ولفحة حرٍّ نشتاق إليها، نذهب إلى التاكسي متلهفين في الوصول إلى دمشق، وهناك ترى الاستغلال بأبشع أشكاله، فلا يحق لأي سيارة تاكسي أن تصل إلى أرض المطار عدى السيارات التابعة لشركة واحدة ألله أعلم بأية طريقة استطاعت الحصول على ذلك الاحتكار ففرضت على المسافرين المضطرين أسعارًا أعلى من أية تعريفة في العالم!.

لا يهم كل شيء فداء لعيون الحبيب...
وأخيرًا وصلت إلى جرمانا.

سيكون كل شي صعب معي هذه المرة، فمن هي جرمانا هذه، وكيف دخلت على الخط في الحديث عن دمشق وعن مأساة مندائيي العراق؟

قبل أن نعيش تفاصيل مصيبتنا غير المبررة نحن المندائيون بحسب المفهوم والأعراف الإنسانية السائدة اليوم، أما بحساب

مفهوم الرب فهي امتحان، ولا أعرف متى ستنتهي امتحاناته معنا، وماذا سنتخرج بعدها؟!... دعونا نعيش أيامًا قليلة معًا هنا في جرمانا "وأش جايبك على المر غير الأمر منه!".

كان عنوان ابن عمي (فوزي) غير واضح بما فيه الكفاية ليصلني سائق التاكسي إلى مكانه، والظاهر أن كل العناوين ثبّتت هناك بشكل غريب، فلا رقم بناية أو رقم شقة، وإنما كل العناوين إما قرب المطعم الفلاني أو مقابل مخزن كذا.
لم يكن أبن عمي على علم بموعد زيارتي لهم، وإلا لجاء إلى المطار حتمًا، فنحن لم نلتقِ منذ سنين، ونحن أصدقاء طفولة يشتاق كلٌ منا لصاحبه.

عثرت على عنوان فوزي بصعوبة في شارع الروضة، فقد سكن في شقة تشبه القبو كثيرًا في "أرقى" أحياء جرمانا.
رحت أسائل نفسي مستغربًا وحزينًا: أحقًا أن فوزي ذلك المدلل يعيش في هذا القبو؟

تخرَّج فوزي من كلية الطب في بغداد بتفوق عام ٧٩ وبعد أن قضى سنة في مستشفيات القرى والأرياف كما جرت العادة في العراق، نشبت الحرب العراقية الإيرانية فجُنّد كضابط طبيب في صفوف الجيش، ثم أرسِل إلى جبهة القتال ليعمل طبيبًا جرّاحًا هناك. ولكون المصابين في البداية بالعشرات ثم بالمئات أو بالالآف، قضى فوزي هناك سنين الحرب الثمانية جرَّاح عظام ليل نهار، فاكتسب خبرة قلما اكتسبها غيره من الأطباء.

بعد أن سادت موجة المد الإسلامي المتطرف في عراق ما بعد الغزو الأمريكي، وراحت تضطهد الأقليات الدينية؛ والمندائيين بشكل خاص، هرب فوزي بعائلته من العراق وجاء إلى دمشق، ولكون أكثر الفارين إلى دمشق من المندائيين قد سكنوا ناحية جرمانا لرخص السكن فيها ولكون معظم سكانها من الأقليات الدينية. ذهب فوزي إليها وظل هناك ينتظر التوطين الذي راحت منظمات الأمم المتحدة تنظمه للاجئين الفارين من العراق.

حاول فوزي العمل بمستشفيات الشام الأهلية، وبخبرته الكبيرة اجتاز كل الامتحانات التي كانت تُطلب منه لغرض العمل في تلك المستشفيات كجراح عظام... وأخيرًا وجد فرصة عمل وفق اختصاصه في مستشفى خاص كبير في دمشق. أدخلوه هناك إلى غرفة العمليات ليمتحنوا قدراته، فكان متفوقا في تلك التجربة بكل المقاييس، وكيف لا يتفوق فوزي في جراحة العظام وهو الذي أبدع فيها طيلة سنوات الحرب؟
هنأته إدارة المستشفى على نجاحه وقبوله جراحًا فيها، وعندما استفسر عن مقدار الراتب الذي سيتقاضاه فيها لقاء عمله، أجابه مدير المستشفى بان راتبه سيكون مئة دولار، وهنا ظلَّ فوزي حائرًا، ترى هل سيتقاضى مئة دولار عن كل عملية يجريها، أم أنها راتبه اليومي أو الأسبوعي؟ وهنا تفاجأ صاحبنا عندما أخبره المدير أن المائة دولار هي راتبه الشهري، ظلَّ فوزي حائرًا غير مصدق

ما يسمع، أيعقل أن تكون المائة دولار راتبًا شهريًا؟ ولطبيب جراح متخصص!.

عاد إلى قبوه في جرمانا والخيبة تعصر قلبه، وظلَّ ينتظر رحمة التوطين متذكرًا أن العطر الذي كان يشتريه في بغداد يدفع مئة دولار ثمنًا له، فظل يعيش على مدخراته التي راحت تُستنزف بسرعة، وعلى حصص تموينية شحيحة توفرها المنظمة الدولية لدعم هؤلاء المنكوبين! أو تتبرع بها بعض الكنائس.

استأجرتُ شقة قريبة من بيت فوزي (أبو آدم) في وسط جرمانا لأظلَّ قريبًا منه.

لأحدِّثكم قليلاً عن جرمانا هذه :

حيٌّ شعبيٌّ فقير، بُني بشكل عشوائي خارج دمشق، لتسكنه الطبقات المسحوقة من الشعب. الشوارع في جرمانا تشابك بعضها ببعض، وقد ازدحمتْ فيها المحلات التجارية، وكذلك حاويات الأزبال الكبيرة والمكشوفة في العادة، والتي تفيض دائمًا بمحتوياتها النتنة الرائحة، وأكياس النايلون الممزقة تتطاير منها فتقطع الأرصفة فلا يجد الراجل فرصة في الاستمرار في مسيرته المتعبة فوق تلك الأرصفة التي هي في الأساس لم تكن على مستوى واحد، وكأنها سلالم مُدَّتْ على الأرض فيضطر الراجلُ إلى السير في الشوارع المزدحمة بالسيارات، والتي لم تكن لتراعي قوانين المرور، أو تبطل أبواق التنبيه عن صخبها، ولابد وأنت تسير

هناك تأتيك رشقة من المياه الآسنة، لتتلف ملابسك وتجبرك على مسح وجهك من رذاذها القذر.

زاد المندائيون في عشوائية هذا الحي عندما قصدوه للسكن فيه، كونه حيًا تسكنه أقليات دينية متسامحة، مثل المسيحيين والدروز.

بعد أن كثر الطلب على السكن في جرمانا لرخصه في الأساس، راح أصحاب الدور الصغيرة أصلاً إلى إعادة فرزها لبناء غُرف أكثر فيها، كي يستأجرها الوافدون الجدد، فأصبحت الخدمات العامة لا تسدُ حاجة السُكّان في ذلك الحي، فالماء الصالح للشرب غير موجود أساسًا، ومياه الاستعمال اليومي شحيحة، فتسمع مضخات الماء طيلة اليوم وهي تجاهد من أجل دفع الماء إلى خزانات الدور، وأسلاك الكهرباء الممدودة في العراء تشابكت أمام تلك الدور التي لا تصلها الشمس إلا ما ندر.

رحتُ أقضي الوقت في جرمانا في زيارة أهلنا المندائيين المنتشرين فيها، وحتى كنت أصادف بعضهم في الشوارع عند سيري اليومي من كثرة تواجدهم في تلك الناحية. كانت مصيبتي كبيرة في السير بتلك الشوارع المتربة، فليس فيها رصيف واحد يمتد لأكثر من عشرة أمتار على مستوى واحد، فإذا لم تنتبه لقدمك زلتَ وسقطتَ حتمًا، وكم كان السير يتعبني على تلك الأرصفة غير المستوية وأنا الذي أعاني من ألمٍ في مفاصل رُكبي.

ذات يوم وأنا أسير في الشارع الرئيسي في جرمانا بالقرب من منطقة (الخضر) التقيت بأم تغريد، ستسألونني حتمًا من هي تغريد ومن هي أمها؟.

نعم تغريد كانت حبي الأول في بغداد، ولكنه كان حبًّا من طرف واحد. كنا نسكن قريبين من بعضنا في الحي العربي في منطقة المنصور في بغداد، فكنت أتعمد المرور من أمام دارهم وقت خروجها منه لتستقل السيارة التي كانت تأخذها مع مجموعة من البنات إلى الجامعة، وكانت تلك المشاوير تكلّفني درسًا أو درسين، فقد كنت أتأخر في كل مرة عن بعض المحاضرات الأولى، لذا كنت أعاني من ذلك كثيرًا، وتغريد كانت تتعمد تجاهلي مع علمها بمدى تعلقي بها، فقد أحبّت فتىً مسيحيّ الدين كان زميلاً لها في الكلية، وظلت علاقة الحب بينهما طيلة سنين الدراسة الأربع فلم تلتفت لغيره.

أصبح سكنها القريب منا يزيد من تمسكي بذلك الحب الفاشل ويسبب لي معانات لا أستطيع البوح بها.

تخرجت أنا من كلية الهندسة قبلها بعامين، وعندما أرسلت أمي لخطبتها على طريقتنا المندائية، تحجج أهلها بكون تغريد لم تنهي دراستها بعد.

انصرمت سنتان، فعاودت طلب يد تغريد بعد أن تخرجت من الكلية، فرفضت الفتاة طلبي رغم علمها بحبي لها، وظلت ترفض

كل عريس مندائي يتقدم لها، فقلبها كان مشغولاً بحب زميلها، والذي لم تستطع الاقتران به رغم تقدمه لأهلها من أجل خطبتها، فالمندائيون لا يزوجون بناتهم لغير المندائي.. لقد كان المسكين يحبها بصدق حتى أنه عرض عليها وعلى أهلها استعداده للتخلي عن المسيحية واعتناق أي دين تريده تغريد، ولكن دون جدوى. وهكذا ظلت الفتاة دون زواج رغم الضغوطات التي مورست عليها من كل صوب. فالعادات القبلية البالية لا تزال تتحكم بحياتنا وكأن الزمن لم يتغير.

عندما وقعت الواقعة وأصبحت بغداد تحت الاحتلال الأمريكي، وتعاظمت الردة السلفية هربت تغريد مع عائلتها إلى دمشق بعد أن يئست من حظها العاثر فضاعت في دهاليز المنظمة الدولية، والتي لا تزال تماطل تلك العوائل المنكوبة في إيجاد حلول سريعة لمشاكلهم رغم السنين الطويلة التي قضوها في جرمانا.

هنا في جرمانا، ازدهر الأمل في قلب الأم بأن تزّوج ابنتها الوحيدة زيجة هي التي تختارها لكثرة المندائيين المتواجدين فيها والزائرين لها.

ألقيت التحية على أم تغريد بكل أدب، فراحت تتأملني بشعور العاتب، وردّت عليَّ التحية بعجالة، فلم أستطع سؤالها عن تغريد، وفي الحقيقة لم أشأ ذلك، فكرامتي لم تسمح لي بذلك بعد أن رفضتني الفتاة وأهلها مرتين.

وفي عصر اليوم ذاته، وبالصدفة، وفي المنطقة ذاتها، كنتُ أسير مع فوزي، وكنتُ منشغلاً في تفحص بضاعة محل يبيع التوابل وغيرها من الخردة، والتي نفتقدها منذ زمان، وإذا فوزي يلكزني في خاصرتي، التفتُ فإذا بتغريد وأمها ورجل قد تجاوز سن الشباب، يسيرون معًا متوجهين إلى محل أحد الصاغة.

تمعنتُ النظر في تغريد وكان قلبي لا يزال يخفق لها فرأيت على محياها عدم مبالاة غريبة، وكأنها نعجة أسلمت مصيرها للقصاب، لم تكن مكترثة لكل ما يجري حولها. أمّا الأم فكانت كمن يستعجل أمرًا يريد أن ينهيه على عجل بأي ثمن.

وهنا رحتُ أتطلع بالرجل، وقد ظننته في البداية واحدًا من أعمامها أو ما شابه ذلك، وعندما رأى الرجل كثرة تطلعي به اقترب منا مع مرافقتيه محاولاً التعرف علينا، ولم أحزر ماذا كان يدور في خلده.

هنا انتبهتْ تغريد للموقف وراحتْ تقدّمنا للرجل بشيء من التكلف: الدكتور فوزي جراح أخصائي والأستاذ مهند مهندس استشاري من أقربائنا البعيدين، كانوا جيراننا في بغداد.

ثم التفتتْ إلى الرجل الذي معها فقدمته لنا: السيد رزاق خطيبي من أستراليا.

يا إلهي، ماذا حلَّ بتلك الفتاة الجميلة المتكبرة لترضى برجل يكبرها كثيرًا بالعمر، وفوق ذلك كان وجهه أصفر كأنه

مريض. كان الرجل قصير القامة مقارنة بتغريد، وملبسه ليس فيه أي ذوق ويدعو إلى الحيرة، ترى ألا توجد في أستراليا ملابس محترمة يرتديها من جاء خاطبًا؟

باركنا لها نصيبها وسرنا في طريقنا ودخلوا هم محل الصائغ.

جاءتنا التفاصيل الدقيقة لاحقًا عندما عدنا إلى بيت فوزي، فزوجة فوزي تعرف الشاردة والواردة في جرمانا، وكل التفاصيل التي تخص أي مندائي فيها، وحتى الوافدين عليها عندها أخبارهم وكأنها مختار جرمانا أو عُمدتها كما يقول المصريون!.

راحت أم آدم تسرد التفاصيل بمجرد ما أن سألها زوجها عن تغريد قائلة:

أبو آدم، خطبة تغريد جاءتها قسمة لا تسرَ المحب، فالذي تقدَم لخطبتها صح إنه مندائي منا جاء من أستراليا، ولكنه كان يشتغل عامل صياغة في بغداد والعمل ليس عيبًا طبعًا، وليس لديه أية شهادة، ولكن حالته المادية جيدة، تزوج من امرأة مندائية قبلها، وقد أنجبت له ولدًا وبنتا ثم طلّقها، وجاء يبحث عن غيرها هنا (ففي السوق وفرة من الفتيات)، فوصفوا له (تغريد)، ولم تصدِّق أمها أن (تغريد) وافقت على تلك الخِطبة، فراحت تلفلف المسألة على عجل بعد أن طال بهم انتظار التوطين، والمسكينة تغريد كأنها تتزوج جواز سفر، ولم يعد يهمها من يكون ذلك (الباسبورت)، المهم عندها أن تخلص من الحياة التي تعيشها هنا في جرمانا.

سافر الدكتور فوزي إلى أستراليا مع أسرته والتحق بالعمل هناك في مستشفى قريب من مدينة سيدني، وبقينا نتراسل فقد تفرقنا في بقاع العالم، والسفر إلى هناك مشقة ما بعدها مشقة، فاكتفينا بوسائل الاتصال الحديثة.

بعد أن عدت إلى وطني الجديد وقد مضت سنتان على لقائي الأخير بتغريد، علمت من فوزي بأن تغريد قد عقدت مهرها على الطريقة المندائية في جرمانا حينها، وسافرت مع زوجها إلى أستراليا وأنجبت منه صبيًا جميلاً يشبه أمه، ثم طلّقها صاحبنا وعاد يبحث عن غيرها في جرمانا، بعد أن راقت له تلك اللعبة.

حزنت حقًا لتغريد فهي فعلاً تستحق حياة أفضل، ولكن هذه هي الحياة، قدرٌ ظالم كُتب علينا نحن المندائيون، أن نعيش حياتنا بين قهر الآخر لنا، وجهل رجال الدين الذين يقودوننا.



التقى مالك ببعض أصحابه صدفة أثناء تجواله في كورنيش العشار أمام فندق الشيراتون في مدينة البصرة ثغر العراق الذي كان باسمًا. كان كورنيش العشار من أجمل المتنزهات في مدينة البصرة، وبسبب الإهمال الذي دام لسنين عدة أثناء الحرب مع إيران التي امتدت لثمانِ سنين فأصبح مكبًا لنفايات السفن التي ظلّتْ راسية هناك بعد أن انقطعت بها السُبل.

كان اللقاء صدفة لا تتكرر، ولا يمكنها أن تتكرر إلا في ظرف الانفلات الأمني بعد مأساة الجيش العراقي في الكويت، فإذا التقى أربعة شبان في مكان واحد قبل تلك الفترة كان يعتبر تهمة لا تُحمد عقباها في ظل نظام بوليسي قمعي لا يرحم.

كان مالك من الطلبة المتميزين في دراسته ولم يكن أصحابه دونه في المستوى، ولكن انخراطهم الإجباري في الجيش حطّم كل أحلامهم وخاصة أن حروب النظام لا ترضى أن تنتهي.

عزم مالك هذه المرة على الهرب من العراق بأية طريقة، وحتمًا كان رفاقه يخطّطون لذلك، لكن الخوف من عقاب السلطة جعلهم يتكتمون على أمرهم.

وجد أصحاب مالك؛ وكانوا ثلاثة وهم شقيقان وابن عمهما؛ الفرصة في الهرب بجوازات سفر شبه رسمية إلى عَمَّان ومن هناك عثروا على من هرَّبهم إلى ألمانيا، وفي ألمانيا قدموا طلب لجوء (رياضي)!! لا تضحك عزيزي القارئ ولا تستغرب فقد قدَّم هؤلاء الثلاثة فعلاً طلب لجوء في دولة ألمانيا كونهم من مشجعي فريق باير ميونخ لكرة القدم والسلطات في العراق لم تسمح لهم بمتابعة نشاطات الفريق أو تشجيعه، وقد قبِل لجوئهم بسرعة بعد أن ذكروا أسماء سلسلة من نجوم الكرة الألمانية مثل بيكم باور ورمانيكه وماتيوس، وغيرهم.

أمَّا مالك فقد وصل بمشقة لا توصف إلى الدنمارك، وعندما ألقت سلطات البوليس الدنمركية القبض عليه في إحدى مدن الدنمارك كونه دخل البلاد بشكل غير قانوني، أودعه البوليس السجن، ثم نقلوه إلى أحد مراكز اللجوء القريبة من العاصمة (رودوا أو كما يلفظها الدنماركيون "غوذوا").

خاف مالك كثيرًا من أن تقدم السلطات هناك على ترحيله إلى خارج الدنمارك فتظاهر بالبلاهة.

سأل المحق مالك :

- كيف وصلت إلى الدنمارك؟

تفاجئ المترجم والمحقق بجواب مالك :

- لقد جئتُ إلى هنا سابحًا على ظهر بطة!.

أعادوا عليه السؤال عدة مرات، وكان جوابه هو هو.

تركوه بضعة أيام وأتوا بمترجم جديد وعاودا سؤاله:

- كيف وصلت الدنمارك؟

وهنا راح مالك يشرح كيف تمَّ وصوله إلى الدنمارك بتفصيل أكثر فقال:

- كنتُ أتنزه في كورنيش العشار في البصرة، وهناك رأيت سِربًا من البط المهاجر من الدنمارك قد وصل حديثا إلى الأهوار، وعرج على البصرة لزيارتها والتعرف على ملامحها بحثا عن مكان أفضل للعيش أيام الهجرة بعد أن راحت أهوار العراق الأزلية تجف بسبب حروب صدام، وبسبب السياسات المائية الجائرة للدول المتشاطئة مع العراق. ركبتُ على ظهر بطة بيضاء، وكانت أكبر رفيقاتها في السرب فجاءت بيّ إلى هنا، وهذه كل قصتي.

بعد أن يئس المحقق من معرفة تفاصيل سفرته ضحك وراح الجميع يطلق عليه اسم (مالك بطة)، وظلَّ هذا الاسم لصيقًا به إلى اليوم.

كنتُ في معسكر اللجوء الذي كان فيه مالك بطة فتعرفتُ عليه عن قرب. كان مالك دمث الخلق جميل الصوت ويجيد غناء الريف العراقي الشجي، ولا يزال على طيبة وبساطة شباب البصرة. لم أجد تكلفًا في مصاحبته فكان حلو المعشر فصادقته بسرعة وكنت كثيرًا ما أجبره على الغناء فكان غناؤه يطربنا ويخفف عنا هموم الغربة.

رحتُ ذات يوم مشمس أتمشى معه في ضواحي المدينة القريبة من معسكر لجوئنا، وكان الخريف على الأبواب، وإذا بحاوية كبيرة مركونة على الطريق في مكان منزوي بجانب دور السكن.

هنا في الدنمارك من كثرة البطر والترف يلبس الناس الملابس الفاخرة فترة بسيطة ثم يلقون بها نظيفة مغلفة بأكياس من النايلون بحاويات، يجمعها الصليب الأحمر ويبيعها من جديد ويوظف أثمانها لخدمة أغراضه الإنسانية.

كانت الحاوية بطول مترين وبعرض متر ونصف تقريبًا، وبارتفاع يقارب العرض أو يزيد قليلاً، وقد صُبغتْ بلون أزرق نظيف ولها باب تفتح إلى الأعلى تكفي لرمي الأكياس فيها.

تسلق مالك الحاوية فجأة، وولج إلى داخلها عن طريق الباب بعد أن رجاني أن أكون على مقربة منه لمساعدته عند الضرورة. كان الشاب يبحث عن (جاكتة) تحميه من برد الشتاء القادم الذي لم يراه بعد وإنما سمع به فأراد أن يحتاط له.

وبعد دقائق معدودة جاءت سيارة شرطة وترجل أفرادها وراحوا ينظرون داخل الحاوية، وبعد أن شاهدوا (مالك) وهو يبحث في أكياسها أخرجوه وأخذوا يستجوبونه عن ما يفعله داخل الحاوية. تطوعتُ أنا بالإجابة عنه باللغة الإنكليزية التي يتقنها غالبية الشعب الدنمركي شارحًا للبوليس: أن هذا الشاب جاء حديثا إلى معسكر اللجوء، وهو شاب ظريف هادئ الطبع ولكنه مرهق عصبيًا، ولكونه يخشى البرد الذي سمع عنه الكثير راح يبحث في داخل الحاوية عن (جاكتة) تحميه من البرد.

اقتاد رجال البوليس مالك بطة إلى المعسكر، وهناك أفهموه عن طريق المترجم بأنه غير مضطر للبحث داخل الحاوية عن ملابس قديمة، فهم سوف يزودونه وكل اللاجئين بملابس شتوية جديدة حسب أذواقهم ومقاساتهم من مخازن وُجدتْ خصيصًا لهذا الغرض، وشرحوا له بأن عمله هذا يعد سرقة يعاقب عليها القانون، فاعتذر منهم ووعدهم بأنه سوف يحترم تلك القوانين، فتركوه.

كان انتظار اللاجئين في معسكرات اللجوء للبت في قضايا لجوئهم يطول أشهرًا، وفي بعض الحالات يطول سنينا، فتصبح الحياة في تلك المعسكرات رتيبة مملة، ومالك كان متلهفًا للحصول على الإقامة في البلد ليعمل ويساعد أمه التي تركها

وحيدة في مدينة البصرة على أمل الحصول على عمل في أوربا والقيام بإعالتها. ما يحصل عليه مالك في المعسكر من مصروف جيب شهري لا يكفي للمكالمات التليفونية، فراح يبحث عن عمل؛ أي عمل؛ متجاوزًا القوانين التي تجرّم العمل غير الرسمي، ولكن حالة مالك المادية لم تعد تحتمل كل ذلك الروتين وتلك القوانين غير المبررة حسب وجهة نظره.

في ضواحي المدينة وقريبًا من معسكر اللجوء يوجد فرن للخبز يديره؛ أو ربما يمتلكه أحد الأتراك المقيمين في البلد أو المجنسين بجنسيته، وكان يسكن شقة في ذات العمارة التي يقع فيها ذلك الفرن. اتفق مالك مع صاحب الفرن ـ ولا أعرف بأي لغة تمَّ التفاهم بينهما ـ على أن يعمل مالك في الليل لقاء أجر يومي دون أن يخبر أحدًا بذلك.

وبعد أيام قليلة من عمل مالك في ذلك الفرن جاءته الشرطة المسؤولة عن مراقبة قوانين العمل إلى الفرن ليلاً ووجدوا (مالك) فيه لوحده. عند سؤاله عن ماذا يعمل في الفرن أرشدهم إلى سكن مالكه والذي راح يبرّر للشرطة بلغة دنماركية طلقة وجود مالك في الفرن كمتدرب ويعمل فيه دون أجر. عندها حذرت الشرطة صاحب الفرن بأن لا يسمح بتشغيل أي فرد فيه دون الحصول على الموافقات الرسمية.

تجاهل صاحب الفرن تحذير الشرطة وأبقى على مالك يعمل لديه، فقد كان عاملاً نشطًا يبذل قصارى جهده في إنجاز

الأعمال التي يكلفه بها، وبأجور زهيدة جدًا، ولكن حذَّره من أن يفتح باب المخبز لأي طارق مرة أخرى كائنًا من كان.

وبعد أيام جاءت شابة جميلة ليلاً إلى الفرن وراحت تطرق بابه، وبعد أن رأها مالك أسرع بفتح الباب، عندها اقتحم البوليس الفرن ففرَّ مالك هاربًا من الفرن وراح البوليس يطارده فدخل زقاقا مغلقًا فمسكته الشرطة واقتادوه إلى معسكر اللجوء مجددًا.

هناك في معسكر اللجوء شرحوا له عن طريق مترجم لبناني الأصل أن مخالفته للقوانين ستحرمه من حق اللجوء، وسوف يُرَحَّل من البلد قسرًا إن خالف مرة أخرى، وهنا ردَّ مالك على ضابط الشرطة:

ـ أليس الأفضل تعريفي بتلك القوانين كي لا أخالفها، إنني لم أرتكب أي جُرم، كل ما في الأمر أن مصروفي لا يكفي لإعالة أمي التي تعيش وحيدة في العراق بدون معيل، فحاولتُ أن أعمل من أجل تحصيل بعض النقود وإرسالها لها، أين الخطأ في ذلك؟

إن جواب مالك المنطقي جعل سلطات مساعدة اللاجئين تخصِّص مبلغًا شهريًا لمساعدة أم مالك في العراق كحلٍّ لمعاناته.

فرح مالك بهذا كثيرًا وشكرا المسؤولين عنه.

لم يكن التسكع في طرقات المدينة من طبيعة مالك، ولكن للضرورة أحكام، فليس هناك في معسكر اللجوء غير الملل والانتظار، فراح مالك يخرج ماشيًا كل يوم بضعة كيلو مترات

من المعسكر إلى المدينة، فيقضي نهاره متسكعًا في أسواقها ويعود عند الغداء، وعندما سألته ذات مرة: ماذا تعمل في تلك الأسواق، وماذا تشتري وأنت لا تملك النقود التي تشتري بها؟ أجاب ببرود: أتثقف هناك، وأتعلم عادات الناس الذين سوف أعيش بين ظهرانيهم، فالمواد المعروضة هي ثقافة أيضًا والمثل يقول (الذي يمشي رزقه معه).

التقى مالك خلال تجواله في المخازن بإحدى العاملات في مخزن (سوبر بست)، كان اسمها (شارلوتا)، وهي فتاة دنماركية في الثلاثينيات من عمرها، شقراء ذات عيون زرق كأغلب الدنماركيات، تسكن تلك الفتاة في الحي المجاور للمخزن مع فتاة دنماركية أخرى، وكانت قد أنهت دراستها في معهد الإدارة، ولكن فرص العمل لم تكن متوفرة لها في مجال اختصاصها، فقبلت العمل في تلك الأسواق، وراحت تجلس طول النهار خلف صندوق النقود بملل.

لاحظت الفتاة تردد مالك المستمر على الاسواق دون أن يشتري شيئًا فلفت نظرها تردده اليومي عليهم. وجدت شارلوتا في مالك فرصة لتبديل رتابة الحياة التي تعيشها، بعد أن أثار فضولها ورغبتها ذالك السمار البصراوي المميز.

ظلت شارلوتا تراقب صاحبنا بفضول كلما دخل المخزن، ولم تجد تفسيرًا لزيارته المخزن يوميًا سوى أنه مهتمًا بها، وبجرأة الدنماركيات راحت تغازله وتشجعه على التغزل بها، ولكن

صاحبنا، ورغم تلهفه لمغازلتها ظلَّ خجولاً متردداً، خائفًا، وخاصة بعد تحذيرات ضابط الشرطة له في المرة السابقة من تجنب المشاكل ومخالفة القوانين، وهل هناك مخالفة للقوانين أكثر من التحرش بفتاة دنماركية يا مالك ؟

ظلَّ مالك متردداً في مفاتحة شارلوتا برغبته في صداقتها، وقد أثار تردده فضولها، فزادها إصرارًا بالتمسك به، وأخيرًا دعته هي إلى مرافقتها إلى إحدى المقاهي بعد انتهاء عملها وبلغة إنكليزية مفهومة.

هنا زادت حيرة مالك وظل طول الطريق إلى مركز اللجوء يفكِّر بالأمر، ولم يجد من يستشيره بالأمر فظل يبحث عني في كل ركن. اقتادني إلى ركن منعزل وراح يسرني بالموضوع طالبًا رأيي إن كان في مصادقة تلك الفتاة خطورة على قضيه لجوئه؟ رغبت في البداية ممازحته و"النصب" عليه، ولكنني فكرّت بحساسية الموضوع بالنسبة له، وقد تكلفني تلك المزحة خسران صداقته، فحاولت أن أشرح له بجد أن المرأة هنا في الدنمارك حرة ولا رقابة عليها أو وصاية من أحد، ولا حتى من أقرب الناس إليها، وليس هناك من ضير في مصاحبتها على قضيته، بل بالعكس، فعلاقته تلك تعطي انطباعًا جيدًا عنه وقد تساعده في قبول لجوئه.

فرح مالك كثيرًا بما قلته له، وشدَّ على يدي ثم راح يحتضنني بعفوية صادقة، ولكن بعد لحظات تلبد وجهه وكثرت همومه

من جديد، ولم يبح لي بسبب تعكر مزاجه إلا بعد إصراري لمعرفة ما سبب ذلك.

- صديقي العزيز، إنها دعتني إلى المقهى، ولا أعرف كم من النقود سوف تكلّفني تلك الدعوة؟

- لا تشغل نفسك بذلك يا مالك فالمبلغ ليس بكبير ما دام بحدود المقهى، ثم إن الفتاة هي التي دعتك، وسوف تدفع هي الحساب.

وهنا أحمر وجه مالك رغم سماره الشديد، وراح يردد مع نفسه:

- كيف سأسمح لنفسي أن تصرف عليَّ امرأة؟ ليتها دعتني إلى نزهة على ضفاف البحيرة القريبة كونها وقبل كل شيء بعيدة عن أعين الناس، ثم سوف لن يكلفنا التنزه على ضفافها شيئا.

شرحت له المسألة هذه المرة بصفتي خبير في حياة البلد، وحسب خبرتي التي امتدت لسنة قبل مجيئه:

- شوف سامي، إنك بعقليتك تلك سوف لن تستطيع العيش في هذا البلد، فلكل بلد عاداته وتقاليده، وعليك أن تتعايش مع عادات الناس هنا. هنا المرأة مثل الرجل تمامًا، بل في بعض الحالات هي الآمر الناهي، فما عليك إلا أن تشرح لفتاتك ظروفك المادية الصعبة، وأن لا تحاول استغلالها، وسوف ترى منها كل التقدير والتعاطف.

وفي اليوم التالي جاءني مالك مستبشر الوجه فرحًا، وراح يسرد لي تفاصيل لقائه الأول، وكيف أنه راح يرتجف بين يديها عندما

قبَّلته، وكيف ضاع حينها بين الرغبة، والخجل، والخوف، وخاصة أن كل روَّاد المقهى قد شاهدوا ذلك المنظر.

كانت شارلوتا تعيش وحيدة بعد أن افترق أبوها عن أمها والتي تزوجت غيره بعد أقل من نصف عام. أضاعت شارلوتا سنين مراهقتها وشبابها في صداقات عابرة مع بعض الشباب، وكانوا غير صادقين معها، فوجدت في هذا الأسمر القادم من بلد ألف ليلة وليلة فرصة العمر التي يجب أن لا تضيع منها هذه المرة.

راحت شارلوتا تلتقي بمالك بشكل منتظم، وخاصة بعد أن وجدتْ في نُبل أخلاقه ما يشجِّع على التشبث به.
بعد أن زاد إعجاب شارلوتا بمالك دعته هذه المرة لزيارة بيتها والذي يتكون من غرفة واحدة ومطبخ ومرافق صحية، وقد شاركتها السكن فيه فتاة أخرى لتتقاسما ايجار البيت الذي يعتبر مرتفعًا كثيرًا مقارنة مع الدول الأخرى، فالدنمارك يعتبر من واحدًا من أغلى البلدان في العالم.

كانت شارلوتا وحيدة في الدار، ولم يك ذلك مصادفة وإنما تمَّ بالتنسيق بين الفتاتين، وقد أعدت مائدة صغيرة توسطتها قنينة من النبيذ الأبيض حلو المذاق محضر من أعناب (موسكات) وبضعة زهور حُمر من التولب.

جاء مالك قبل أن يُغلق المحل الذي تعمل فيه صديقته المرتقبة وظلَّ ينتظرها خارجًا إلى أن أنهتْ عملها.

جاءِ مالك وفي يده باقة من الورد كبيرة ولابد أنه جمعها من الحدائق المجاورة، فالورد يُباع هنا بسعر أغلى من الخبز طبعًا. وصل معها إلى البيت وهو وجِل يتلفت يمنة ويسارًا، وكأنه يخشى من ملاحقة الشرطة أو غيرهم "من أهل الفتاة مثلا".

عند دخولهما الدار، وقد حرص مالك أن يدخل بقدمه اليُمنى، احتضنته شارلوتا وطبعتْ على فمه قبله صبَّتْ فيها كل لهفتها للجنس الآخر. ارتبك صاحبنا واختلطت عليه الأمور وفقد السيطرة على انفعالاته وكاد يسقط على الأرض.

لم يجري مالك في اللعبة طويلاً، بل لشدة خجله لم يستطع السيطرة على كل تلك الانفعالات فجلس على أول كرسي وانكمش على نفسه كأنه طفل مذنب.
عندما رأت شارلوتا قلة تجربته مع الجنس الآخر راحت تسايره ولم تستعجل الأمور، فتحت قنينة النبيذ وملأت الأقداح ودعته لشرب نخب صداقتهما. شرب مالك قدح النبيذ بتردد أول مرة ولكن بعد أن أعجبه مذاق النبيذ بادر هو بملئ الأقداح من جديد وراح يشرب نخب مستقبلهما سوية مرددًا بصوت غير مسموع: إن شاءِ الله.

وهكذا قضى مالك سهرته لحين عودة الفتاة التي تشارك شارلوتا السكن فانقضت أمسيتهما الأولى بالمجاملات، فقد كان صاحبنا مترددًا بشكل يثير الشفقة والضحك في ذات الوقت.

خرجت شارلوتا لتوصِّل مالك إلى مركز اللجوء ولتكمل معه أحاديث راحت تتشعب وتأخذ منحًا جادًا. شرحت الفتاة لمالك ما عزمت عليه في مفاتحة الجهات الرسمية من أجل أخذ الموافقات الضرورية للسماح له بترك معسكر اللجوء والعيش معها بعد أن تعطي هي الجهات المسؤولة الضمانات اللازمة.

أسعدت (مالك) هذه الفكرة وكان يتمنى أن يعيش مع فتاة تحت سقف واحد و يحلم بانشاء أسرة سعيدة، قال لها ذلك بكل وضوح ففرحت شارلوتا وأخذت المسألة على محمل الجد.

في صباح اليوم التالي و نحن نتناول الفطور في مطعم المخيم، راح مالك يحدثني عن سهرة الأمس، وعن مشاريعه المستقبلية، مكيلاً المديح لرفيقته ولأدبها وحُسن خُلقها، وتحدث عن مشروعهما في السكن سوية.

شجعته أنا على ذلك وأبديت له كل المساعدة الممكنة، حتى إنني حسدته على جرأته ورجاحة عقله في اتخاذ قرار كهذا.

أخذت شارلوتا إجازة من عملها في اليوم التالي وذهبت إلى البلدية للاستفسار عن الخطوات اللازمة لتنفيذ مشروعها. هناك وجدت الدعم الكامل في مساعدتها لبناء حياتها الجديدة ووعود بمساعدات مالية سخية في حالة موافقة سلطات البوليس المسؤولة عن اللاجئين.

ذهبت إلى قسم اللاجئين في العاصمة وأخذت المعلومات اللازمة وعادت إلى معسكر اللاجئين وأخذت صورة لبعض المعلومات

التي تخص مالك من ملفه الخاص، وتقدمت معه بطلب خاص إلى الجهات المسؤولة بالسماح لهم بالعيش سوية.

بعد أن أصبحت المسألة جدية وأخذت أبعادًا رسمية راح مالك يفكِّر بطريقته الشرقي، فكيف ستستقبل أمه الخبر؟ وكيف سيعيش مع امرأة غير مسلمة؟

لا أعرف بالضبط لماذا اتخذني مالك مستشارًا له فراح يسألني عن كل ما يقلقه ويدور في رأسه، ترى كيف ستحل مسألة اختلاف الدين وهو لم يفاتح شارلوتا لتعلن إسلامها ولا يعرف حتى استعدادها لذلك.

ـ عزيزي مالك لا تكن متعصبًا، وأنت في الأساس لا تهتم كثيرًا لشروط الإسلام، وحتى لو التزمت بجد في ذلك، ألا تكون لك عبرة في رسول الله وقد تزوج من مارية القبطية وهي على دينها، حتى أن كتب التاريخ ذكرت أنهم وجدوا صليبًا على صدرها عند وفاتها؟.. ثم الأيام طويلة بينكما قد تقتنع هي باعتناق دينك في المستقبل، لا تطرد النعمة التي وهبها لك رب العالمين، وتخلص من هذا المعسكر الذي يكتم على القلب مثل الكابوس، والله لو أجد فرصة مثل فرصتك لما ترددت دقيقة واحدة.

فرح مالك عندما قلت له ذالك، وراح يؤكد لي مدى تمسكه بصداقتي حتى إنه راح يدعوني بـ"أخي".

لا أعرف هل كان مالك حقًا بحاجة إلى نصيحة من أحد في رسم حياته، أو أنه أرادها حجة يتشبث بها ليلقي مسؤولية قراره المصيري على شخص آخر، ولنقل أنا هذا هو الآخر.

لم تمضي أيام طويلة حتى استحصلت شارلوتا على الموافقات الرسمية للارتباط بمالك، ومنها أنه يُمنح إقامة مؤقتة مشروطة برضاء الزوجة وموافقتها، وفي حالة رفضها له يرحل خارج البلد، ولا أدري هل سيرحل بطائرة أم على بطة كما جاء.

جرت مراسيم الزواج في بلدية المدينة بحضور شاهدين هما أنا وصديقة شارلوتا التي تشاركها السكن.

من الأمور الغريبة التي حصلت أثناء تلك المراسيم والتي جعلت مالك يصدم هو في ذلك اليوم، وقبل أن يأتي مالك الدور للمثول أمام القاضي كانت تجرى مراسيم لزواج اثنين من المثليين، فقد تزوج شابان أي رجلان وهما في عمر مبكر وشهد أصدقاؤهما على ذلك الزواج في جوٍّ يسوده الفرح ولم يعرف من سيكون منهم العريس ومن العروس، فترك ما هو فيه، وغاص في دوامة من الخوف والتقزز من عادات مجتمعه الجديد.

بعد أن تمَّت الإجراءات اللازمة لعقد الزواج انتقل مالك للعيش مع زوجته وقد تركت صديقتها البيت لشارلوتا.

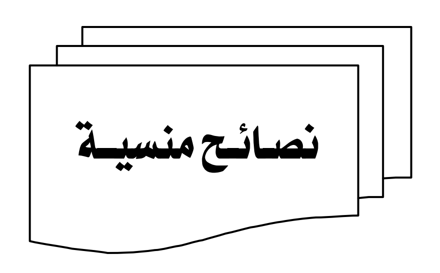
نُقلت أنا إلى مدينة أخرى في الشمال بعد أن قبل لجوئي وحصلت على الإقامة، فانقطعت أخبار مالك عني ولم ألتقي به إلا بالصدفة

في محطة قطارات كوبنهاكن الرئيسية، استغربت عندما شعرت أنه يحاول التملص من مقابلتي، فركضت في اتجاهه ومسكت يده من الخلف، حيَّاني على مضض وحاول جاهدًا أن لا يرضي فضولي ويجيب على حشد الأسئلة التي دارت في رأسي. علمت أنه لم يحتمل الاستمرار بالعيش مع شارلوتا على الرغم من أنهما رزقا بطفل أسمياه "يونس".

لم تستطع شارلوتا ترك علاقاتها السابقة، فلم تمتنع عن استقبال أصدقائها القدامى، ولم يستطع مالك تقبل عادات المجتمع تلك فترك العيش مع زوجته، وانطوى على نفسه، خاصة بعد أن جاءه خبر وفاة أمه وحيدة في البصرة.

لقد كبر مالك كثيرًا وغزا الشيب شعر رأسه وكأنه عائد من الجبهة.

حاولت أن أبعث الأمل فيه للعيش كما يعيش غيره ولكن دون جدوى فقد عشعشت الكآبة في عقل الرجل واختفت البسمة من على وجهه، وهجر الناس والحياة وانزوى وحيدًا في إحدى القرى البعيدة يعيش على مساعدات البلدية ولا يلتقي مع البشر إلا ما ندر.



كانت البناية التي خصَّصتها الدولة لإقامة جامعة الصداقة فيها، واحدة من البنايات التي كانت مخصصة أصلاً لمدرسة عسكرية. كي تصل إلى باب تلك البناية عليك أن ترتقي سلمًا عريضًا انتصبت أمامه أعمدة مرتفعة بشكل تجعلك صغيرًا مهما أسرعت في ارتقاء السلم، وليس لتلك الأعمدة أي وظيفة هندسية غير التعبير عن العظمة.

كنا قد غادرنا العراق ونحن شباب مشبعون بالشعارات والأفكار الماركسية وبالطموح الجامح من أجل التحصيل العلمي، ولكن كانت تعوزنا بجد المعرفة بالحياة الجديدة وبعادات الشعب السوفيتي الغريبة عنا. كنا منبهرين بكل ما نراه ومنذ يومنا الأول في هذا البلد العظيم.

سبقتنا بعام دراسي مجموعة من الشباب العراقيين إلى تلك الجامعة، فأخذنا نتمسك بأذيالهم كأطفال صغار في يوم عيد وقد تمسكوا بثياب أمهاتهم كي لا يضيعوا بين المراجيح.

كانوا شبابًا كرماء حقًا فلم يبخلوا علينا بخبراتهم وتجاربهم في الحياة الجديدة.

عقد لنا مسؤول المنظمة الحزبية (الحزب الشيوعي العراقي) اجتماعًا فور وصولنا ضمَّ كل الطلبة الجدد بغض النظر عن مدى علاقتهم بذلك الحزب. استهل المسؤول الاجتماع بشرح مستفيض للحياة الجديدة، مذكِّرًا بالواجب الوطني الملقى على عاتقنا في (تبييض وجه العراق أمام السوفيت بالدراسة الجادة) معرجًا على السلوكية التي يجب أن نتبعها في حياتنا اليومية الجديدة، محذرًا من الاندفاع بالملذات قائلاً:

- خذوا كل شيء بهدوء وروية يعني على (كيفكم) حتى رفيقاتنا السوفيتيات (لما تكونوا وياهن فعلى كيفكم).

طبعًا أصبحت تلك نكتة نتذكرها بمرح إلى اليوم، فكلما تتعرف إلى فتاة لابد أن تسمع تعليقا من أحدهم (على كيفك ويه رفيقتنا!).

مرَّت سنين الدراسة مشحونة بمواد علمية صعبة، فالمناهج الدراسية كانت مكثفة، والجو قاسي البرد، والثلج يغطي كل شيء، وفوق كل هذا كانت تحاصرنا معاملة الإداريين المتشددة في الجامعة، وفي القسم الداخلي المخصص للطلبة الأجانب الذي نسكنه إضافة إلى الفقر الذي كان يعيشه أغلبنا.

كان في الجامعة عدى أساتذتنا الذين يدرّسوننا العلوم ونقل خبراتهم العظيمة إلينا بكل كرم، والذين أحببناهم لغزارة معارفهم وتواضعهم الشديد، هناك عدد من الموظفين مخصصين فقط للعمل معنا في الأمور الإدارية. مهمة هؤلاء الإداريين الأساسية هي مراقبة سلوكنا وتحركاتنا، فكانوا يضيقون علينا بحجة الإرشاد وتقديم النصائح. لكل مجموعة منا لها موظف مسؤول تحت تسمية المدرس الأقدم والله أعلم ما هي وظيفته الحقيقية.

قضيتُ سنينًا وأنا في تلك الجامعة ألاقي الأمرَّين من الفاقة والبرد ومن مضايقات (المعلم الأقدم).

ذات يوم وقبل أن ينتهي الدوام الرسمي المعتاد في الجامعة، اهتم المدرس الأقدم في البحث عني سائلاً كل طالب عراقي يصادفه، وقد ساعده بالبحث عني عدد كبير من هؤلاء المدرسين بما فيهم مساعد عميد الجامعة لشؤون الطلبة، وتبرع عدد من طلبتنا العراقيين من باب الفضول بالمساعدة أيضًا في البحث عني.

عثروا على العبد للّه أخوكم (عبد الإله) أخيرًا في أحد الصفوف الفارغة حيث كنت أحضر لامتحان الرياضيات مع إحدى رفيقاتنا السوفيتيات (بهدوء طبعًا)!.

أخذوني إلى الباحة الرئيسية في الجامعة، وهم يحيطون بي من كل جانب وكأنني في زفة عرس، وعيون الطلبة في الجامعة شاخصة تنظر إليَّ مستغربة هذه الزفة.

ناداني أحد العراقيين من بعيد مرعوبًا: ها عبد شكو؟ لم أستطع الرد عليه إلا غمزًا وأظنه قد فهم أنها كبسة فقد اعتدنا في العراق على كبسات الشرطة!.

في باحة الجامعة وقفت سيارة من نوع (جايكه) من سيارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. كان وقوف سيارة جايكه في باحة الجامعة حدثًا فريدًا بحدّ ذاته.

من هو هذا الطالب العراقي الذي تهتم به اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وترسل له إحدى سياراتها؟ وماذا يريدون منه؟

فتح لي المدرس الأقدم باب السيارة والذي كان يضطهدني بالأمس مناديا:

- تفضل رفيق، الرفاق في اللجنة المركزية يطلبونك!.

تلفت خلفي للمرة الأخيرة متشبثا بأمل أن يكون هناك خطأ، والمطلوب شخص آخر غيري، ولكن لا أمل للخلاص، فدخلت السيارة وجلست في المقعد الخلفي الوثير وأنا في حيرة من أمري، فلم يسعفني خيالي في تفسير هذا الإجراء ولم أسترح في جلستي رغم الرفاه الذي صُممت به مقاعد السيارة، فقد كان يشغلني السؤال: ما علاقتي أنا باللجنة المركزية؟، صحيح إنني كنت حينها رئيس رابطة الطلبة العراقيين في تلك الجامعة، ولكن ما علاقتنا بقمة هرم السلطة السوفيتيه؟ كل ما كنا نقوم به من

نشاط هو إقامة حفلات بالمناسبات الوطنية، أو نساعد طلبتنا عند الإدارة كلما احتاجوا لذلك، أو استقبال الطلبة الجدد ونكرّر عليهم النصيحة العظيمة، ترى أيجوز أني قد انتقدت اللجنة المركزية أمام أحدهم؟

ما هذا الهراء فالبوليس والمعلم الأقدم أولى بمعاقبتي، ولكن يصل الأمر إلى اللجنة المركزية فلابد أن المسألة أخطر من هذا بكثير، وربما وراءها إعدام.

حاولت فهم الموقف من سائق السيارة بسؤاله عن الوجهة التي سنذهب إليها، ولكن دون جدوى فالرجل كان أخرس أطرش.

بعد ما يزيد على الساعة ونحن داخل السيارة التي كانت تسير بسرعة معتدلة، خرجنا من المناطق السكنية في موسكو إلى غاباتها الجميلة الخضراء التي لا تنتهي، حاولت أن أمتع ناظري بتلك المناظر الخلابة، من يدري، ربما سوف لن أراها بعد يومي المنحوس هذا..

شقت الجايكا طريقًا خاصًا معبَّدًا بشكل جيد وسط الغابة بين أشجار البتولا وراحت تقطعه بكل هدوء. فوصلنا دون ضوضاء إلى بناية جميلة وادعة تظللها الأشجار التي ابيضت سيقانها. زُرعت هناك بعناية فائقة مختلف أنواع الزهور لتضفي على المكان سحرًا لا يُنسى، فكانت المرة الأولى التي أرى فيها أزهار التولب باللون الأسود، ولا بد أنها جُلبت خصيصًا من هولندا، فلم أرى مثلها من قبل في محلات الزهور التي تنتشر في موسكو.

ـ تفضل رفيق:

فتح السائق باب السيارة بكل أدب وظهر أنه إنسان ناطق وطليق اللسان أيضًا لا أخرس ولا أطرش كما كان في داخل السيارة.

قادني بكل أدب إلى غرفة الاستعلامات في تلك البناية وتركني هناك ملمِّحًا لي أنه سيكون في انتظاري متى شئت.

في الاستعلامات تبين لي إنني في مستشفى اللجنة المركزية، عندها هدأ روعي، وخمنت أن أخي الشيوعي المخضرم أو أحد معارفه من قادة الحزب الشيوعي العراقي راقد هناك وطلب رؤيتي، صدق ظني تقريبًا، ففي إحدى غرف المستشفى المؤثثة كفندق ذو نجوم خمسة وربما ستة نجوم، التقيت بشاب يصغرني قليلاً ولم أك أتوقع رؤيته إطلاقا لا هناك ولا في مكان آخر.

نهض من سريره وراح يضمني بعناق صادق سالت دموعنا خلاله...
إنه قريبي وصديق طفولتي بهجت [٢٥] .

لم أكن أعرف أنه قد ارتقى في منصبه الحزبي إلى هذا الحد بحيث تستضيفه اللجنة المركزية السوفيتية، وتلك قصة أخرى.

بعد الاطمئنان على صحته، وقد صعب عليّ حقًا كونه يعاني مشاكل جدية في الكبد أدخل على أثرها المستشفى، كثر سؤالي عن أهلنا في العراق والذين كنت أشتاق لهم بكل كياني وغيرها من الأسئلة، وبعد أن طمأنني عليهم، قضينا

ساعة نستعيد فيها ذكرى أيام قلعة صالح ومحلة اللطلاطة التي وُلدنا فيها، وأيام الشواكة التي عشنا فيها في بغداد أيام شبابنا.

الضيافة التي حظيت بها في جناحه شملت على أنواع من المشروبات والتي لم نكن نراها في حوانيت موسكو ولا حتى في السوق الحرة الوحيدة في مدينة موسكو، والتي كنت أزورها بفترات متباعدة برفقة بعض الطلبة الميسورين لغرض الفرجة فقط. انشغلت في البداية في تناول الفواكه الناضجة وغيرها والتي غطت المائدة التي توسطت الغرفة بنهم المحروم.

تخرج بهجت حمد الشيخ زهرون من الكلية العسكرية بعد ثورة ١٩٥٨ وأرسل من قبل حكومة عبد الكريم قاسم في بعثة عسكرية إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة اللاسلكي. قبل أن ينهي تلك الدورة حدث انقلاب ٦٣ الأسود فاستدعي من قبل الحكومة، وحين رفض العودة خوفا من القتل فصل من الدورة وقطعت عنه المخصصات. على أثر ذلك وفرَّت له الحكومة السوفيتية فرصة إكمال دراسته في معهد خاص جدًا للاسلكي. أي أن الأجانب لا فرصة لهم في دخول هذا المعهد نظرًا لسرية الأبحاث فيه عدى أفراد محدودين استثنوا من ذلك وكان بهجت واحد منهم بسبب التزامه وذكائه المفرط.

تفوق بهجت على أقرانه السوفيت في دراسته في ذلك المعهد في قسم الاتصالات بالفضاء الخارجي، ولم يتبقَ له إلا سنة واحدة

ليكمل دراسته في المعهد المذكور ليحصل على اختصاص لم يسبقه إليه عراقي أو عربي من قبل.

دعته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي للعودة إلى العراق، ربما لتأسيس إذاعة لها، أو لمهام أخرى لا أدري مدى أهميتها. ترك بهجت دراسته التي شارفت على النهاية وعاد إلى العراق بشكل سريّ مضحيًا بفرصة العمر، وهناك استخدم اسمًا حركيًا هو (أبو عبد اللّه) ربما وفاء منه للصداقة التي تربطني به.

كلّف في العراق بالفعل في نصب محطة إذاعة سرية تبث محليًا ضد نظام البعث الذي حكم العراق بقسوة، وبعدها كُلف بمهام حزبية قيادية وكان متخفيًا بهويات مزورة ولا يلتقي بأحد من أفراد أسرته خوفًا من انكشاف أمره.

بعد أن ساءت صحته أرسل إلى موسكو من جديد للعلاج على حساب اللجنة المركزية السوفيتية حيث التقيت به في ذلك المستشفى.

بعد أن انتهينا من سرد أهم الأحداث، وبعد أن أتخمتنا الضيافة السوفيتية الكريمة سألني أبو عبد اللّه إن كنت أرغب في لقاء الرفيق خالد بكداش [٢٦] ؟

ـ من منا لا يتمنى لقاء ذلك القائد الأسطورة؟

اقتادني بهجت عندها إلى غرفة قريبة من غرفته حيث يرقد الرفيق بكداش للعلاج. في جناح خاص استقبلنا رجل كث الشعر رأيته حينها جميل الوجه جاوز الخمسين من العمر وراح يرحب بنا بكل أدب وصدق.

أخذ بكداش يمدح الشيوعيين العراقيين دون أن يعرف ما هي علاقتي بهم. ثم دار حديث عام عن العراق والجوع الذي يعيشه الفلاح العراقي.

قدّم خالد بكداش هنا نصيحة لأبي عبد الله في محاربة الجوع الذي يعيشه الفلاح العراقي وخاصة في الجنوب، وطلب منه أن ينقل تلك النصيحة لرفاقه في الحزب عند عودته إلى العراق، وكانت النصيحة كما يلي:

- رفيق أبو عبد الله "عندكو في المنطقة الجنوبية مسطحات مائية شاسعة وهناك ثروة أهم من الثروة السمكية وهي الدفادع (الضفادع) ثقفوا الفلاحين عندكو وعودوهم على أكلها وعندها سوف تحل مشكله الجوع عندهم!".

ولكون أبو عبد الله يعرف عدم التزامي بالأدب أحيانًا وإنني غير منضبط في تلك المواقف راح يتطلع بوجهي بخوف ليرى ردة فعلي التي لم أستطع لجمها إلا بآخر لحظة.
سألته غير مصدق ما سمعت:

- رفيق هل تعني أن الشيوعيين في العراق سيطلبون من الفلاح العراقي أن يأكل (العقروق) الضفادع؟

- نعم أيها الرفيق الشاب.

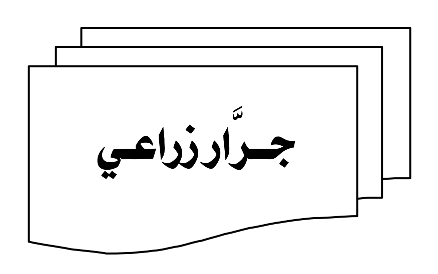
تذكرت تلك النصيحة اليوم وقلت ليتنا علمّنا العراقيين حينها على أكل الدفادع كما نصحنا الرفيق خالد بكداش لكان خيرًا لهم من أكل الـ..........هذه الأيام!

خرجنا من عنده متمنين له الصحة.

تمنيت لأبي عبد اللّه الصحة وودّعته شاكرًا محمله أطنانًا من التحيات والتوصيات لأهلي وأصدقائي في العراق، وعدت إلى القسم الداخلي الذي أعيش فيه قرب الجامعة في سيارة اللجنة المركزية بكل أبهة.

راح الطلبة المجتمعين دائمًا عند باب بناية القسم الداخلي أو تجمعوا خصيصًا لرؤية النجم الجديد وموظفي الاستعلامات معهم، راحوا جميعًا يرمقونني بكل تقدير بعد أن ترجل سائق (الجايكه) فاتحًا لي الباب ومودعا بكل احترام.

حظيت بعدها بمعاملة خاصة من قِبَل جميع المسؤولين في الجامعة وخاصة من قِبَل المعلم الأقدم وحرّاس القسم الداخلي!.



بعد أن أخذت عائدات النفط تتدفق بغزارة على الخزينة العراقية، أخذت طموحات رئيس البلد تكبر، فبعد أن كان تلميذًا فاشلاً في المدرسة جُلُّ طموحه أن يحصل على أسئلة الامتحان العمومي قبل الامتحان ليحفظها عن ظهر قلب، فينتهي من عقدة اجتياز امتحان الثانوية التي ظلت تؤرقه، وإذا به بين ليلة وضحاها يصبح رئيسًا لدولة تعدُّ من الدول الغنية، إنها الجمهورية العراقية بحضارتها وتاريخها العريق، فكانت طموحاته أبعد من واقع العصر الذي نعيش فيه، وقد جرَّت تلك الطموحات وتلك الفنتازيا على الشعب العراقي ويلات لا تُحصى.

كيف حدث هذا؟

الأفضل لنا أن لا نتعب أنفسنا في البحث عن كشف هذا اللغز، فالعراق هو بلد العجائب، والزمان اليوم هو زمن العجائب أيضًا، ورغم ذلك سأجيب على ذلك.

إن كنت تطمح أن تصبح رئيسًا، فما عليك سوى أن ترمي كل القِيم التي قد تكون حفظتها منذ الصغر، وأن تكون قاتلاً جريئًا وبدون رحمة، وتبدأ بأقرب الناس إليك، ثم تجمع حولك عصابة من القتلة الطموحين لتقتحم بهم مقر الرئاسة ودار الإذاعة، وبعد أن تضع قدمك هناك؛ تظاهر بأنك ملاك هبط على هذه الأرض من السماء ليعيد للبلد مجده الضائع، وينشر العدل فيه ويسعد شعبه وينصر الدين، وأنك أنت هو المنتظر والذي كان غائبًا.

كان رئيسنا والحمد للّه يملك كل تلك المواصفات وبتفوق، فهو قد تربى يتيمًا في الصغر، وقد نشأ يتيمًا، فعلّمه الحرمان أن يحقد على كل القِيم، ويكون مجرمًا بالفطرة، فالمسدس لم يفارق جنبه منذ أن قتل أحد أعمامه يوم كان مراهقًا.

جرت العادة بين رؤسائنا العرب أن يكتبوا كتابًا، ثم يصفونه بلونٍ ما، مثل الأخضر والأبيض وغيرها من الألوان، ربما تيمنًا بكتاب (ماوتسي تونغ الكتاب الأحمر)، ثم يبتكرون نظرية في سياسة الدولة لم ينزل اللّه بها من سلطان، وعندها يتبعهم الشعب مجاملاً أو منخدعًا، وفي الغالب خائفًا مغلوبًا على أمره، فينفشون ريشهم كالطاووس ويصدِّقون كذبتهم.

صاحبنا قد عرف تلك اللعبة، وهي سهلة كما ترون وتستحق المغامرة، فراحت تؤلف له الكُتب، على شكل حكايات، وراح يتواضع فيدخل بيوت العامة ويقبّل أطفالهم من "زود الإنسانية"،

ثم يأخذ من هذه الدنيا ما يستطيع أخذه، وما لم يقدر عليه غيره، وكأنه يعرف بأنه لن يبقى عليها طويلاً فهناك من ينتظرها، ويقف في الدور بكل عدته ليضع قدمه حيث وضعها هو ذات يوم.

ليست هذه مقدمة لمقال سياسي، فليس فيها شيء جديد، وكلكم تعرفونها، ولكن الغرض منها أن أصل إلى علاقة يوسف بالنظام وبالسيد الرئيس.

كان يوسف رجلاً بسيطًا منحدرًا من أصول عشائرية من ريف العراق القريب من بغداد.

بمجرد أن تقطع عشر كيلومترات خارجا من بغداد تجد الحياة قد اختلفت، والناس كذلك، وبعد أن تصل إلى ناحية اليوسفية وتتجه إلى القصر الأوسط [٢٧] . ستجد الحياة سهلة وبسيطة، والناس لا زالوا يعيشون بطيبة ويحافظون على القيم، وهناك وُلِد يوسف.

بعد أن أنهى يوسف دراسته في الكلية العسكرية، وتخرج برتبة ملازم ثانٍ، ظلَّ يتدرج بالسلكي العسكري كما جرتْ عليه العادة في الجيش، ولكونه منضبطًا وصادقا وذكيًا؛ راح يصعد في سلم المناصب دون عوائق... وعندما جاء الرئيس إلى الحُكم كان يوسف برتبة ملازم أول.

في عهد الرئيس راح يوسف يتقدم بالمناصب بسرعة أكبر من المتعارف عليه في سلك العسكرية لأسباب يطول شرحها هنا، وأهمها أن واحدًا من أخوال يوسف كان زميلاً وصديقًا للرئيس منذ عهد النضال السري، وهكذا أصبح يوسف يتمتع برتبة عقيد.

كانت (شعارات) حزب البعث الذي أصبح الرئيس قائده، شعارات مغرية تداعب مشاعر الشباب بما حوته من وعود بالحرية ووحدة الأمة العربية، وفيها وعد بتحقيق الاشتراكية أيضًا، ويوسف عربي أصيل يحب عروبته بشكل مفرط، ويعشق الحرية بالفطرة، ويريد لشعبه أن يعيش مرَّفهًا في ظلِّ الإشتراكية، فانخرط في صفوف حزب البعث وأخلص في عمله الحزبي، فراح يتبوأ في الحزب مراكز قيادية. ساعدته في ذلك طبعًا تزكية خاله المقرَّب من الرئيس.

شغل يوسف مكانًا حساسًا في وزارة الدفاع، وكان قريبًا من صنّاع القرار هناك، ومع الزمن راح يطلع على أسرار علاقة (الرِفاق) بالسفارة الأمريكية، وعرف كيف يبنى العراق ووفق أي أجندة. في البداية راح يوجد المبررات لتلك السياسة مستذكِرًا ما كتبه (ميكافللي) عن الغاية تبرِّر الوسيلة، حتى أن بعض القناعات راحت تتسرب إلى عقله المتفتح بأن رئيسنا يخدع أمريكا، وعلى أكتافها سوف يحرِّر فلسطين ويبني مجد العرب!.

من قناعات يوسف أيضًا أن ما أخِذ بالقوة لا يستردُ إلا بالقوة، وقد أستبيحت كرامة العرب في فلسطين بالقوة لا بالمنطق والقانون، إذا أن ما يُبنى في العراق من آلة عسكرية ضخمة أتت على كل موارده، هو الطريق الصحيح للوصول إلى التحرير الكامل للأراضي العربية المحتلة، وفرض هيبة العراق على الجميع وجعل بغداد عاصمة الخلافة من جديد.

إن إعطاء الأولوية في البناء للتصنيع العسكري، والعمل على بناء (المدفع العملاق) "الذي تصل قذيفته إلى أي مكان في العالم"، وحتى إلى الفضاء! ودخول النادي الذري، هو الطريق الصحيح للرقي، فليجوع الشعب قليلاً فالعزة لا تأتي مع الشبع.

كل تلك الأفكار أخذت تجد لها مساحاتٍ أكبر في عقول الناس وفي عقل يوسف طبعًا، وعندما بدأت الحرب العراقية الإيرانية كان الناس شبه مُهيأين لذلك، ولكن خيوط اللعبة انكشف أمام يوسف المطلع على أغلب تفاصيلها، فتيقن من الدوافع التي وراء ذلك اللهاث العسكري ومن يقف وراءه، فأصيب بصدمة قاسية وإحباط في قناعاته التي على أساسها انضم إلى الحزب، ولكون الحديث بهذا الأمر مع أيٍّ كان هو الموت بعينه، اضطر يوسف أن يغلق فمه ولكن على مضض، وأصيب الرجل بداء السكري، وأخذ وضعه الصحي يتدهور، فأعفي من مهماته الحساسة في وزارة الدفاع، ونُقل إلى إحدى الفرق المقاتلة كقائد

فوج على الحدود الوسطى مع إيران بعد أن نشبت الحرب بين العراق وإيران حسب الخطط المرسومة هناك في القيادة.

وهنا تبدأ قصة يوسف.

ربطتني بيوسف صداقة غريبة، ولكنها صادقة، فكلانا ـ هو وأنا ـ له قناعة تختلف عن صاحبه، فيوسف بعثي قيادي في حزب البعث، وأنا شيوعي سابق مُلاحَق من قبل أجهزة الأمن. ناقشتُ ذلك مع يوسف ذات مرة فكان جوابه منطقيًا إلى حدٍّ ما. قال لي :

ـ عزيزي علاوي البعث والشيوعية يلتقيان في أكثر من شعار وأكثر من طريقة عمل، وكما تعرف أن شعار حزبنا (هذا ما قاله يوسف) هو وحدة وحرية واشتراكية، فانظر ألا ترى أن الحرية هي شعار الشيوعيين (وطن حر وشعب سعيد) والاشتراكية ألا تجدها لبَّ الفكر الشيوعي، و نحن في حزب البعث نهدف إلى وحدة الأمة العربية والشيوعيون يهدفون إلى وحدة عمال العالم (يا عمال العالم اتحدوا)، وكما تعرف إننا في حزب شمولي منضبط وقد مارسنا العمل السري حِقبة من الزمن، وكذلك الشيوعيون، ونظامنا الداخلي لا يختلف كثيرًا عن نظامهم وكلنا ننفذ أولا ثم نناقش لاحقًا، حتى أن كلمة رفيق مشتركة بيننا. الخلاف في الممارسات والتطبيق، وأنا أرى الحزبين يعملان لمصلحة الشعب ولكنهما مذنبين في سياساتهما الداخلية ولكل واحد أخطاؤه. إن الصداقة شيء أسمى من الحزبيات، وإنها ممارسة

وحاجة إنسانية، تميزنا عن باقي الحيوانات، ثم أنا أثق بك وأعلم علم اليقين من أنك تحب شعبك ولا تعمل ضدنا أو معنا فلا خطر منك، ولتظل مقاولاً يسعى وراء رزقه.

رأيتُ في كلام يوسف الكثير من الصدق، والمنطق، فلماذا أجعل من فكره السياسي حاجزًا بيننا وهو جاري وأقرب صديق ليّ؟ كان بودي أن أقول له:

- لكن الشيوعيون يا يوسف ذوو أخلاق حميدة وصادقون في شعاراتهم وليسوا قتلة؛ بعكس غالبية الآخرين...

ولكن الكلمات لم تخرج من فمي لما فيها من تجريح لصديقي، ولكونه نموذج رائع للأخلاق الحميدة، فرحتُ أدمدم مع نفسي: إنك لست منهم يا يوسف، وأخلاقك بعيدة عن أخلاق البعثيين، وسوف تلفظهم أو هم يلفظونك ذات يوم.

انتبه يوسف لسكوتي وبفطنته كأنه يقرأ ما أدمدم به، قال:

- اتركها على اللّه و(مو كل أصابعك سوه).

راحت علاقتي تتطور بالرجل، فكنا نلتقي عائليًا ونذهب في سفرات ترفيهية وراح أطفالنا يكبرون سوية وكأنهم أخوة. في كل ضائقة يجدني إلى جنبه، وفي كل ضيقة يكون إلى جنبي، ولفرط ثقته بي راح يشركني في الكثير من أسراره.

ازداد المرض على يوسف، وازدادت الحرب ضراوة، والغريب أن المسؤولين في المنظمة الحزبية التي يعمل فيها يوسف لم يلتفتوا

لوضعه الصحي الحرج، بل أرسلوه إلى أكثر الجبهات سخونة. كان الرجل مقدامًا وقد أحبه الجنود كثيرًا، فلم يحتج أو يتذمر، وترك قدره بيد اللّه، فلم يعترض أو يتحجج بمرضه الذي أصبح يهدد حياته بجد.

قصَّ يوسف علي ما حدث له ذات مرة في الجبهة قائلا:

- بعد معركة ضارية داخل الأراضي الإيرانية مع فرقة من الجيش الإيراني من أجل الاستيلاء على مدينة حدودية صغيرة داخل إيران، استولينا نحن على تلك المدينة القريبة من جبهة (خانقين) حيث آبار النفط، ولكننا وجدنا المدينة خالية من السُكَّان، ربما أخليت قبل وصولنا إليها بقليل. لقد ترك الناس هناك بيوتهم بما فيها من أثاث بسيط، وبعضهم ترك القدور بما فيها من زاد وهربوا على عجل.

عند تجوالي مع مجموعة من الجنود لتفتيش البلدة سمعت أنينًا يأتي من باطن الأرض في أحد البيوت المهجورة. استعد الجنود المرافقين لي لكل طارئ، ورحنا نفتش الدار غرفة غرفة، وإذا بالصوت يأتي من سرداب تحت إحدى الغرف، كان مساعدي وهو - ملازم ثانٍ- شابًا مقدامًا، استأذنني في تفتيش ذلك المكان وأخذ معه جنديين ونزلا إلى أسفل الغرفة عبر سلم حديدي متحرك. وجدوا هناك امرأة شابة تحاول إسكات طفل على يدها وهو في أشهره الأولى، والذي كان يصرخ من شدة الجوع ربما، والأم الشابة عبثا تلقمه ثديها الذي جفَّ الحليب به من شدة الخوف.

أخرجوا المرأة وطفلها إلى صحن الدار، وتجمهر الجنود من حولها. لقد كانت شابة رائعة الجمال كساها الخوف هالة من الذهول. فكانت عيون الجند تفترسها ولسان حالهم يقول: فلننتقم من الفرس المجوس.

زجرت الجنود المجتمعين حول المرأة، وأمرتهم بالذهاب كلاً إلى موقعه، فانصرفوا على مضض، وأصدرت أمرًا لمساعدي بأن يبحث للطفل عن حليب في تموينا، فجاء الرجل مسرعًا بقنينة من الحليب لا أعرف كيف تدبرها في ذلك الظرف الصعب.

دعوت المترجم الذي معنا أن يطمئن المرأة ويهدئ من روعها، وأعطيتها قنينة الحليب لتطعم رضيعها، وأمرت مساعدي أن يرشدها إلى الجهة التي انسحب منها الجيش الإيراني، أمرتها بالذهاب فورًا في تلك الطريق، وأن تسير بسرعة ولا تتوقف، ولا تلتفت خلفها... لقد خشيت عليها حقًا من جنودنا المرابطين في تلك الجبهة منذ أشهر.

بقيت واقفًا هناك أراقب المرأة وهي تتعثر بسيرها إلى أن اختفت عن الأنظار.

عدت مهمومًا إلى المقر المؤقت الذي أقامه الجنود لقيادتهم في إحدى الدور، وجلست أتخيل ماذا سيحلُ بزوجتي وابنتي الطفلة لو امتدت الحرب إلى بغداد؟

ما كان يزيد من همي وقلقي هو إنني أدرك دوافع تلك الحرب العبثية، ومن يسعر أوزارها.

بعد أن عاد يوسف من تلك المعركة إلى أهله في بغداد، ليحضر موعد فحص طبي دوري لحالته المرضية في مستشفى الرشيد العسكري، سبقه تقرير عن تلك الحادثة إلى بغداد، فاستدعته المنظمة الحزبية، وراحت تحاسبه على هذا السلوك غير المبرر مع عدو كافر كان سيتصرف بكل وحشية لو أنه تمكن منا لا قدر اللّه!

ازدادت حالة يوسف المرضية سوءًا إلى حد الخطر، وأصبحت تهدّد حياته، ولكن المنظمة الحزبية التي ينتمي إليها في بغداد لم تهتم به، وبدلاً من أن يساعدوه، عقدوا له مجلسًا تأديبيًا، وطلبوا منه أن يبرّر تركه للجبهة وقدومه إلى بغداد بدون إذن من المنظمة، فقد وجدوا أن المرض حجة غير كافية وإنما اتهموه بالإهمال وحتى بالتخاذل، ولولا صلة القربى التي يمت بها إلى أحد قادة الحزب والذي استشهد في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم ورافق الرئيس في تلك المحاولة لتمت تصفيته.

نُقِل يوسف على أثر ذلك إلى الجبهة على الحدود الشمالية، وعند وداعي له في المحطة العالمية (وهي محطة رئيسية للقطارات تقع وسط بغداد) همس في أذني أنه قد لا يعود من تلك السفرة حيًا، وأوصاني بأسرته، وأضاف: سوف تكشف لكم الأيام القادمة ما هو حجم الكارثة التي ستحل بالعراق، ومن يقف وراءها، وأضاف: أرجو أن يظل الكلام سرًا بيننا.

بعد شهر ونصف من سفر يوسف إلى الجبهة الجديدة، وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، طرق باب بيتي اللصيق لبيت يوسف جنودٌ من الانضباط العسكري ليخبروني أن يوسف يرقد في مستشفى الرشيد العسكري، وهو بحالة حرجة أثر تعرضه لحادثة اصطدام مع جرار زراعي (تراكتر) عند سفح أحد الجبال، انقلبت سيارة الجيب العسكرية التي كانت تقله على أثر ذلك الاصطدام، ولكن سائقه استطاع القفز من السيارة قبل أن تهوى إلى الوادي فأبلغ عن الحادث.

لا أعرف لماذا طرقوا باب بيتي أنا، وكيف اختاروني أنا ليبلغوا عن الحادث، ربما بتوصية من يوسف في حالة وقوع شيء له أن أبلغ أنا أولاً؟.. كان الحادث صدمة موجعة لي، هزتني كما لم يهزني حادث قبلها حدث، وتمنيت لو أستطيع أن أفتدي يوسف.

لم أستطع طرق باب بيتهم ليلاً وإخبار زوجته بالأمر قبل التحقق من حالته، فذهبت بسيارتي إلى أحد أخوة يوسف الساكنين في الطرف الآخر من المدينة، وأيقظتهم من نومهم، ونقلت لهم ما قاله العسكري (العريف) الذي نقل لي الخبر، فتوجسوا شرًا، فارتدى أحد أخوته ملابسه على عجل وذهب معي إلى مستشفى الرشيد العسكري، عسى أن نسمع هناك ما يطمئننا عليه، وبعد السؤال عنه في استعلامات المستشفى والفجر قد قارب، أرسلوا معنا من يدلنا على الثلاجة حيث يحتفظون بالموتى لحين أن يأتي أهلهم ليأخذونهم مثلنا.

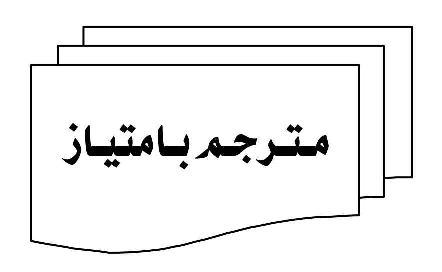
كانت الثلاجة مليئة بالجُثث، أكداس من القتلى لا تعدُ ولا تحصى، ولم نهتدِ إلى جثمان يوسف إلا بصعوبة.
لقد بكيتُ بُكاءُ مُرًّا عندما كشفتُ وجهه وتعرفتُ عليه رغم التشوه الكبير الذي لحق به.

أخذنا جثمانه معنا بعد أن وضعوه لنا في تابوت من الخشب لفَّ بعلم العراق، وكان الصبح قد انبلج، فذهبنا به إلى بيته لتفجع به زوجته وطفلتها.

بعد أن ألقتْ زوجته النظرة الأخيرة على شريك حياتها؛ احتضنتْ التابوت، وراحت تصرخ أنهم قتلوا يوسف، نعم إنهم قتلوه وتلك طريقتهم المعتادة، وظلت تصرح ونحن نحاول إسكاتها خوفا عليها من القتلة؛ حتى أغمي عليها.

لقد ودَّعني يوسف وداع من لا يعود حيًا هناك في المحطة العالمية.
وظلَّ سرُّ الأيام المرعبة التي تنتظر العراقيين مدفونًا مع ذلك الجسد الممدَّد في تابوت من الخشب يلفُّه كما يلِفُ ذلك السر؛ العلم العراقي.

وارينا جثمانه الثرى في قبر متواضع في القرية التي وُلِد فيها، قريبًا من القصر الأوسط، وطُوي الحادث وسُجِّل ضد مجهول، وتلك طريقة الرئيس في تصفية كل فكر مخالف.



مترجم بامتياز

أحاول كتابة أحداث مرَّت بي شخصيًا في آخر العمر الذي لا يُحسد عليه أي عراقي، مضيفا إليها شيئًا من خيالٍ لم يعد يهيم بين السِّحاب، ولكنني مجبرٌ على الكتابة عن أحداث وأسماء وأماكن لا علاقة لها بما أريد أن أرويه لكم عن قصة (أبو السوم) وكما رواها لي، والعُهدة على الراوي، فكانت تلك الأحداث والأسماء تظهر رغمًا عني، والشيء بالشيء يُذكر.

لا أعرف ردة فعلكم، هل ستصبرون، وترغبون فعلاً أو مجاملة، في المضي قدمًا في قراءة كل تلك التفاصيل؟

ما جرجرني للكتابة عن سالم اليوم، هو أن أربع رسائل وجدتها في صندوق البريد وكلها رسائل رسمية، وكل واحدة منها تحتوي على عدة صفحات.

في خضم حياة الفقر والمعاناة التي عشناها في عراق الخمسينيات من القرن الماضي، ربحتُ (بطاقة يانصيب) فقد حصلتُ على زمالة دراسية في جامعة "الصداقة بين الشعوب" في موسكو.

أخذتْ تلك الجامعة بيدي من عامل صياغة مغمور إلى مهندس!؛ كان ذلك قبل الكارثة التي حلّتْ بالعراقيين أثر انقلاب شباط بسنتين.

التحقتُ بتلك الجامعة التي لم أكن أحلم بها أو بغيرها من قبل، بعد أن قضيتُ العمر كدحًا في النهار، ودراسة في المساء.

تأسّستْ تلك الجامعة في أيام "المرحوم" خرشوف رئيس الاتحاد السوفيتي السابق، ـ سأظلُ أترّحم عليه، فأيامه كانت رحمة لا فيها عولمة ولا إرهاب ـ.

وبقرار ودعم من حكومة الإتحاد السوفيتي؛ باشرتْ الجامعة عملها عام ١٩٦٠ تحت اسم جامعة الصداقة بين الشعوب. ثم أطلق اسم الزعيم الكونغولي الراحل باتريس لوموبا على تلك الجامعة بعد أن قتِل هذا المناضل الكونغولي الشريف على يدّ المستعمرين البلجيكيين. وأصبح اسمها جامعة "الصداقة بين الشعوب" المسمّاة باتريس لوموبا [٢٨] .

كانت إحدى كليات تلك الجامعة تدرّس الطب، وشاء قدري أن أدخل المستشفى ليستأصلوا لي أجزاءً من معدتي بعد أن عبث بها تشريب "الباقلاء" أو كراعين "الباجة" في بغداد على مدى سنين عدة، المهم أنني أدخِلتُ المستشفى المرّقم ٤٦ والذي يتدرب فيه طلاب كلية الطب من جامعة الصداقة بين الشعوب.

أفقتُ ذات صباح على ضجَّة في الغرفة المجاورة لي في تلك المستشفى، فجرجرتُ نفسي بملابسي البيضاء التي تكشف؛ أقول تكشف ولا تستر الكثير من جسمي؛ إلى الغرفة المجاورة، فرأيتُ هناك امرأة روسية في خريف العمر شعرها أحمر يذكِّرك بصوف الغنم الأحمر الممشَّط جيدًا، ووجهها قرصٌ من العافية تكاد الخدود فيه تنفر دمًا.

نُقِلتْ المسكينة من إحدى القرى القريبة للعاصمة موسكو لتستأصل الزائدة الدودية، والتي لم تعد تحتمل خمره الفودكا المحضرَّة محليًا والمسمَّاة (سماكونكا) حيث تفوق نسبة الكحول فيها ٨٠٪ فحاولتْ أن تنفجر. نُقِلتْ المرأة في سيارة إسعاف إلى تلك المستشفى.

كل شعب على أرضنا هذه له عاداته وطبائعه، والكل راضٍ بما قسمه اللّه له.

والضجة في ذلك الصباح سببها تلك المرأة.

حدث ذلك عندما بدأ واحدٌ من طلبة الطب أثناء زياراتهم اليومية للمرضى يكشف على تلك المرأة رافعًا الغطاء من على وجهها، وكان صاحبنا من الكونغو... تفاجأتْ المسكينة بسواد بشرته ومنظره، فلم ترَ رجلاً بهذا السواد في حياتها من قبل، فراحتْ تصرخ وترسم علامة الصليب مستنجدة، ظانَّة بصدق أنه واحد من الشياطين!.

دخل سالم بيتنا أول مرة يتمايل بكل غنج رغم أن عمره قد تجاوز مرحلة الغنج. فاجأني بغنجه، فقد رسمتُ له صورة مختلفة تمامًا قبل أن التقي به، تعجبتُ بما شاهدت منه، وتذكرتُ قصة الفلاحة الروسية، ولكنني جهلت ما يجب عليَّ أن أقوم به، هل أرسم علامة الصليب مثلها لأطرد الشياطين؟ ولكنني لستُ من قوم عيسى، هل أقرأ "أعوذ برب الفلق"، ولكنني لستُ منهم أيضًا، فتركتها على الله، ورحتُ أجامل الرجل. أكيد أنه كان رجلاً، فشواربه كانت قد تركت أثرًا فوق شفته. وهنا تذكرتُ القول الشائع على لسان إحداهن:

(شفت شواربه وتغزلت بيه لوما شواربه ما كنت أللفيه).

بعد أن حلَّ الخراب في بلاد ما بين النهرين، والتي وُلِدتُ فيها غصبًا عني، وكُتِب اسمي في سجلاتها على أني فلان الفلاني وُلِد في الأول من تموز ككل العراقيين، وكذلك ديني وقوميتي، ولغتي وبذات الطريقة، أي غصبًا، عني وهذا قدري.

اضطررتُ لترك كل "العزّ" الذي كنتُ أعيش فيه في دار السلام، لأهاجر إلى بلدٍ أظلُّ أتحسَّرُ فيه على رؤية ذبابة أو صرصور أو مروحة سقفية.. بلد لا أدهن فيه حذائي إلا مرة كل ثلاثة أشهر، وفي تموز وأنا أتدثر فيه بلحافي هربًا من برده الذي لا يرحم.

تعلمتُ في حياتي لغاتٍ عدة، ولكنها لم تنفع كلها في وطني الجديد، فلغة أهل البلد الذي قذفني إليه (سونامي) السيد القائد، لا يمكن فكُّ رموزها بالهين، وقد قال عنها الرحالة العربي "ابن بطوطة" رحمه الله من قبل، إنها لغة كلاب البحر، والله أعلم.

كنتُ أحارُ في معرفة ما تريده البلدية مني برسائلها شبه اليومية، والتي تصلني بالبريد إلى البيت كل صباح، فغدتْ تلك الرسائل تسبِّب لي الخوف والقلق.

لا بد أنكم تعرفون مدى الرعب الذي ينتاب العراقي حين تغلق الباب بقوة، وحين تأتيه رسالة من الدولة.

كنتُ في السابق أستلم رسائل استدعاء من مديريات الأمن العراقية المختلفة كل شهر تقريبًا، فكان الخوف هو الهاجس الأول الذي ينتابني قبل فتح أي رسالة حتى لو أتتْ غير مغلقة.

نصحني أحد معارفي الذي يسكن في مدينة أخرى بالاستعانة بسالم اللبناني قائلاً:

- هو خير من يعينك على محنة قراءة هذا الكمّ من الرسائل، فهو مترجم بامتياز، ولكنه ذو مزاج خاص فانتبه لذلك.

و"شجابك على المر غير الأمر منه"؟

- من هو سالم هداك الله؟

"سؤال ذكي في مكانه" كما يقول المحللون الإستراتيجيون هذه الأيام على الفضائيات"، إذًا من هو سالم؟

سأترك هذا إلى الغد، فالساعة الآن الثانية صباحًا.

نحن في يومٍ جديد.

كان سالم جميل الوجه، قصير القامة، ترك شعر رأسه الذي ابيضَّ أغلبه يصل إلى الأكتاف يسرح فيه النسيم شمالاً وجنوبًا (عل الخدود يهفهف ويرجع يطير).

جاء سالم إلى السويد وهو شاب يافع بعد أن جاب دول عدة قبل الوصول إلى وطنه الجديد، ولا أعرف أي (سونامي) قذف به هو الآخر إلى هنا؟، ربما حرب لبنان الأهلية، أو حرب إسرائيل على لبنان، المهم أنه هرب من بلده الذي وُلِد فيه ـ لبنان ـ وظلّتْ تتلقفه أيدي المهربين وأحضانهم قبل أن يصل إلى برِّ الأمان، ومن يوم لقائنا الأول راح يقصُّ عليَّ قصته بتفصيل مُمل وكأنها ضريبة واجبة السداد ملخصها :

ـ ترك سالم لبنان برفقة أمه التي كانت لا تزال معطاء بتأشيرة دخول إلى بلغاريا بعد أن أخذا معهما كل ما يمكن أن ينفعهما من حلي ونقود في بلاد الغربة. استأجرت الأم هناك غرفة بسيطة في ضواحي صوفيا دلهما عليها دلال عربي مقيم فيها، ومهنته فيها كانت تصيُد القادمين في محطات القطار أو عند بوابة المطار. بعد أن أوصل الدلال سالم وأمه إلى تلك الغرفة، أخذ منهما أجرة الأسبوع مقدَّمًا مع أجور الدلالية، وترك سالم وأمه ليقضيا ليلتهما الأولى تحت رحمة الكوابيس.

في صباح اليوم التالي ذهبا إلى ذلك الدلال من جديد ليدلهما هذه المرة على تجَّار البشر (المهرِّبين). أخذ الدلال سالم وأمه وقد تدلى على صدرها صليب من الفضة، لأحد معارفه في مكتب يقف

عند بابه حُرَّاس عرب أيضًا، وهناك التقوا بالمهرِّب، والذي يتستر تحت اسم الدكتور. أقنعهم (الدكتور) بأن ينقلهما إلى اليونان بواسطة السيارة، وهناك ستفتح لهما أبواب أوربا، وهذه أرخص الطرق للوصول إلى العالم الجديد. أما إذا كان معهما مال كافٍ؛ فسوف يوصلهما مباشرة لأي دولة يرغبان فيها.

بعد مساومات صعبة استخدم فيها الطرفان كل وسائل الإقناع، فدموع الأم لم تتوقف وكذلك رسائل العيون الواعدة بمكافآت مغرية، تقابلها شهامة كاذبة من قبل المهرب ووعود قاطعة وعطف زائف؛ اتفقا على أن يعطياه كذا دولار في يوم السفر الذي سيوصلهما إلى اليونان. وعدهما المهرب كذلك بأنه سوف يرسل معهما مرافق مجرب عارف بكل تفاصيل الطريق، يوصلهما إلى العاصمة اليونانية أثينا، ويرتب إقامتهما فيها، وحدَّد لهما موعدًا لذلك لن يطول سوى بضعة أيام.

خلال تلك الأيام القليلة جمعت أم سالم كل ما هو ثـمين من بقايا مصاغ ودولارات، حرصت على إخفائها حتى عن ابنها، وأخفتها في جيب داخلي خاطته بمهارة لا يمكن الوصول إليه إلا بعد عبور كل محرَّمات جسد المرأة.

جاء سالم وأمه إلى الموعد المحدَّد بالضبط، ومعهما حقيبة صغيرة جدًا، أخذ المهرب باقي حصته من النقود المتفق عليها، ولم يقبل أن يتنازل عن دولار واحد رغم توسلات أم سالم.

أرسل الدكتور بالفعل سالم وأمه مع واحد من أتباعه ليلتقوا بمجموعة من أمثالهم عرب هاربين من نعيم العروبة، في سيارة تسع سبعة رُكَّاب، انطلقت بهم السيارة فورًا، والكل فيها صامت ولا يكلِّم أحدٌ جاره، ولا حتى يحاول التطلع إليه أو التطلع من النافذة. سارت السيارة بالهاربين بضع ساعات دون توقف على طرق ريفية، حتى وصلوا إلى غابة، وهناك توقفت السيارة وأمرهم مرافق المهرب بالنزول منها جميعًا.

بعد أن نزل آخر راكب من السيارة انطلقت عائدة في الطريق الذي أتت منه تاركة ركابها في حيرة لا يعرفون في أي أرض نزلوا، والشمس أخذت تسرع نحو المغيب.

أمرهم مرافقهم بالسير متفرقين بين دروب الغابة مشيرًا إلى الجنوب، وحدَّد لهم علامة مميزة سيجتمعون عندها، وهي بحيرة صغيرة، تحيطها أشجار عالية من البلوط، وبذلك يكونوا قد دخلوا في الأراضي اليونانية، ولن تستغرق تلك المسيرة منهم أكثر من ساعة، ومن هناك سيقلهم بسيارة يونانية تنتظرهم قريبًا من تلك البحيرة إلى العاصمة أثينا.

تفرَّق الرُكَّاب، وراح كل اثنين منهم يسيران غير متباعدين كثيرًا عن بعضهم، واختار المرافق رفقة سالم وأمه، ولم تكن في تلك السفرة امرأة غير أم سالم.

من عاداتنا نحن العرب الحرص على المرأة، فنحميها من كل ما يسيء لها سواء كانت مسلمة منا أو مسيحية؛ كالأخت أم سالم!.. ظل دليلهم يردد هذه العبارة مبرّرًا بقاؤه مع سالم وأمه.

لم تمضي تلك الساعة حتى داهمتهم قوات حرس الحدود اليونانية، وراحت تضربهم بكل قسوة، وبعد أن جمعتهم جميعًا في مكانٍ واحد، سلبتهم كل مقتنياتهم، ثم أعادتهم إلى الحدود البلغارية حيث توقفت السيارة أول مرة، والغريب أن دليلهم قد نجا من الضرب بل كان يتفرج عليهم وهم يُضْربون وقد حمى سالم وأمه بالفعل فلم يطالهم الضرب، وتلك نقطة سُجِلَتْ له.

هناك، استلمت الشرطة البلغارية المنكودين، وراحت تضربهم بقسوة أكثر، وأعادتهم إلى صوفيا، والغريب أنها أطلقتهم عند ضواحي المدينة والليل قد خيَّم عليها.

راح وكيل المهرب يعنّف المنكودين اللذين لا تزال آلام الضرب توجعهم، والخوف والرعب يسيطر عليهم، وكان فقدان النقود التي لم يمتلكوا غيرها همُهم الأكبر، فقد ضاع تعب العمر بين المهرِّب وبين الشرطة.

ظلَّ المرافق يصرخ بهم متهمًا، أن واحدًا منهم قد أفشى سر الموعد. ونصحهم بمراجعة (الدكتور) بعد يومين.

تفرَّق الجميع، وراح كلٌ لسبيل حاله، واختلى الدليل (الشهم) بسالم وأمه، وراح يطمئنهما بأنه سيتكفل شخصيا بإيصالهما من جديد إلى اليونان مهما كانت الصعوبات.

سار معهما إلى غرفة يسكنها غير بعيدة في تلك الضاحية، وهناك استضافهما بكرم في تلك الغرفة الصغيرة، فقضيا فيها ما تبقى من الليل سوية.

عند هذا الموقف راح سالم يضحك متذكرا تلك الليلة:

- "يا (أستاذ) تركتني أمي رحمها اللّه على غير عادتها في مواقف مشابهة مع (أبو العبد) ونامت في جهة أخرى متحججة بعذر نسائي. أظنها خافت على فقدان آخر مدخراتنا المخفية بمهارة تحت تلك الثياب.

كان أبو العبد قاسيًا معي في تلك الليلة، ولم أجد سبيلاً للخلاص منه أو من رغباته التي امتدت حتى فجر تأخر موعده.

لم تسلم المرحومة من أبو العبد هذا ولا محسوبك "أبو السوم" في الأيام القليلة التي قضيناها في ضيافته في تلك الغرفة، ولولا إلحاحنا الشديد لطال مكوثنا وربما رُزِقتُ بأخٍ فيها.

أخيرًا وجد سالم وأمه سيارة تنتظرهما، ومعهما راكب آخر أفغاني الجنسية على ما يبدو، وجلس الدليل في المقعد الأمامي بثقة لها ما يبررها كما ظهر، وسارت بهم السيارة إلى الحدود من جديد، وفي الطريق ذاتها تقريبًا.

أوقف الدليل السيارة قرْب غابة ربما هي تلك التي وصلوا إليها في المرة السابقة أو غيرها، فكل الغابات تتشابه هناك، كلها جميلة مخضرة تعبق برائحة الزهور البرية. كان الخوف يسيطر على سالم إلى حدٍّ الرعب مع كل خطوة يخطوها داخل تلك الغابة كما يصف، فإنها ذكرَّتهم بالسفرة السابقة.

الشمس حينها كانت ترسل أشعتها بكرم، ولكنها كانت تصل إلى الأرض على دفعات بعد أن تأخذ الأغصان الخضراء حصتها منها.

وهكذا ساروا ساعات في تلك الغابة التي بدت له وكأنها لا تنتهي، تخللها استراحات فرحه بعد أن اطمأن الجميع، وكأنهم في رحلة عائلية، عادت المرحومة لطبيعتها المرحة واستغل أبو العبد ذلك أبشع استغلال.

وصل الهاربون أخيرًا إلى مدينة يونانية صغيرة، وكان أبو العبد يسير أمامهم في المقدمة. أخرجت أم سالم كنزها المتواضع ووضعت أغلبه بيد أبو العبد ليصرف عليهم ويتدبر أمورهم حسب معرفته بعد أن توطدت العلاقة بينهما إلى حد الثقة!.

كان الجميع راضين بتلك النهاية، سالم وأمه أطمأنا بعد أن تجدد أملهما في الوصول إلى جنة أوربا، وأبو العبد كان فرحًا وسعيدا أيضًا بالساعات التي كان يقضيها مع سالم أحيانًا ومع أمه أحيانًا أخرى، بعد أن أسلما أمورهما له. ثم ان نجاح أبي

العبد في تضليل شرطة الحدود البلغارية واليونانية أكسبه ثقة في نفسه، وأرضى غروره في تحقيق بعض من ذاته في تحدي المخاطر.

"العمل هو العمل، ووقت السياحة انتهى"... هذا كان آخر تصريح لأبي العبد بعد أن سلّمنا لمهربين آخرين، وبعد أن جرّد أمي من كل مدخراتها، ولا نعرف كيف اتفق مع هؤلاء المهربين الجدد، كل ما علمناه أنهم سوف يوصلونا إلى إيطاليا وأتعابهم مدفوعة مسبقًا، وعلينا إطاعتهم بشكل مطلق فهم ثقة ويمكن الاعتماد عليهم. لم يكن هؤلاء أكثر تعففًا من أبي العبد معي ومع أمي، ولكنهم حاولوا جهدهم أن ينهوا مهمة تهريبنا بأسرع وقت، فلم تستغرق المسألة إلا ثلاثة أيام وإذا نحن على متن زورق صغير في عرض البحر. لقد سلكوا بنا طريقًا كلها رعب وخوف ومشقة، حتى وصلنا أخيرًا إلى زورق بخاري صغير رسى بعيدًا عن الساحل في منطقة غير مأهولة جنوب قرية (كافاجه) غير بعيدة عن العاصمة تيرانا، ومع الفجر أركبونا في زورق مطاطي كان مخبأ على الساحل وسار بنا ما يقارب نصف ساعة حتى وصلنا إلى ذلك الزورق العتيق، ووجدنا على متنه العشرات قبلنا.

لم أشعر في حياتي كلها خوفا وكُرهًا للحياة أكثر من تلك الأوقات المرعبة التي قضيتها على متن ذلك الزورق.

بعد أن انطلق بنا قائد الزورق ومساعداه؛ وهم من الألبان على ما أظن، وابتعدنا عن الساحل الألباني وأخذت مياه بحر (الأدرياتيك) تحيط بنا من كل جانب فلم يعد أثر لليابسة من حولنا، حتى انهار أغلب الركاب من الخوف ومن دوار البحر فقد أخذ القارب يصارع ببسالة أمواج البحر الهادرة، فراح العديد من ركابه يتقيأ بقوة من كثرة اهتزاز الزورق.. وهكذا انقضى اليوم الأول.

المسافة التي على الزورق أن يقطعها تزيد على مائتي كيلومتر على ما أظن، وتلك مسافة طويلة بالنسبة إلى زورق بخاري صغير ربما يعود تاريخ صنعه إلى أواسط القرن الماضي، فكانت أمي المسكينة في أشد حالات الإعياء ونحن في وسط البحر. جلست رحمها الله على حافة الزورق لتتقيأ آخر قطرة ماء سكنت معدتها، وصادف أن فاجأتنا موجة كبيرة فابتلعت تلك الموجة العاتية أمي المسكينة وغاصت في جوف البحر. كنتُ على بعد أمتار منها متشبثا بمسند حديدي.. صرختُ بقائد الزورق أن يوقف قاربه، ولكنه لم يعرني أدنى انتباه، فصرخ به كل الركاب بصوتٍ واحدٍ وأجبره على العودة للبحث عنها فامتثل للأمر بعد أن فشل في تهدئة الركاب، ولم ينفعه مسدسه الذي أشهره بوجوههم، ولا تهديد معاونيه، فعاد بالزورق إلى حيث سقطت المسكينة، ولكن الوقت قد فات،

ولم نجد لها أثرًا، ولا أعرف هل كنا في المياه الدولية أم لازلنا في المياه الإقليمية الألبانية.

رحتُ أصرخ وأبكي بكل قوتي حتى إنني أردتُ أن ألقي بنفسي خلفها، ولكن الذين من حولي قيدوني ومنعوني من ذلك، بعدها أطبق عليَّ قنوط كأنه الموت فتبلد ذهني ولم أعد أفقه ما يدور حولي، لم يوفق أحد من الركاب المذعورين بإخراجي من تلك الحالة رغم محاولات بعضهم الصادقة، لقد حاولوا جهدهم أن يعيدوني إلى حالتي الطبيعية ولكن دون جدوى،ولم ينبهم مني غير عدوى ذلك القنوط فأصبح الزورق وكأنه ينقل أمواتًا لا تسمع لهم صوتًا، حتى أعلن مساعد قائد الزورق الذي وصل بأعجوبة إلى الساحل الإيطالي، والليل مطبق حالك الظلمة، ولكن الجميع الذين عاشوا تلك الساعات بيأس من النجاة، فلم يكن أحد منهم قد تيقن حقًا من الوصول فعلاً إلى الساحل الإيطالي الذي أعلن عنه قائد الزورق.

أنزل الربان بضاعته من الركاب بزوارق مطاطية على دفعات وألقى بهم على الساحل شبه أموات، وتُرِكوا هناك لقدرهم.

لم أستسلم لإغراء النوم الذي غطَّ به معظم الرُكّاب، فرحتُ أسير على الساحل من دون هدف واضح، إلى أن رأيتُ طريقًا معبَّدًا تسير عليه السيارات، فأشرتُ لإحداها وتوقفتْ بالفعل، وكان فيها عدد من الشباب شبه سكارى فأقلوني معهم في سيارتهم، وهنا أنقذتني لغتي الفرنسية التي تعلمتها في مدارس

لبنان من الضياع... تعرف أننا في لبنان نتكلم الفرنسية أيضًا وبشكل جيد، فظنني الشباب سائحًا فرنسيًا ضلَّ طريقه، وسِرتُ معهم لآخر المشوار. كانوا مجموعة: ثلاثة شبان وفتاة من مدمني المخدرات والمثليين جنسيًا وغيرها من صفات الحداثة، فتأقلمتُ معهم بسرعة، وأصبحتُ كأنني واحد منهم. لم أعلم وجهة هؤلاء الشباب ولم أسألهم حتى، وكان شعاري في تلك الفترة ليكن ما يكن، فلم يعد يهمني شيء البتة.

امتدَّتْ السفرة مع الشباب لعدة ساعات حتى وصلنا مدينة اسمها (باري)، وبعد فترة توقف قليلة واصلنا السير إلى مدينة اسمها (مونتيس) وفي تلك المدينة بتنا جميعًا في كراج للسيارات، لم أسأل أيًا منهم عن وجهة سفرنا ولا عن أي شيء آخر... وفي اليوم التالي واصلوا طريقهم وأنا معهم إلى الشمال فمررنا بمدينة (أنكوونا) ثم إلى مدينة (بارما) ومن هناك إلى مدينة (تورينو) وقضينا ليلتنا فيها في شقة تعود لعائلة رفيقتنا والتي اسمها (كارمن) قبالة المتحف المصري.

كانت مدينة تورينو عاصمة الدولة الإيطالية الموحدة عام ١٨٦١ وهي مدينة جميلة يفوح فيها عبق التاريخ في كل مكان. لم نبقَ طويلاً في تلك المدينة، وإنما واصلنا الرحلة إلى الغرب وتوقفنا أخيرًا في مدينة صغيرة تقع في جبال الألب قريبة من الحدود الفرنسية، والظاهر أن تلك المدينة الصغيرة هي مسقط رأسهم ومكان عيشهم الدائم.

رحتُ أعيش مع تلك المجموعة حياتهم بكل ما فيها من تفاصيل وإلى حد الثمالة.

كان عملهم هو الاتجار بالمخدرات وترويجه، فرحتُ أعمل معهم في ترويج بضاعتهم، فاهتمَّ بي أحد زعمائهم بشكل شخصي، وقرَّبني إليه وجعلني الأثير عنده.

وهكذا قضيتُ معهم ما يقارب الأربعين يومًا. تعلمتُ الكثير من اللغة الإيطالية في تلك الفترة.

وأخيرًا جاءت فرصتي بعد أن كلفوني بإيصال كمية صغيرة من الأفيون إلى فرنسا.

زودوني بجواز سفر مزور ووثائق أخرى مزورة أيضًا بعد أن اقتنعوا أن كل وثائقي قد سُرِقت منيّ.

لم تكن الكمية المراد تهريبها كبيرة، لذا سهل إخفاؤها بين أقسام الحذاء العالي الذي فصِّل لي خصيصًا لهذا الغرض، والذي أضفى على قامتي القصيرة طولاً كنتُ أتمناه دائمًا.

الحدود هنا بين إيطاليا وفرنسا لم تكن معبرًا للتهريب، فكانت غير مراقبة بشكل دقيق، فعبرتُ بشكل طبيعي، ومن هناك سافرت إلى مدينة (جرينوبل) الفرنسية، فالتقيتُ بالناس المرْسل لهم تلك البضاعة، استلموا بضاعتهم وأعطوني المبلغ المتفق عليه، ولم يكن كبيرًا.

بعد أن أخذت المبلغ، رأيت الفرصة مناسبة للهرب من تلك المجموعة، فركبت من هناك إلى باريس في ذات اليوم، ومنها إلى السويد على الخطوط الجوية الفرنسية بجواز سفري وبالنقود التي معي.

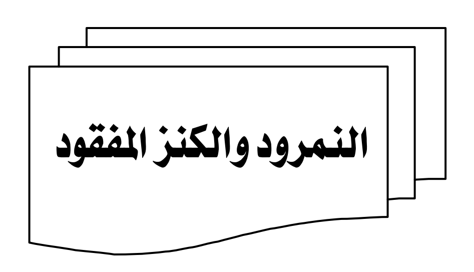
في السويد، وبعد أن غادرت المطار إلى المدينة، رميت كل وثائقي وقصدت مركزًا للاجئين حصلت على عنوانه من كتاب العناوين التليفونية، وهناك طلبت اللجوء في مملكة السويد، مُدَّعيًا أنني قدمت بواسطة سفينة روسية رمتني إلى الشاطئ السويدي. وعند سؤال البوليس لماذا السويد بالذات فكذبت عليهم مُدَّعيًا أن أختي قد سبقتني إليها.

لم أكن قد بلغت سن الرشد حينها، فكانت معاملتهم لي خاصة جدًا، حتى بعد أن اكتشفوا كذبتي أن لا أخت لي في بلدهم، ولكنهم قبلوا لجوئي، وحصلت على فرصة دراسة اللغة السويدية، وكذلك حصلت على إقامة دائمة في البلد، ثم تجنّست بعد سنين ورحت أمارس كل الأعمال الممكنة، من توزيع الصحف اليومية إلى إجراء جلسات تدليك (مساج) لكبار السن وخاصة السيدات المسنات اللواتي كُنَّ يرَّحبنَ بي في بيوتهن بكل حفاوة، ويغدقنَ عليَّ الهدايا.. وأخيرًا أصبحت مترجمًا مُجَازًا بعد أن اجتزت امتحانات اللغة السويدية والفرنسية والعربية... كما ترى فإنني مستعد لمساعدتك في كل أعمال الترجمة في البلدية أو مراجعة الأطباء أو غيرها.

شكرته على كل حال، وتعاطفت معه على ما حلّ به، وإن كنت مقتنعًا مثلكم بأن أغلب ما رواه أبو السوم مجرد أكاذيب.

بعد أن شرب قهوته، وقرأ لي بعض الرسائل، وشرح لي مضمونها بلهجة لبنانية محببة استأذن وأنصرف.

لم أعد أراه بعدها، حيث وجدت طريقة أفضل لحل معضلة الرسائل تلك، فقد ساعدتني البلدية في ذلك حيث وجد هناك من يتقن الإنكليزية، وكانوا يساعدون الوافدين الجُدد مثلي لحين انتقالي إلى جنوب السويد، وهناك حرصت على فرصة تعلم اللغة بشكل يجنبني الاستعانة بالغير إلا في الحالات الصعبة.



لستُ هنا بصدد الكتابة عن كنز القراصنة المفقود الذي نراه في أفلام القراصنة، حيث السفن الشراعية تمخر البحار والقراصنة القُسَّاة يصارعون الموج، ولكن عن بلد كله عبارة عن كنز مفقود وهو العراق الذي نعرفه.

عندما تكون الأرض (نزيزة) أينما تحفر يتدفق الماء منها إلى السطح، وهنا في العراق أينما تحفر تظهر الكنوز والآثار.

قرأتُ ذات مرة في أحد المصادر، أنه يوجد في العراق عشرون ألف موقع آثاري غير مُنقّب فيه إلى الآن، ولم تُكتشف كنوزه، وبلغة أخرى (لم تُنهب بعد).

اليوم ونحن في جلسة سمر عراقية تربع (الطاولي) وسطها، وصحن من (الكليجة) و(إستكانات) الشاي، دار الحديث بيننا عن كنز النمرود المفقود.

كنتُ قد قرأتُ سابقًا عن الموضوع في محرك غوغل، وكيف أن هناك كنز من الحلي الذهبية عثر عليه الأثريون العراقيون في مدينة النمرود الواقعة على بعد ٣٧ كم من مدينة الموصل في عام ١٩٨٨، وكانت تلك الآثار في حالة شبة جديدة وكأنها اشتريت توًا من سوق الصياغة، وقد بلغ عدد القطع التي عُثر عليها ٦٥٠ قطعة مختلفة الحجم، ومنها نماذج (موديلات) لا تزال تُستعمل إلى الآن في ريف العراق الجنوبي مثل (تراجي الشباك والخلخال وسلاسل كأنها ايطالية الصنع وغيرها من السلع المتقنة الصنع بشكل يلفت النظر ويدل على تطور تقني لا يُصدَّق).

يقولون في غوغل والعهدة على الراوي:

بعد أن عُثِر على هذا الكنز الفريد من نوعه، والذي يعد أهم كشف أثري في القرن الماضي على النطاق العالمي. قامت الحكومة بتخزينه في قبو مُحصَّن في بناية البنك المركزي العراقي، وبذلك سلم من نهب (أرشد، زوج أخت الرئيس صدام حسين) وجماعته، دون أن تجري دراسة علمية له على مختلف الأصعدة، المهم خزّن هناك، وتلك (مكرمة) من مكرمات القائد. وبعد سقوط بغداد على يد القوات الأمريكية الغازية عام ٢٠٠٣ حاولت مجموعة من اللصوص الكبار الاستيلاء على الكنز، ولكون القبو مُقْفل ومُحصن بشكل عصيّ ومفاتيحه عند موظفين مختلفين تواروا عن النظر بعد السقوط، عندها قام

اللصوص بإطلاق قذيفة آر بي جي ليكسروا باب القبو، ولكن القذيفة ارتدَّت عليهم وقتلت بعضهم.

نجحت القوات الأمريكية في الوصول إلى الكنز والاستيلاء عليه، وقام الحاكم العسكري الأمريكي (بريمر) بعرضه على الصحافة في قاعة المتحف الوطني العراقي، والذي سُرِقت معظم مقتنياته في وقتٍ سابق، وبإشراف ومباركة قوات الاحتلال.

قيل بعدها إن كنز النمرود أخِذ إلى أمريكا من أجل توثيقه وعرضه وغيرها. ولم نسمع خبرًا بعدها عن هذا الكنز وأين حلَّ به الدهر، وليته ظلَّ مدفونًا تحت الأرض لأجيال قادمة تحترم تراثها.

وإلى هنا كل الأمور معروفة من قبل الجميع ربما ولا جديد فيها وقد وثقها غوغل في أرشيفه، ولكن صادف أن واحدًا من ضيوفي في تلك الأمسية، كان عضوًا في الفرقة الأثرية التي عثرت على ذلك الكنز.

وهنا طاب الحديث لأبي حسين وخاصة بعد أن تغلب بصعوبة على أبي محمد في لعبة الطاولة، فراح يروي لنا وبشوق كيف عثروا على كنز النمرود قال:

ـ كنا مجموعة من خريجي الآثار من جامعة بغداد في إيفاد تدريبي للبحث عن الآثار في مدينة الموصل، وكانت مجموعتنا

بقيادة الأثري الدكتور وليد الجادر، ومن ضمن بعثتنا فتاة متوقدة الفطنة والذكاء من مدينة الشعب في بغداد، وكان اسمها على ما أذكر "فيحاء" ولا أذكر اسم أبيها أو كنيتها.

اعتدنا جميعًا على الاستراحة في إحدى غرف قصر النمرود حتى أصبحت وكأنها مقرًا لنا.

واصل أبو حسين حديثه قائلاً:

- اعتدنا الجلوس في تلك الغرفة العادية جدًا من غرف القصر دون غيرها، فنعود لها كلما نتعب من البحث، وكنا نترك حاجياتنا وبعض ملابسنا في الغرفة ذاتها.

أثناء إيفادنا كنا نقيم في فندق المحطة في الموصل ونتناول طعام الغداء في مطعم في مدينة الشرقاط القريبة من الموقع. ذات نهار جميل رفضت فيحاء الذهاب معنا لتناول الطعام كالعادة، وطلبت أن تظلَّ وحدها ونجلب لها معنا شيئا تأكله عند عودتنا. احترمنا رغبتها وانطلقنا متلهفين لتناول وجبة كباب في المدينة، وظلّت فيحاء وحدها في غرفة استراحتنا.

وحين عُدنا بعد الغداء وجدنا فيحاء مشغولة البال بشكلٍ غير عادي. بادرتنا الفتاة عندما اجتمعنا هناك حتى قبل أن تأخذ (لفة الكباب الذي لا يزال دافئا وتفوح منها رائحة الطرشي) قائلة:

هل لاحظتم شيئا غريبا هنا في غرفة جلوسنا هذه؟

رحنا نتلفت يمنة وشمالاً دون أن نلحظ شيئًا، وهنا أشارت إلى بلاطة من الحجر وُضِعت بشكل مغاير لرفيقاتها دونما سبب هندسي معقول.

قالت فيحاء : منذ زمن وأنا أتفحص بلاط أرضية الغرفة هذه، فوجدت أن بلاط الغرفة قد رُصِف بشكل هندسي متقن، فأثارت انتباهي تلك البلاطة المخالفة لرفيقاتها، ولم أجد سببًا هندسيًا أو جماليًا يدفع بانيها لوضعها بتلك الصورة المخالفة لرفيقاتها، واليوم بعد تفحصي الدقيق توصلت إلى نتيجة أن وراء تلك البلاطة سبب مقصود، وأريدكم أن تعاونوني في كشف سرِّ هذه البلاطة.

أثارتنا ملاحظة فيحاء حقًا، فجلبنا قِسْمًا من أدوات التنقيب المطروحة في الخارج، ورحنا وبكل حذر نحرِّر البلاطة من مواد البناء التي تشدها إلى أخواتها بأزاميل اعتدنا عليها في عملنا، فرفعنا البلاطة دون أي ضرر، ورحنا نبحث في الأرضية التي تحتها، وبعد أن طرقنا على أرض الغرفة في ذلك الموقع بالأزميل، عرفنا أن تحت الأرضية قبو ما، فواصلنا الحفر بكل حرص، وأزلنا غطاء ذلك القبو، فإذا به قبر ملكي مهيب.

طلبت فيحاء منا أن تكون هي أول من يكتشف القبر، وهذا حقها طبعًا فهي التي اكتشفته، فساعدناها في الهبوط إلى تحت، وكانت أول النازلين إلى داخل القبو، ومن هناك نادتنا بكل انفعال أن أنزلوا لقد عثرنا على كنز كبير.

نزلنا إلى هناك فشاهدنا حمّامًا من المرمر متقن النحت (بانيو) وفيه هيكل عظمي مُمدَّد داخله يحمل بين ذراعية هيكل عظمي آخر لطفل صغير.

بعد أن أزحنا الغبار عن تلك العظام بكل حرص واحترام؛ رأينا الحلي الذهبية قد غطّت الذراعين والصدر والساقين والبطن، وكنا مذهولين مما نرى. كانت فرحتنا لا تُوصف، ولكن يخالطها شعور بالرهبة والخوف. أيقنّا أننا قد اكتشفنا شيئًا مهمًا جدًا.

أبقينا بعضنا كحُرَّاس لهذا الكنز، وراح بعضنا الآخر إلى الشرقاط ليتصل من هناك بمديرية الآثار في مدينة الموصل لترسل لنا إسنادًا وحماية، وتخبر بغداد بأننا قد عثرنا على أهمّ كنز خبأته تلك الأطلال.

كثر الزوار الرسميون وكثرت العجلات والعدد والخبراء، وأبعدنا نحن المتدربون عن المعمعة، ونُقل الكنز بعدها إلى بغداد بصناديق خاصة.

أصدر وزير الثقافة حينها ("الرفيق" لطيف نصيف جاسم) أمرًا بمكافأة الأثرية فيحاء لاكتشافها الكنز بمبلغ قدره فقط (خمسون دينارًا!!).

تصوروا كنز دفعت شركة (كارتير) مبلغ مليون دولار لتصويره فقط؛ ورُفِض طلبها كما أشيع، بينما مكتشفة

الكنز فيحاء لم يذكرها أحد إلى اليوم واكتفوا بمكافأتها بذلك المبلغ التافه.

هكذا كانت تدار الثقافة في ذلك الزمن الصعب، أما كيف تدار اليوم في هذا الزمن المر، فتلك مسألة أمرّ...

صرَّح أحد المسؤولين العراقيين الجُدد للصحافة قائلاً: أن كنز النمرود موجود، دون الإشارة إلى مكان تواجده.

ذكرَّني تصريح الوزير بقصة تروى:

(أن أحد الأثرياء كان مسافرًا على ظهر يخت في وسط البحر، وصادف أن أحد الخدم المسافرين معه يجلي إبريقًا ثـمينًا فسقط من يده في البحر وغاص في الأعماق، فحار المسكين كيف سيبرِّر فقدانه الإبريق لمخدومه صعب المزاج.

قال الخادم لمخدومه:

- سيدي إذا فقدتَ شيئًا وتعرف أين مكانه هل تعتبره مفقودًا؟

أجابه الثري:

- طبعًا لا.

- إذًا سيدي أنا أعرف أن الأبريق راقد الآن في قعر البحر في هذه النقطة بالضبط حيث سقط من يدي للتو، وأرجو أن لا تعاقبني على ذلك، فالأبريق لم يُفقد.).

نتساءل هنا:

هل أن كنز النمرود موجود حقًا كما صرَّح المسؤول؟، أم هو (راقد في بحر أمريكا) مثل إبريق صاحبنا، ويُستنسخ الآن في الولايات المتحدة الأمريكية لتعود لنا نسخة مزورة منه بعد مطالبة مُلّحة... هذا إن عادت !.



هوامش الكتاب

[١] المندائيون هم مجموعة بقايا سكان العراق الأوائل، موحِّدين ولهم دينهم الخاص وطقوسهم المميزة التي يتم أغلبها على ضفاف الأنهار، يطلقون شعر الرأس واللحى ويرتدون الملابس البيضاء في أغلب الطقوس ولهم لغة خاصة مميزة، ويحترفون الحِرف اليدوية كالحدادة والنجارة وجُلُّهم صاغة مهرة وقد طرقوا أبواب العلم والمعرفة بشكل مميز.

[٢] طقوس الزواج المندائية يتم أغلبها في الماء الجاري، وعادة في الأنهار لذا ينتظرون الدفء ليقوموا بطقوس الزواج حسب عُرفهم.

[٣] الطرادة نوع من القوارب المنتشرة في جنوب العراق تكون ضيقة وطويلة وطُليتْ بالقار، ذات مقدمة مرتفعة، والعديد من سُكّان الجنوب يقتنونها كواسطة نقل أحيانًا، وكنا نقتني واحدة كنوع من الرفاهية.

[٤] المرحوم طالب بدر محامي مندائي من أهل البصرة، وهو شخصية اجتماعية وطنية معروفة.

[٥] الجدر هو قدر الطبخ باللهجة الدارجة، وأحمدي هو مسؤول "السافاك" المخابرات الإيرانية في تلك المناطق.

[٦] جاءت تلك السطور في مسودة رواية لأحد الكُتَّاب من سَكنة تلك القرية، شارحًا فيها كيف تلصص هو وطفل صديق له على تلك الممارسة، ولم يكونا على معرفة بأسرار الجنس بعد.

[٧] كثر الحديث عن (علم الجفر) وخاصة في أدب الشيعة فيقولون إنه علم خصَّ النبي محمد به الإمام علي بن أبي طالب قبل وفاته وهو علم يشمل كل المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان ويكون إلى يوم القيامة، وقد جُمِع في جلد شاة وهو أربعة أنواع منه جفر النبي المار ذكره وهناك الجفر الأبيض والجفر الأحمر والجفر الكبير الجامع. علمٌ يستطيع الإجابة عن أي سؤال عن أي زمان وفي كل مكان! وهو عبارة عن ٢٨ باب وفي كل باب ٢٨ صفحة وفي كل صفحة ٢٨ سطر وفي كل سطر ٢٨ خانة وفي كل خانة ٤ أحرف، وروي عن الإمام جعفر الصادق قوله إن الجفر علم يخبر بما كان وبما سيكون من بداية الخليقة إلى يوم القيامة. والحروف المستخدمة فيه بترتيب الأبجد هوز، ولتلك الحروف قيمة عددية وستجدون فيه أشياء عجيبة وغريبة.

[٨] القبالا اليهودية هي مجموعة التفسيرات والتأملات الباطنية والصوفية عند اليهود، وكان القباليون يرون أن معرفة أسرار الكون توجد في أسفار النبي موسى الخمس ويرفضون أي تفسير غيرها ويرون أن كل كلمة في التوراة تمثل رمزًا، وكل علامة أو نقطة تحوي سرًّا داخليًا.

عند القباليين أن حروف الكتاب المقدس لها قيمة عددية تكشف عن أسماء الإله المقدس، وأفضل كتابات القباليين تكون دائرة في أفضل حالاتها، كثيرة الالتواءات والمنعطفات مغموسة بالغموض. في بادئ الأمر كانت على شكل تميمة سحرية لحماية الحوامل والمواليد وللوقاية من السحر والأبالسة والعين الحاسدة، وتجد في كتب اليهود مثل كتاب الزهار وكتاب السناء كثيرًا من علاقة الأعداد بالمحسوسات الدينية البابلية والمصرية القديمة باسم الحكمة الخفية.

تعتبر القبالة أعلى درجات القداسة علَّمها يهوه بنفسه لجماعة منتقاة من الملائكة السبعة، وأهمهم الملاك عزازيل وهو من الملائكة الذين خالطوا البشر عند بدء الخليقة.

إن دور اليهود في السحر قديم جدًا ظهر قبل ظهور حركة القبالا لأن السحر ظهر في أيام النبي سليمان، وقد تعلموا السحر من شياطين الجن، كما تعلموا ذلك من البابليين عند نفيهم إلى هناك، وكانوا يمارسون السحر بنوعيه الأسود والأبيض.

(منقول عن محرك غوغل)

[٩] أبو صحبه كناية عن ذكر الرجل، وكلمة ينود بمعنى يأتي المرأة دحما دحما أي بقوة ونشاط (يرهز)

[١٠] الجاموس حيوان يشبه البقر ولكنه أضخم حجمًا وأغزر لبنًا ونسبة السمن في لبنه مرتفعة جدًا، ويستخرجون منه "القيمر"

وهي القشطة التي لا تخلو منها مائدة طعام الصباح العراقية. تجد الجاموس باللون الأسود فقط ويعيش في الأهوار حيث المياه الضحلة التي يقضي فيها جلَّ ساعات النهار.

[١١] اللهجة الجنوبية في العراق صعبة على الفهم لدى العديد من الدول العربية وحتى على العديد من مناطق العراق، فمثلاً لا يقولون خدك وإنما خدج، أو كلمة " كله" فإنها تعني الناموسية التي تحمي الناس من لسع البق، وغريري حيوان بري يشبه القطط الوحشية، وغيرها.

[١٢] اللغة المندائية هي إحدى اللهجات الآرمية القديمة، وقد كُتبتْ بها كل الكُتب المندائية، وبها تقام الطقوس والصلوات وغيرها، ولم تعد تلك اللغة متداولة بين المندائيين إلا بالحدود الدينية.

[١٣] ششتر: مدينة تقع في جنوب غرب إيران تسكنها أغلبية عربية وسكنتها أعداد غفيرة من أهلنا المندائيين قبل أن يتعرضوا إلى مجزرة هناك بسبب النعرة الدينية.

[١٤] الجنرال مود: هو قائد الجيش البريطاني الذي احتل بغداد في ١١ مارس ١٩١٧م.

[١٥] جابر بن حيان: عالم في فروع عدة واشتهر بالكيمياء، وهو من أصل كوفي عاش في القرن الثامن الميلادي.

[١٦] يبدأ عمل جابر بن حيان في تكوين إنسان باستخدام آلة مصنوعة من الزجاج أو البلور، ويقترح أن تكون سماكتها بثخن الإصبع، وبعد ذلك يتحدث عن نقل بدن جارية ووجه رجل، أو عقل رجل وجسم صبي، إلخ.

[١٧] ظهرتْ مجموعة من الكتب الجادة في هذا المضمار مثل كتاب "بخور الآلهة" للدكتور خزعل الماجدي، وكتاب "أصل الأديان" لفراس سواح، والعديد غيرها، ولكنها جميعًا تعتمد على ما كتبه علماء النثورلوجيا الأوربيي،ن مثل فريزر وتيلر ومالنوفسكي وغيرهم.

[١٨] السير جيمس فريزر عالم الإنثربالوجيا الأشهر وُلِد في أسكتلاندا عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٩٤١.

[١٩] جورج ويلهلم فريدريك هيغل(١٧٧٠-١٨٣١) (بالإنجليزية: Georg Wilhelm Friedrich Hegel) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت، في المنطقة الجنوبية الغربيةِ من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

[٢٠] خزعل الماجدي عالم عراقي في التاريخ القديم حصل على شهادة الدكتوراه في علم في فلسفة الديانات القديمة من مواليد ١٩٥١.

[٢١] البارسيكولوجي: مصطلح يعني ما وراء علم النفس أو علم النفس الغيبي ويشمل الرؤية عن بعد وتحريك الأشياء عن بعد والتخاطر والخروج من الجسد، إنه علم الخوارق.

[٢٢] كولن ولسن: الإنسان وقواه الخفية.

[٢٣] اللغة الآرامية من اللغات السامية تعود إلى القرن العاشر قبل ميلاد المسيح.

[٢٤] وسائط نقل الركاب في العاصمة بغداد كانت تسمى "الأمانة" وبعدها تبدل اسمها إلى باص المصلحة، أي مصلحة نقل الركاب.

[٢٥] توفي بهجت رحمه الله في العراق في ١٩٩٣ من القرن الماضي ولكنه لا يزال يعيش معي تاركًا ذكرى عطرة في قلوب معارفه.

[٢٦] خالد بكداش هو رئيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني قبل أن ينفصلا عام ١٩٦٤، مُنِح وسام ثورة أكتوبر السوفيتي بمناسبة بلوغه الستين من العمر عام ١٩٧٢. وكان أحد قادة الحركة الشيوعية في العالم العربي والعالم أيضًا. ولد عام ١٩١٢ وتوفي عام ١٩٩٥ وهو من أب وأم كردية، وقد مثَّل الوفود العربية للكومنترن عام ١٩٣٥، درس الحقوق في دمشق. استلمت قيادة الحزب الشيوعي السوري بعده زوجته (الرفيقة) وصال فرحة بكداش ومن بعدها ابنه الدكتور عماد بكداش!.

[٢٧] القصر الأوسط هو موقع أثري من عهد الكيشيين.

[٢٨] ولد باتريس لومومبا عام ١٩٢٥ في ستانليفيل (كيسانغاني) بمقاطعة الكونغو الشرقية، وينتمي إلى قبيلة باتيليلا وهي جزء من قبيلة المونغو. وهو من أبناء النخبة الكونغولية التي حظيت بالتعليم في فترة الاستعمار البلجيكي المتحالف معه. ولكن لومومبا قاوم الاستعمار البلجيكي وأسَّس الحركة الوطنية عام ١٩٥٨ وكانت أقوى الحركات السياسية في الكونغو. وحظي لومومبا بشعبية واسعة وقاد مظاهرات ومواجهات مع الاستعمار البلجيكي أدَّتْ إلى اعتقاله لمدة ستة أشهر، وأُفرِج عنه لإنجاح المفاوضات التي كانت تجري في بروكسل لبحث مستقبل الكونغو، ونُقِل من السجن إلى بروكسل بالطائرة، وتمَّ الاتفاق على استقلال الكونغو وإنهاء ثمانين عامًا من الاستعمار البلجيكي.
أُجرِيت انتخابات نيابية في مايو/ أيار ١٩٦٠ تنافس فيها أكثر من مائة حزب، وحققت الحركة الوطنية بقيادة لومومبا انتصارًا نسبيًا. وحاولت بلجيكا التي كانت تدير البلاد إخفاء النتائج وإسناد الحكم إلى حليفها جوزيف إليو، ولكن الضغط الشعبي أجبرها على تكليف لومومبا بتشكيل الحكومة. وشكلت أول حكومة كونغولية منتخبة في ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩٦٠ وقام ملك بلجيكا بودوان بتسليم الحكم رسميًا. وحدثت أزمة سياسية أثناء حفل التسليم، فقد ألقى لومومبا خطابًا أغضب البلجيكيين، وسُمِّي بخطاب "الدموع والدم والنار" تحدث فيه عن معاناة الكونغوليين

وما تعرضوا له من ظلم واضطهاد. وكان الملك بودوان قد سبق لومومبا بحديث أغضب الكونغوليين واعتبروه مهينًا ويفتقر إلى اللياقة.

ولم تنعم الكونغو بالاستقلال سوى أسبوعين، فقد دخلت في سلسلة من الأزمات لم تتوقف حتى اليوم. ووجدت حكومة لومومبا نفسها تواجه أزمات كبرى: تمرد عسكري في الجيش، وانفصال إقليم كتانغا أهم إقليم في الكونغو بدعم من بلجيكا، واضطرابات عمالية. وقرَّر لومومبا دعوة قوات الأمم المتحدة للتدخل لمساعدته على توحيد الكونغو وتحقيق الاستقرار، ولكنها تدخلت ضده. وانفض عن لومومبا عدد من حلفائه الأساسيين بدعم أميركي وبلجيكي، وساءت علاقته مع رئيس الجمهورية كازافوبو. ورغم أن منصب رئيس الجمهورية شرفي والسلطة الفعلية بيد رئيس الوزراء، فإن كازافوبو أعلن إقالة الحكومة، ولكن مجلس الشيوخ صوَّت بأغلبية كبيرة ضد القرار.

ثم أعلنت مقاطعة كازائي انفصالها عن الكونغو ودخولها في اتحاد مع كتانغا. واستغل موبوتو رئيس هيئة الأركان هذه الفوضى فاستولى على السلطة عام ١٩٦١ في انقلاب عسكري هو الأول من نوعه في أفريقيا في ذلك الوقت. وألقي القبض على لومومبا واثنين من أهم رفاقه هما: نائب رئيس مجلس الشيوخ جوزيف أوكيتو، ووزير الإعلام موريس موبولو، وأعدما على يد فصيل من الجيش البلجيكي.

ووفقًا لكتاب نُشِر في هولندا مؤخرًا ألفه لودو ديفيت بعنوان "اغتيال لومومبا"، واعتمادًا على وثائق بلجيكية سرية حصل عليها المؤلف، فإن لومومبا اعتقل عام ١٩٦١ في مطار إليزابث فيل لدى هبوطه من الطائرة على يد درك كتانغا بقيادة خصمه تشومبي المتحالف مع موبوتو، وكان ستة جنود سويديين تابعين لقوات الأمم المتحدة حاضرين لحظة الاعتقال.

ونُقِل لومومبا ورفاقه إلى سجن بلجيكي في سيارة جيب يقودها ضابط بلجيكي، وأعدموا رميًا بالرصاص بعد بضع ساعات على يد كتيبة إعدام يقودها ضابط بلجيكي، وتمَّ التخلص نهائيا من الجثث بعد أربعة أيام بتقطيعها إلى قطع صغيرة وإذابتها في حمض الكبريت. ونفذ هذه المهمة ضابط شرطة بلجيكي اسمه جيرارد سويت، وكان الحمض في شاحنة مملوكة لشركة تعدين بلجيكية. وقد اعترف سويت بذلك في لقاء تلفزيوني أجري معه العام الماضي، وقال إنه احتفظ باثنين من أسنان لومومبا كـ"تذكار" لسنوات عدة، ثم تخلص منهما بإلقائهما في بحر الشمال.

§ صدر للمؤلف :

١- مغامرات البارون منهاوزن : ترجمة عن الروسية. عن دار ثقافة الطفل في بغداد عام ١٩٨٩

٢- الأمير الصغير : ترجمة عن اللغة الروسية. عن دار ثقافة الطفل في بغداد.

٣- كشف الأسرار عن سحر الأحجار : كتاب متخصص بالأحجار الكريمة. عن دار النمير للطباعة والنشر في دمشق عام ٢٠٠٩

٤- أولاد المهرجان : مجموعة قصصية تتحدث عن شريحة منسية من العراقيين (المندائيين). عن دار النمير للطباعة والنشر في دمشق عام ٢٠١٠

٥- اللطلاطة : مجموعة قصصية تتحدث عن أول قرية بناها المندائيون في العراق الحديث. عن دار النمير للطباعة والنشر في دمشق.

٦- طبعة ثانية وكاملة لكتاب مغامرات البارون منهاوزن : عن دار النمير للطباعة والنشر في دمشق.

٧- صندوق الأبنوس: مجموعة قصصية . عن شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني : abuklam96@yahoo.com

الفهـرست



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net